



# قِيَامُ الدَّوْلَةِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ

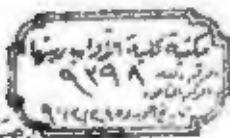
٩٢٩٨  
١٩٩٨

تأليف  
الكتور دفاة محمد علي

أستاذ التاريخ الحديث المعاصر  
مكتبة الأوقاف - جامعة أسيوط

١٩٩٨  
١٩٩٨

الطبعة الأولى



١٤٠٧ هـ

مقدم الطبع والنشر  
دار الفكر العربي  
١٩٩٨  
١٩٩٨



١٩٩٨

اهداء من

احمد رزق

تسليم الدعاء

صدقة جارية عنه وعن والديه



قِيَامُ الدُّوَلِ الْأَجْنِبِيَّةِ  
فِي مِصْرَ وَالشَّامِ

9291 22

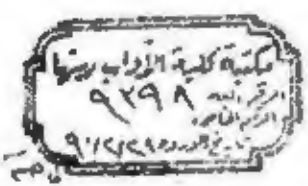
ألف

الكتور وفاء محمد علي

أستاذ التاريخ البري والمضي المساعد  
كلية الآداب - جامعة سيوط

161.191

الطبعة الأولى



A1E-V

مهدوم الطبع والنشر

دار الفکر العربی

١١ شارع جزار حمزة / القاهرة  
هاتف ١٣٠ - فاكس ١٦٠٩٩٣



ت. اسرار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا  
مَدَقُ اللَّهِ الْعَظِيمِ

« بسم الله الرحمن الرحيم »  
« بين يدي الكتاب »

هذا بحث جديد يضاف الى ما كتب عن دولة الأيوبيين ، خصصت به قيام هذه الدولة في مصر والشام ، وفي اعتقادي أن ما كتب عن هذه الدولة - رغم قيمتها المؤثرة - في تاريخ الإسلام - لا يصل إلى الحد الذي ينبغي أن تناله من رعاية وعناية ، فقد كانت هذه الدولة بحق هي الأمل الذي تحقق بعد أن راود رجالاً من الأبطال عملوا جاهدين من أجل تحقيق هدفين أحدهما وسيلة إلى الآخر : الهدف الأول هو تحقيق الوحدة العربية ، والهدف الثاني هو تحرير الأرض التي دنسها الوجود الصليبي أمداً طويلاً فسبق على حرب الجهاد الطويل أبطال مثل مودود ، وزنكي ثم نور الدين محمود الذي غرس البذر ، ولم ينعم بالشمار .

وقد قسّمت هذا البحث إلى أربعة فصول ألحقتهم بعدة ملاحق :  
الفصل الأول بعنوان : الحالة في مصر قبل قدوم صلاح الدين تناولت فيه على الخصوص فترة ما يسمى بتحكم الوزراء ، تلك الفترة التي بدأت بعهد بدر الجبالي الذي جاء من عكا بناء على دعوة الخليفة المستنصر بالله له بعد أن سادت الفوضى أنحاء البلاد نتيجة الصراع بين طوائف الجند المختلفة التي كانت تكوّن الجيش الفاطمي ؛ وما أعقب ذلك من تناحر بين الوزراء شمل : الصراع بين ابن السلار وابن مصال ، والصراع بين عباس الصنهاجي وضرغام ، والصراع بين رزيق بن الصالح طلائع وشاور ؛ ثم الصراع بين ضرغام وشاور ، ذلك الصراع الذي انتهى بلجوء شاور إلى نور الدين محمود في الشام : وطلبه العودة إلى كرسي الوزارة في مصر على أسنة السلاح النوري ، ثم الصراع بين النوريين والفرنج والذي شمل

صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، والتي انتهت ثالثتها باستقرار شيركوه في مصر وتولية الوزارة الفاطمية للخليفة العاضد بالله ، ولم يمكث شيركوه طويلاً في الوزارة حيث توفي بعد قليل فتسول الأمر الى صلاح الدين .

وكان الفصل الثاني في هذا البحث بعنوان : « الدور الأيوبي حتى وفاة نور الدين » ، وناقشت فيه بعض الموضوعات التي ثار حولها الجدل وحاولت أن أدلى فيها بدلوى معتمداً على المصادر الأصلية والتي عاصرت الأحداث لاثبات مذهبتي إليه وقد تعرضت في هذا المجال لدعوى أن إعلان الخلافة العباسية في مصر وإحلالها محل الفاطمية « لم ينتج فيه هنزان » وكان المصريين « عبيد لمن غلب » كما روج بعض المؤرخين وأثبت أن ثمة حركات ثورية قامت تناوياً بالحكم الجديد امتدت من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب : في الاسكندرية ، في القاهرة ، في قوص وفي أسوان استهدفت عودة الدولة الفاطمية « دولة المصريين » وأيدت العواطف الشعبية المصرية هذه الحركات .

كما نالت العلاقات بين نور الدين محمود وصلاح الدين - والتي تعددت فيها الآراء - حظاً من هذه الدراسة ، وأثبت أنه خلاف لم يتخذ صورة الغدر أو الخيانة من صلاح الدين لنور الدين وأن ما طرأ بينهما من خلاف كان مجرد خلاف في الرأي والوسيلة ولكنه لم يكن خلافاً في الأهداف والغايات ، والخلاف في الرأي « لا يفسد للود قضية » كما يقال .

أما الفصل الثالث فتناول الدور الأيوبي بعد وفاة نور الدين وولاية ابنه الصغير الملك الصالح إسماعيل ، مما هيا لصلاح الدين فرصة تحقيق طموحه بإيجاد وحدة مصرية شامية تكون الركيزة للانطلاق لتطهير الأرض من الفرنج الغاصبين . ومن هنا كان على صلاح الدين في هذه المرحلة مواجهة ثلاثة مصاعب أو عقبات هي : الزنكيون - الفرنج - والباطنية ؛ وبينت ما قام به صلاح الدين في هذه المرحلة وما حققه من نجاح .

أما الفصل الرابع والأخير فجاء بعنوان « تدعيم الدولة الأيوبية في مصر والشام » ، وكان صلاح الدين قد فاز باعتراف الخلافة العباسية به ملكاً لمصر والشام ، وقد تمكن صلاح الدين في هذه المرحلة من الاستيلاء على بقية بلاد الشام ، واستولى على حلب بعد وفاة الملك الصالح إسماعيل وتمكن من إخضاع صاحب الموصل لسلطانه ، ثم بينت كيف حارب الفرنج - الذين كانوا يسعون بوحى من أنفسهم وبدعوة من الزنكيين الخائفين من صلاح الدين على بلادهم - بعد ذلك بجهة إسلامية موحدة من مصر والشام والجزيرة العراقية فاستولى على قلاعهم ومدنهم وحقق عليهم نصره الساحق في حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وحقق أمل المسلمين قاطبة بتحرير بيت المقدس في نفس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، ثم أوضحت رد الفعل الأيوبي الغربي لسقوط بيت المقدس والذي تمثل في الحملة الصليبية الثالثة التي لم أتناولها بإسهاب كبير حيث أن أهم ما فيها ما أسفرت عنه من نتائج تمثلت في صلح الرملة الذي كان يعني أكثر من أى شيء أن الحملة الصليبية الثالثة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس . على أن صلح الرملة وإن تم على غير هوى من صلاح الدين إلا أنه جاء في وقته المناسب الذي خطته يد العناية الإلهية حيث مالبث أن توفي صلاح الدين بعده بقليل ولم يتجاوز الخامسة والخمسين أو السادسة والخمسين من عمره تاركاً لأولاده وإخوته من بعده دولة أيوبية مترامية الأطراف .

وختمت البحث بسؤال هو : هل ملأ خلفاء صلاح الدين الفراغ الذي وجد بموته ؟ ولعل الإجابة عنه تأتي في بحث آخر قريب إن شاء الله .

وإننى أرجو من الله جلّ وعلا أن أكون قد وفقت في إضافة لبنة إلى صرح الدراسات في الدولة الأيوبية ، والحمد لله في الأول والآخر ، وعليه وحده قصد السبيل .

## الفصل الأول

### « الحالة في مصر قبيل قدوم صلاح الدين »

اضطرت الظروف التي سادت مصر في العصر الفاطمي الثاني الخليفة المستنصر بالله في سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م أن يستعج بيدر الجيالي وإلى عكا لينقذه من تلك الفتنة المدمرة التي نشأت في عهده بين طوائف الجند المختلفة ، فجاءه بدر الجيالي بجنده من الأرمن<sup>(١)</sup> وقوى الوزارة للمستنصر وزارة سيف وقلم ، وأعاد الأمن إلى البلاد ، ووضع الأمور في نصابها ، وصارت له الكلمة العليا في مصر مدة عشرين سنة<sup>(٢)</sup> من سنة ٤٦٧ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ ( ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م ) ، فعمر الريف ، وأرخص الأسعار ، وأصلح سودان الصعيد ، واستدناهم إليه ، وجاءه منهم الكثير فصلحت الحال في مصر بعد فسادها ، وعمرت بعد خرابها<sup>(٣)</sup> ، ولم يبق للمستنصر مع بدر أمر ، وألقى إليه مقاليد مملكته ، وسلم إليه أمور خلافته<sup>(٤)</sup>.

ويعرف العصر الذي بدأ ببدر الجيالي « بعصر الوزراء العظام » ، وذلك أن الوزراء أصبحوا هم أصحاب السلطة دون الخلفاء<sup>(٥)</sup> ، وجاء في سجل

( ١ ) في ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ هـ استدعاه المستنصر من عكا التي كان والياً عليها ، ووعده الخليفة بتملك البلاد والاستيلاء عليها ، فاشتراط عليه أن يقدم بمسكر معه ، وأنه لا يبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزراءهم ، وكان معظم العسكر الذين استعان بهم من الأرمن ، وبهذا دخل عصر جديد في تكوين الجيش الفاطمي إلى جانب الأتراك والسودان والمغاربة والمصطنعة إلى المرتفعة . انظر اتصاف الخلفاء ج ٢ ص ٢١١ فتل : وساحية رقم ٤ ومصر في العصر الفاطمي / الشيال ص ٤٤٦

( ٢ ) مرآة الزمان ج ٩ ص ٤٢٦

( ٣ ) اتصاف الخلفاء ج ٢ ص ٣٢٩

( ٤ ) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٢٩

( ٥ ) مصر العربية الإسلامية ص ١٩٩ ، وهم بهذا المعنى وزراء تفويض لا وزراء تنفيذ كما كان

تولية بدر الوزارة مايدل على ذلك ، فجاء فيه : « وقد قلّدتك أمير المؤمنين ماوراء سريره »<sup>(١)</sup>

وانتهى الأمر بالخلفاء الفاطميين إلى أن تركوا وزراءهم بلبقون أنفسهم بالملك ، ويوزعون مزايا الحكم كما يشتهون<sup>(٢)</sup> .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م<sup>(٣)</sup> ، قام بالخلافة ابنه المستمل بالله ( ٤٨٧ - ٤٩٥هـ ) ( ١٠٩٤ - ١١٠٢م ) وهو في حوالى العشرين من عمره<sup>(٤)</sup> ، وكان الوزير في عهده هو الأفضل بن بدر الجهمي<sup>(٥)</sup> ، وسيطر على المستمل سيطرة كاملة ، حتى غدا وليس له معه حكم ، وثبتت في عهد المستمل هذا الصراعات بين المستعلبة والنزارية التي انتهت بمقتل نزار<sup>(٦)</sup> .

وعلى الجملة اختلفت الأحوال في عهد المستمل ، وانقطعت من أكثر

(٦) النواظ والأخبار ج ٢ ص ٣٠٤ في العصر الفاطمي الأول

مصر في العصر الفاطمي / الشهاب ص ٤٤٥

وانظر مصر في العصر الفاطمي ص ٤٤٥

(٧) قصة الحضارة ج ٢ جلد ٤ ص ٣١٨

(٨) وكان بدر الجهمي قد توفي قبله ، كما مات فيها كذلك الخليفة المتدي بالله العباسي ، ولذلك عرفت تلك السنة موت الخلفاء . انظر شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨٠ - ٣٨٢ .

(٩) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦١ والاعاظ المحتاج ج ٣ ص ١١ وكذلك النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ ومجمعه صاحب درر النيجان ٤٤٩ سجع عشرة سنة .

(١٠) اسمه شاهنشاه . أما الأفضل فهو لقبه ، حيث استحدثت في عهده عادة اتخاذ النعوت الشخصية ، على مثال نعوت الخلفاء ، وسرى استعمالها بعد ذلك في اللقب شاهنشاه نفسه بالأفضل ، كما سلقب أبو عل أحمد بن الأفضل بالأكمل .

الانقلاب الاسلامي ص ٧٢ ، ومصر في العصر الفاطمي ص ٤٤٥

(١١) وكان الحسن بن الصباح القائم بدعوة الاسماعيلية النزارية ، فكلم المستنصر في إقامة الدعوة له في بلاد الصعيد ، فلذن له في ذلك سرا ، فظهرها ابن الصباح ، واستولى باسمه على القلاع والبلاد ، وكان ابن الصباح سأل المستنصر بالله : من إمامي بعدك ؟ فقال : ابنى نزار ، وهو أكبر أولاده فلما مات المستنصر عدل الأفضل الوزير من إقامة الدعوة لنزار وألقاها للمستمل .

مدن الشام دعوة الفاطميين ، وانقسمت البلاد بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الصليبيين<sup>(١)</sup> وكان الأفضل في عهد المستمل قائماً بتدبير أمر الدولة تدبير سلطنة وملك ، لاتدبير وزارة ، وامتدت سطوته إلى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله ( ٤٩٥ - ٥٢٤هـ ) ( ١١٠١ - ١١٣٠م ) ، وكان حاجزاً عليه ، ليس له معه أمر ولا نهى ، وكان هو الخليفة في الظاهر ، وليس للأمر معه من الأمر شيء حتى قتل الأفضل بن بدر الجهمي في أول رمضان سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م<sup>(٢)</sup> .

وكان الثالث من أفراد أسرة بدر الجهمي هو أبو عل أحمد بن الأفضل بن بدر الجهمي الملقب بكتيفات المنعوت بالأكمل والذي استوزره الخليفة الحافظ قطعي واستبد به ، وحجر عليه ، بل وسجنه فيها بين الديوان وباب العبد<sup>(٣)</sup> ، واستولى على ماقى القصر من الذخائر والأموال ، وقال : هذا مال أبى وجدى<sup>(٤)</sup> . وذلك لأن الخليفة الأمر كان قد نقل أموال وزيره الأفضل القليل إلى دار الخلافة . وبلغت الأمور بالأكمل أن قطع الأذان يحى على خير العمل ، وضرب الدراهم باسمه ، واعتقل الخليفة ، وخطب للقائم المنتظر ، فألب ذلك القلوب عليه ، وحمل عشرة من صبيان الخاص عليه خارج باب الفتوح ، وطعنوه حتى قتل ، وذلك في يوم الثلاثاء ١٦ من محرم سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م ، ثم إن الخليفة الحافظ أخرج من الخزنة ، وأعيدت الأموال والذخائر إلى قصره مرة أخرى<sup>(٥)</sup> ، واعتبر اليوم الذي قتل (١٢) تعاطي المحتاج ج ٣ ص ٢٧

(١٣) اشترك في قتله أربعة رجال من البياطية ، قتل منهم ثلاثة وقطعوا وأحرقوا ، وكان عمر الأفضل لدى قتله سبعا وخمسين سنة بعد أن وزر ٢٨ عاماً ، وشغل الكثير من الأموال دور النيجان ص ٤٥٦ . تعاطي المحتاج ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ .

وشذرات الذهب ج ٤ ص ٤٧

(١٤) أحمد أبواب القصر الفاطمي الكبير ، وأمنه رجة سميت باسمه . حاشية ج ٢ ص ١٤٠ تعاطي المحتاج

(١٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩

(١٦) تعاطي المحتاج ج ٣ ص ١٤٣ وشذرات الذهب ج ٤ ص ٧٨ وانظر النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٨



فيه الأكمل عيداً للإسماعيلية وسمى « عيد النصر » : وظلت الدولة تحتفل به سنوياً في عهد الحافظ ، وفي عهود من تلاه من الخلفاء إلى أن دالت الدولة وزالت<sup>(١٧)</sup>.

وبموت الأكمل انتهى عصر تحكم أسرة بندر الجمالي في الفاطميين الذي ابتدأ بدخول بندر في سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م ، وانتهى بمقتل حفيده الأكمل سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م ، وفي تسلطهم جميعاً على الأحوال في مصر يقول ابن تقي بردي : « إن أحمد هذا ووالده وجده ، كانوا أصحاب مصر ، والخلفاء معهم تحت الحجر والضيق ، وتصديق ذلك ما خلفه الأفضل شاهنشاه من الأموال والمواشي وغير ذلك ، وإنما كان يطلق عليهم الوزراء ، لكون العادة جرت بأن الملك للخليفة<sup>(١٨)</sup> ».

#### الصراع على الوزارة :-

وفي عهد الخليف الحافظ بدأت تطل مشكلة جديدة تعمل بجمعها في إضعاف الدولة الفاطمية .

وذلك أن الخليفة الحافظ ولي بهرام الأرمني النصراني الوزارة ونعت بهرام « سيف الإسلام تاج الملة<sup>(١٩)</sup> » ، وكادت تقع بسبب ذلك فتنة طائفية ، فقد ازداد نفوذ الأرمن في البلاد بعد ما جاءوا بأعداد وفيرة إلى مصر ، وبالسبب أخوه المسمى « الباساك » في استباحة أموال الناس ، والمبالغة في إيذائهم وظلمهم ، مما أثار موجة عارمة من السخط في أوساط الناس ، كما عظم على الأمراء ذلك ، فاستغلوا بأبي الفتح رضوان بن ولخشي متولي الغربية يومئذ ، الذي جمع جموعه وتوجه لمحاربة بهرام<sup>(٢٠)</sup> ، وتمكن من هزيمته ، وعندما سرى خبر هزيمة بهرام إلى قوص قتل الناس

(١٧) مصر في العصر الفاطمي ص ١٥٢

(١٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩ ، واستمرت وزلته سنة واحدة وعشرة أيام . فرد التيجان ص ٤٦٢

(١٩) تناقض الحفاج ٣ ص ١٥٥

« الباساك » ومثلوا به ، وأذن الخليفة الحافظ لرضوان بن ولخشي بالتزول في دار الوزارة ، واتخذ وزيراً ، وتم ذلك في يوم الجمعة ١٣ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٩ م .

وكان رضوان هذا خفيفاً عجولاً ، فأخذ يبين حاشية الخليفة ، بل أنه هم يخلع الخليفة نفسه ، وقال : « ما هو بإمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح<sup>(٢١)</sup> ».

ودبر الحافظ عليه حتى أثارها فتنة ضده ، وهزم رضوان ، فخرج إلى الشام ليتقوى منه بجند يعود بهم إلى حرب الخليفة الحافظ ، ولكنه عندما عاد هزمه جنود الحافظ ، ففر إلى الصعيد حيث قبض عليه ، واعتقل ، غير أنه تمكن من الهرب من معتقله ، وخرج من نقب ، وثار بجماعة ، وكانت فتنة انتهت بقتله في سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م<sup>(٢٢)</sup>.

#### الصراع بين ابن مصال وابن السلار :-

ولي الخليفة الظاهر الخلافة بعد وفاة الحافظ في سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م<sup>(٢٣)</sup> ، وقد دخلت مصر في عهده في فوضى الاضطرابات وزاد الصراع على السلطة بين الوزراء ، وتدخلت سيدات القصر وأميراته في شئون الحكم نظراً لصغر سن الخليفة حيث كان في السابعة عشرة من عمره ، وكان محور الصراع في ذلك الوقت على وجه الخصوص يتركز بين الوزير ابن مصال وبين المظفر الملك العادل ابن السلار وإلى البحرية والإسكندرية ، وذلك أن الخليفة الظاهر استوزر ابن مصال بوصية أبيه له ولم يرض ذلك ابن السلار ، فاتفق مع ربيبه عباس على مناهضة ابن

(٢١) وذلك أن الحافظ ولي الحكم ولم يكن ابناً للأم وإنما هو ابن عمه حتى تضع زوجة الحافظ حملها الذي قيل أنه جاء بنتاً كما قيل أنه جاء ولداً ولكن الحافظ تخلص منه .

مصر في العصر الفاطمي ص ٤٥٠ - ٤٥٢

(٢٢) ابن القلاسي ص ٢٧١ - ٢٧٣ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ واتناض الحفاج ٣ ص ١٨٣ - ١٨٤

مصال ، ووقعت لذلك الحرب بينهما ، وتمكن ابن السلار من دخول القاهرة في يوم الأربعاء ١٥ من شعبان سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، فوقف على القصر ، وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله (٢٤) ، وانتهى الأمر بولايته الوزارة ، وظل يحقد على الخليفة الظافر الذي كان يعيل إلى ابن مصال ، وكذلك كان في نفس الخليفة نفور من ابن السلار ، وكان ابن السلار سنياً مغالياً ، فأسقط الصبغة الشيعية ، وحول الشعائر الرسمية إلى المذهب السني (٢٥) .

وولى ابن السلار أمور جيشه عباساً ابن زوجته ، فسار عباس إلى ابن مصال وهزم جنده على دلاص (٢٦) ، وقتل ابن مصال ، وحملت رأسه إلى القاهرة وطيف بها على فتاة وذلك في يوم الخميس ١٣ من ذي القعدة سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وتمكن ابن السلار من فرض سيطرته على الخليفة ، وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم (٢٧) ، غير أن الأمور لم تستقر لابن السلار حيث تأمر عليه عباس الصنهاجي ربيبه ، وتم بمعرفة نصر بن

(٢٤) تدخلت سيدات القصر وأميراته في شئون الحكم بسبب تزايد سلطة الوزراء ، وما أصاب الخلفاء على أيديهم من المهانة ، فتدخلن للانتقام من بعض الوزراء لحماية بعض الخلفاء الصغار ، فبعد قتل الظافر مثلاً أرسلن شعورهن إلى طلائع بن رزيك للاستغالة به ، وقذبن الوزير القاتل عباس وجنوده بالأحجار ، كما عملن على التخلص من ابن رزيك نفسه بعد ذلك .

(٢٥) أظهر ابن السلار اعتناقه للمذهب السني ، وصار شافعي المذهب ، ولا ولى الاسكندرية بعد وصول الخافظ السفلي الفقيه الشافعي في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م ، عامله بكل محبة واحترام ، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م مدرسة للشافعية بالاسكندرية أسند إليه إدارتها ، وهذا ما ابن السلار لرجوع المذهب السني إلى مصر . انظر الطبري في مصر ص ٢٩٦ .  
وانظر مصر العربية الإسلامية ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢٦) دلاص : كورة بصعيد مصر على غربي النيل ، ودلاص مدينتها معدودة في كورة اليهسا .  
معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٩ .  
وقوانين الدواوين ص ١٤٠ .

(٢٧) الكامل ج ٩ ص ٢٥ .

عباس قتل ابن السلار (٢٨) ، وتشابكت الأحداث بعد ذلك لتنتهي بمقتل الخليفة نفسه على يد نصر بن عباس (٢٩) في نصف المحرم سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م (٣٠) وكما لقي الخليفة مصرعه بتلك الأيدي الأثمة لقي أخوا الخليفة نفس المصير على يد عباس حيث اتهمها عباس بقتل الخليفة (٣١) .

ولم تسر الأمور وفق ما أراد المتآمرون ، حيث ثارت الفتنة بمصر ، وأبغض الناس قتل الخليفة ، وفي تلك الأثناء كانت بنات الخافظ طلائع بن رزيك ، وأرسلن إليه يستصرخن على عباس (٣٢) ، ولى طلائع بن رزيك النداء وسار من منية الحصيب (٣٣) في صعيد مصر حيث ولايته ، وتمكن من هزيمة عباس الذي خرج هارباً إلى بلاد الشام ، ولكن الفرنج

(٢٨) وكان ذلك بتعريض من أسامة بن منقذ وموافقة من الخليفة الظافر . ابن القلاص ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ، والكامل ج ٩ ص ٤١ .

(٢٩) اتعاظ الحناج ج ٣ ص ٢٠٩ ، وفي كثر الدوا : الذي قتل الخليفة هو عباس نفسه ، حيث التقاه بسيفه وقال له : « خليفة يليل من أمر الصيالي » ثم قبض عليه وذبحه كثر الدوا ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٣٠) الكامل ج ٩ ص ٢٥ ، درر التيجان ص ٤٥٦ كان مقتله في ٦ من المحرم ص ٤٦٩ ، ويشارك معه في ذلك ابن مسر . انظر ج ٢ ص ٩٢ وقال صاحب شذرات الذهب ان مقتله كان في شعبان . شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٢ .

(٣١) والأخوان ص ١ : أبو الأمانة جبريل ويوسف .

انظر أخبار مصر ج ٢ ص ٩٣ واتعاظ الحناج ج ٣ ص ٢١٤ .

(٣٢) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣ وأخبار مصر ج ٢ ص ٦٤ .

انظر Saunders, A history of Medieval Islam, P. 163 .

Lane- Poole, Hist. Of Egypt in the middle ages P. 173 .

(٣٣) بلد على شط النيل ، مياماً للصاعده فيه ، كثير الأسواق والعمارات وسائر مرافق المدن . رحلة ابن جبير ص ٢٨ ، وفي القاموس الجغرافي لمحمد رمزي : على الضفة الغربية للنيل ، وهي منسوبة إلى الحصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد .

القاموس الجغرافي ج ٢

مالشوا أن فتكوا به وقتلوه ، وقتلوا معه ابنه حمام الملك (٣١) ، ووقع نصر أسيراً في أيدي الفرنج حيث أعادوه إلى مصر في قفص من حديد ، عن طلب من أخت الظاهر التي بذلت لهم الكثير من الأموال في سبيل ذلك وأباحتهم مامعه ، وأدخل نصر إلى لقصر وقد قطعت يده اليمنى ، وصلى سحراً على باب رويله ، وكان قتله محاسناً المسار ، وصعداً بالثعال ، وقطع لحمه وشوى وأطعم إياه ، واشترك في قتله عن هذه الصورة ساء الظاهر وجواربه (٣٢)

واستند الصالح طلائع بن رزيك ، فسيطر على الخليفة الفائز (٥٤٩ هـ - ٥٥٥ هـ) ، وصار الخليفة معه ، وليس له من الخلافة إلا مجرد الاسم فقط ، وذلك لصغر سنه (٣٦) وبعد وفاة الفائز في سنة ٥٥٥ هـ استمرت سيطرة الصالح طلائع على الخليفة العاضد وزوجه من ابنة ليصير له الملك والخلافة معا (٣٧) ، ولم يرض ذلك سيدات القصر فديرين مؤامرة قتل فيها الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م (٣٨) وتولى الوزارة بعده ابنه وزيك بن الصالح

شاوور وزريك :-

بدأ رزيك عهده بالظفر بقتله أبيه ، وظفرهم ظفراً عجباً بعد أن كانوا تشتتوا في البلاد (٣٩) ، وصار العادل رزيك سيرة عادلة فسلح الناس بما بقى

(٣٤) أخبار مصر ج ٢ ص ٨٥ واتعاظ لاحتاج ٣ ص ٢٢٠

(٣٥) اتعاظ لاحتاج ٣ ص ٢٢١ ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « فاقم بضربته خالتيه وقرابيل ألباناً ، وقطع لحمه ، وأطعمه إياه ، ثم صلبه » النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١١ . يبي يقول صاحب شذرات الذهب : « فظفروا يديه وقرضوا جسمه بالمقاريض وصلوه على باب رويلة » وعلى سنة وصفا مصلوباً : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣

(٣٦) اتعاظ لاحتاج ٣ ص ٢٥٣

(٣٧) Wiet, l'Egypte Arabe, P. 289

(٣٨) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٧٧

Kerr, The Crusades, P. 163

عليهم في الدواوين ، وأسقط من الرسوم عس الدس صانع عظيمة وفي عهد رزيك تم رفاة أخته إلى الخليفة العاضد ، ذلك الرواح الذي كان وراءه الطمع في الملك وإحكام الفضة على الخلافة العاطمية

وكان للصالح طلائع قد وضع نفسه بكرة الخلاف على ابنه عندما عين شاوور بن محير السعدى ولاية قوص (٤٠) ، وكان الصالح طلائع - أدرك حصاه هذا ، ونظم على توليته لشاوور على قوص ، حتى إنه أراد إعادته عن الطريق ، ولكنه لم يتمكن من إعادته ، في حين صمم شاوور على المضي إلى ولايته ، ولو أدى الأمر إلى التحدى وقال : « لا بد لقوص من والي » ، وأما ذلك ، والله لا أدخل القاهرة ، ومتى صرمت دخلت النوبة (٤١) ، مما اضطر الصالح إلى تركه

وكان للصالح طلائع بن رزيك بعد ولايته شاوور على الصعيد الأعلى إحدى ثلاث عنطت ارتكها (٤٢) . وحذر الصالح طلائع ابنه رزيك من شاوور ، وطلب منه ألا يتعرض له بإساءة ، ولا يعير سياسته تجهده ، حيث أنه لا يؤمن عصيانه والخروج عليه . ونكس رزيك لم يعمل مصيحة وأبده فجاءه الشر من حيث حذره ، وانتهت على يدي شاوور دولة بني رزيك (٤٣) ، فقد عمل رزيك بمشورة بطانته التي ربت له عزل شاوور ، وصرفه عن قوص حتى يتم له الأمر كله ؛ وإن كان هذا لا يعنى أن رزيك

(٤٠) وكانت مصر في العصر العاطمي تنقسم إلى أربع ولايات كبرى هي : ولاية قوص وبمككم مصولها جميع بلاد الصعيد ، وولاية الشربة ويشمل الأرض الواقعة شرقي فرع دمياط ، وولاية العربية ويشمل جميع البلاد الواقعة بين فرع رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب ، أما الأربعة فهي ولاية الاسكندرية ويضاف إليها البحيرة

أبصر مدونة العاطمية في مصر ص ١٤٤ د جمال ضرور

(٤١) اتعاظ لاحتاج ٣ ص ٢٥٤

(٤٢) والعلقات الأخرى هي : ساء الخاص على باب رويلة ، فوه مصر على القاهرة ، وخروجه بالساكر إلى بنس وتاجيره بإسعاد إلى بلاد الفرنج ، وكان ذلك قد كلفه مائتي ألف دينار . بعد

قد عدم الخلفاء الذين ثبروا بعد النظر فقد أشار عليه سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء بالآي يتعرض لشاور وأن يقيه على ولايته ، فرأى رزيق بعد تردد أن يعمره ، وولى مكانه الأمير نصر الدين شيخ الدولة من الرفعة ولاية قوص (١١) ، وكتب رزيق إلى شاور كتاباً يطالبه فيه بالتخلع عن ولايته وتسليمها إلى نصير الدين ، وأن يحصر إلى القاهرة ، ولم يقبل شاور بذلك ، وأرسل إلى نصير الدين الذي وصل في طريق ولايته إلى أحميم قائلاً له : « ارجع ولا تحصر ، قولاً واحداً » ، فاضطر نصير الدين إلى العودة إلى القاهرة ، وجاهر شاور عندئذ بالعصيان على العادل وزيق ، فخرج إلى طريق الواحات ، وتوجه إلى تروجة (١٢) ، ووحد من الناس مؤيدين له أقوى أمره ، ولعل اجتماع الناس عليه يرجع إلى ما لقوه على يد مماليك الصالح الدين راد طعياهم في زمن رزيق أنه حتى صبح الناس منهم (١٣) ، وقد سب ذلك قفلاً بالعدا لرزيق .

وقد توجه شاور بمس اجتماع معه في طريقه إلى القاهرة ، وانقضى مقرها بجيش رزيق الذي كان تعدادة ثلاثة آلاف فارس ، فلم يشتبه ذلك الجيش ، بل انضم بعض أمرائه إلى جيش شاور ، وكان من أحوار إلى جيش شاور من جيش رزيق أبو الأشبال صرغام ، ومن عن شاكته من الأمراء ، وكذلك هو الخاحب ونظروهم ، مما عجل بهزيمة جيش رزيق ، حتى إن حسين بن أبي الهيجاء كان أول من لاذ بالفرار وحسام من قصة ، واستجار ابن أبي الهيجاء في الخوف بطريق من مكنون أحد أمراء جذام فأجاره ، ومكث من الذهاب إلى المدينة المورة حيث حاورها مدة ومات فيها .

(١٤) اتعاظ الحماج ٣ ص ٢٥٤

(١٥) تروجة قرية من أعمال البحيرة حالاً ، وكانت من أعمال الاسكندرية في الطريق منها إلى القاهرة ، واشتهرت بزراعة الكمون . قوانين القوانين ١٢٢ ، ٢٢٩

(١٦) اتعاظ الحماج ٣ ص ٢٥٧ ، وقد وصف بعضهم ذلك الحال فقال

أقسم بالله رزيق جهلاً بذلك الأمر بشيعة الأمراء

أما رزيق فإنه لم يواجه جيش شاور ، وخرج إلى اطميح (١٧) ، فقص عليه مقدم العربان وأحد صائغ والده المعروف بسليمان بن العيص ، وأحد كل ما كان معه (١٨) ، وأسلمه إلى شاور الذي كافأه على ذلك شراً ، حيث قال : « ياسليمان لقد حبأك الصالح ذخيرة لولده حين استعاربك ، فأسلمته لي ، وأما الآخر أحيثك ذخيرة لولدي » ثم أمر به فشق (١٩)

ثم أمر شاور بقتل العادل وزيق فقتل في رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، وقدمت رأسه إلى شاور مدراً الورارة في طشت (٢٠) ، وبعث العاصد بحلقة الورارة إلى شاور ، ولقبه « أمير الحيوش » وفي ذلك يقول صاحب الكواكب النورية : « وكانت عادة خلفاء المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعرفوا عجزه ، وقعوا للعاهر ، ورتبوه ومكثوه ، فإن قوتهم إنما كانت تتم بعسكر وزيهرهم (٢١) »

وهكذا انتهت تلك المرحلة من الصراع بقتل العادل وزيق الذي انتهت مقتله دولة بني رزيق (٢٢) ، لتدخل البلاد من بعده في دائرة جديدة من الصراع بين شاور وصرغام .

(٢٣) اطميح بلد بالمعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقية ، وفي قبته مقدم موسى بن هيران ، عليه السلام فيه موضع قدمه ، وهي من أعمال الاطميحة

انظر معجم البلدان ج ١ ص ٢١٧ وقوانين القوانين ص ١٠٢

(٢٤) اتعاظ الحماج ٣ ص ٢٥٨

(٢٥) ص ص المصالح ٣ ص ٢٥٩

(٢٦) وقال في ذلك غيرة الياس وهو مشهور بوفاته

فُضِرْتُ عَلَى أَسْجَاعِ ابْنِ رِي دَاكِ الْخَبِيرِ مَضْرُجاً يَدْعَاهُ  
مَالِيقُهُ سَوَى رَجُلٍ قَلْبُوا أَيْدِيَهُمْ مِنْ قَبْلِ فِي مَعْنَاهُ

اتعاظ الحماج ٣ ص ٢٥٩

(٢٧) الكواكب النورية ص ٤٥

(٢٨) وكانت حلة بني رزيق في الورارة سبع سنين وشهر وأيام ، وفي رال دولة بني رزيق قال حمزة في حصرة شاور .

## شاوور وضرغام :-

سرعان مشب الخلاف بعد تولي شاوور الوزارة بينه وبين ضرغام بن عامر بن سوار الذي كان مقدما للأمراء البرقية كي كان صاحب الباب ، وانتهى الأمر إلى انقسام العسكر إلى فرقتين إحداهما تؤيد « شاوور » ، والأخرى تؤيد « ضرغام » ، وكان ضرغام « من نفسه وإخوته وأصحابه في جيش عظيم »<sup>(٥٣)</sup> ، وكنت ثورة ضرغام على شاوور بعد مضي تسعة أشهر من وزارة شاوور وذلك في ١٨ من رمضان سنة ٥٥٨ هـ متعللاً بقتل شاوور لرريك في حبسه ، والتقى الفريقان في وقعة انتهت بهزيمة شاوور ، وقتل ابنه طي أكبر أولاده ، وكذلك سليمان الطارقي وهو الأصغر ، بينما أسر الكامل ثم قتل وتركت جثته ملقاة بين القصرين مدة يومين ، وقد خرج شاوور من القاهرة إلى الشام إلى الملك العادل نور الدين محمود ، هبت داره ، ودور أولاده وحاشيته ، « وذهب جميع ما نالوه من بنى رزيق »<sup>(٥٤)</sup> .

ونعكس ضرغام من الوزارة<sup>(٥٥)</sup> ، وكان ضرغام « فارس عصره » ، كاتباً ،

كان صاحبهم يوماً وملكهم هم حركوها عليهم وهي مأكلة كما نطش ، وبعض الظن مائتة فمست وبعثت وسوق السر خاتم ولم يكسوسوا علواً ذل جانب وما قصدت بشعظيمي عتاك سوى ولو شكرت لبالشهم مخالطة ولو فتحت لسي يوماً بقمهم والله بأمر بالأحسان عارفة

في صدرها الدمع لم يبعد ولم يته والسلام قد تسببت الأوراق في السلام بأن ذلك جمع خير منهم من كان مجتمعاً من ذلك الرخص وإنه عزم من سلك المصير تعظيم شأنك فاصدري ولائم لمصنفها لم يكن بالمعهد من قدم لم يرص فضلك إلا أن يد مضي مه وبسي من المحشة في الكشم انظر انماط المحتاج ٣ ص ٢٥٩

(٥٣) الكتب الصرية ص ٦٨

(٥٤) انماط المحتاج ٣ ص ٢٦١

(٥٥) فكان في هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم : رريك بن الصالح وشار وضرغام

جبل الصورة ، فكه المحاصرة ، عاقلاً كريماً ، لا يصح كرمه إلا في سمعة ترفعه أو مد راة تشعه ، وإن كان يعيبه أنه « كان أدياً متحليلاً على أصحابه » ، وإذا ظن بإسناد شراً جعل الشك يقيناً<sup>(٥٦)</sup> ، فقتل كثيراً من الأمراء المصريين<sup>(٥٧)</sup> ، ولكنه شانه شاد شاوور كان معلوماً على أمره في وراثته ، فهي حين كان الكامل بن شاوور متحكماً في عهد أبيه كان ضرغام معلوماً على أمره مع أخويه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام<sup>(٥٨)</sup> ، وكان همام كأبه مشارك لأبيه في الوزارة « كل منهما يوقع ويقطع »<sup>(٥٩)</sup> .

وفي سنة ٥٥٨ هـ / ١٦٦٣ م سار الفرنج إلى ديار مصر بحجة عدم وفاء الصاطميين له لهم بدفع الحرية السوية<sup>(٦٠)</sup> ، وخرج ضرغام للفائهم ، ولكنه هزم ، وعقدت بينه وبين الفرنج هدنة على مال يدفعه إليهم<sup>(٦١)</sup> .

كما فتح ذلك الهجوم أعين الفرنج على مدى إمكانية فتح مصر الواسعة الثراء التي استشرى الصنف فيها<sup>(٦٢)</sup> .

واستعمل شاوور ما حدث له ، وما جرى على القاهرة من هجوم فرنسي لدى العادل نور الدين ، وقد أفسح له نور الدين في رحابه ، ولم يستمع لدعوة ضرغام إليه بالقبض على شاوور وأظهر له غير ما يخطر ، وبدأ نور الدين يكرر فعلياً في التدخل في أمور مصر لاسيما وقد عرض شاوور عليه في مقابل إعادته ، إلى منصب الوزارة ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء ويتصرف بأمره<sup>(٦٣)</sup> ، وكان نور الدين يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق

(٥٦) انماط المحتاج ٣ ص ٢٦١

(٥٧) الكامل ج ٩ ص ٨١

(٥٨) انماط المحتاج ٣ ص ٢٦٢

(٥٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٦٢

(٦٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨١

(٦١) انماط المحتاج ٣ ص ٢٦٤

حطته التي كان يهدف من ورائها إلى توحيد أخيه لإسلامية بوطنة لمقومه الخطر المبرح والقصاء عليه بالأصافة إلى رعيته في ريادة ملكه (٦٥) كما رأى نور الدين في ضرب القوى المبرحية في مصر امتداداً لفولته حتى يحيط بقوى المبرح وأن يلتقي بعزة العرب إلى البحر (٦٥) وقد كانت الأخطار التي كانت تحول بين نور الدين ، وبين التدخل في شؤون مصر مازالت قائمة فهو يحشى ما قد تتعرض له قوته نتيجة لكون المبرح في طريقه إلى مصر قد يقطعون عليه خطوط مواصلاته في الذهاب والإياب ، وكان لتدخل شيركوه (٦٦) أثره في دفع نور الدين إلى إجابة شاور إلى مطلبه لينسى له أن يكون نائباً فيها عن نور الدين ، فيحقق بذلك أمه في ولاية ضخمة ، يمكن أن يتصرف في شؤونها مستقلاً ولو إلى حد ما بدلاً من حضوره التام لنور الدين باعتباره أحد قواده في بلاد الشام ، ولاشك أن اضطراب الأحوال في مصر سيجعل له اليد العليا في مصر كما كانت لندر الجبالي فيها مضي (٦٧)

استقر رأى نور الدين على إرسال شاور إلى مصر في صحة أسد الدين شيركوه في أولى الحملات التتورية على مصر (٦٨)

### ٢٦٠ - حملة شيركوه الأولى على مصر سنة ٥٥٩هـ

وقد تم إرسال هذه الحملة بعد سنة كاملة من لجوء شاور إلى نور الدين (٦٩) وكان اللقاء بين شاور في الحيد الشامي وصرغام في نابلس ،

(٦٥) اتعاظ الاختصاص ٣ ص ٢٦٤ وانظر مصر في العصر المملوكي ص ١٥٤

(٦٥) Saunders, A History Of Medieval Islam, P. 184

(٦٦) وهو أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروي أسد أمراء نور الدين ووالده على حلب

اتعاظ الاختصاص ٣ ص ٢٦٥

(٦٧) مصر والشام والصليبيون ص ٩٥

(٦٨) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٦ والكامل ج ٩ ص ٨٤

وذلك بعد أن استولى على الأقاليم الشرقية ، على أن كثرة المكسر المصري قد بثت الخوف في أسد الدين شيركوه ، حيث كان يواجه قوات تلحس ستة آلاف بقيادة الأمير ناصر الدين همام ، ولكن شاور هوّن أمرهم على شيركوه وقال له : لا يهولك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاككة وفلاحون يجمعهم الطل وتفرقهم العصا ، فما طلت بهم إذا همى الوطيس ، وكلبت الحرب ، وأما الأمر فإن كتبهم وعهودهم معي وسترى إذا النفيس ، لكى أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد (٧٠)

ونمكن شيركوه تنحيه من شاور حديعة المصريين حتى لحأوا إلى الراحة ثم هاجنهم ، وتمكنوا من هزيمتهم ، وخرج قائدهم ناصر الدين همام ، بينما احتفى الأمير حسام في مدينة نابلس ، ثم أمر بعد أن دل عليه بعض الكناينة

وقد توجه همام إلى القاهرة ليحرر صرعاما بما حل بحيشه ، وعقد أحد صرعام يجمع صفوفه لكثرة حديدة على الجيش الشامي القادم إلى القاهرة ، وتمكن الجيش الشامي بعد قتال مرير من دخول القاهرة ، ولعب شاور دوراً كبيراً في تمكين الجيش الشامي من ذلك ، حيث كان يركب في كل يوم في مصر ويؤمن أهلها ، ويمنع الأتراك من التعرض لهم ، في حين جاب الصواب صرعاماً فراح يتوعد لحرق مصر على أهلها من أجل أنهم مكسوا شاوراً من دخول البلد ، ولسوء سيرته فيهم ، حيث استولى على أموال الأوقاف لإمداد جنده بالمال

وقد لحأ صرعام إلى الخليفة العاصد طالاً عونه ، فلم يحبه الخليفة إلى ذلك ، وبيع بصرعام الحال إلى أن وقف تحت القصر العاطمي طالاً من الخليفة أن يطل عليه من الطاق وهو يقول يامولانا كلمى ، يامولانا أرسى وجهك الكريم ، يامولانا يحرمه أجدادك على الله (٧١)

(٧٠) اتعاظ الاختصاص ٣ ص ٢٦٧

وبلغ الحال بضرغام إلى أن صار في ثلاثين فارس من أتباعه فقط ، وهكذا أصبحت الأمور ممهدة أمام شاور الذي بحث إلى الخليفة يستأذنه في دخول القاهرة ، فأذن له ، ودخل شاور القاهرة ، وعاد إلى الوزارة (٧٢)

أما ضرغام فقد تمكن من بعض الشاميين ، وبعض علماء شاور ، وثمكوا من قتله ، وحترت رأسه بالقرب من مشهد السيدة عيسى في يوم الجمعة ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ ، وذلك بعد تسعة أشهر من وزارته (٧٣) ، وحضر رأسه إلى شاور ، فأمر برفعها على قنطرة ، بطاب بها في شوارع القاهرة ، وقد رأى عمارة اليمى رأس ضرغام ، وهي يطرد بها على الخليج ويصف عمارة ذلك فيقول : « ولما حاروا برأسه على الخليج ، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت أرتجألاً »

أرى حنك الوزارة صار سيفاً يحد بحده صند الرقاب  
كأنك رائد السيلوى وإلا شير بالمنية والمصاب (٧٤)  
قال المقريزى : « كان كما قال عمارة (٧٥) »

وقد أخرج شاور ابنه الكامل من دار ملهم أحمى ضرغام التي كان معتقلاً بها ، وكان بصحة الكامل في الاعتقال القاصى العاضل فصاراً صديقي ، وقدم الكمال صديقه إلى أبيه شاور ومدحه عنده ، وأتى عليه ، فسماه شاور : « القاصى العاضل » وكان يعرف قبل ذلك بالقاصى الأسعد (٧٦) ، وسوف يبرز دور القاصى العاضل على مسرح الأحداث في عهد صلاح الدين

وقرىء سجل شاور بوزارته الثانية في ٤ رجب سنة ٥٥٩ هـ ، وكان بما

(٧٢) من المصروح ٣ ص ٢٧١ وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٧ وانظر مصر في العصر المملوكى ص ٤٥٥

(٧٣) الكامل ج ٩ ص ٨٥

(٧٤) الفتى المصرية ص ٧٧

(٧٥) انماط الخطباء ج ٣ ص ٢٧٢

جاء في سجل وزارته : « إن أمير المؤمنين يملك في ذلك بدعائه ، ويعيدك لتدبير دولته ، وقمع أعدائه ، ورأى وإن أعدتكم الصرورات عن بابه ، وأنتك الأحداثات عن جبهه ، أنك وريه المكين ، وحالته القوى الأمين الذى لا يتزعزع عن شمس وزارته ، ولا يؤثر غير سلطانه وبممكنه (٧٧)

وكان أسد الدين شيركوه في خلال ذلك غيباً بساحية المقس ، وكان يجرى إليه وإلى رجاله في كل يوم سائر أصناف الأطعمة ، وأراد العاصد أن يجمع عليه ، وأعد له ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجوهر له قيمة عظيمة كان الخليفة الأمر باله قد عمله ، ولكن شيركوه أبى ذلك ، فقد كان ما يهيم هو تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها ، وإمضاء الاتفاق الذى تم مع شاور ، فأرسل إلى شاور يستعجله الوقت ، ويأمره عليه ، وقال له : « قد طل مقام في الحميم ، وصحجر المسكر من الحر والبار (٧٨) » ، وكان ما فعله شاور أن أرسل إلى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه الرحيل ، وصمم شيركوه على تنفيذ ما أمره نور الدين محمود فأرسل إلى شاور يقول : « إن الملك العادل نور الدين أوصانى عند انفصالي عنه : إذا ملك شاور ، تكون مقبياً عنه ، ويكون لك ثلث ممل البلاد ، وثلث الأحر لشاور والعسكر ، وثلث الثالث لصاحب القصر وبصره في مصالحه (٧٩) » ، وأكر شاور ذلك ، وتكر لوعده نور الدين ، وأرسل إلى شيركوه يقول : « إنما طلت بجنة ، وإذا انقضى شغلى عادوا ، وقد سيرت إليكم بقعة فحدوها وانصرفوا ، وأنا أرمى نور الدين ، وأصر شيركوه على موقعه ، وقال : « لا يمكننى مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره (٨٠) »

وبراء هذا الموقف الصلب من شيركوه ، وإصرار شاور على المياطه والعودة في وعده ، كان لابد من الصدام المسلح بين الطرفين ، فاستعد

(٧٧) من المصروح ج ٣ ص ٢٧٢ هامش ١

(٧٨) انماط الخطباء ج ٣ ص ٢٧٣

(٧٩) من المصروح ج ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

شاوور لمحاربة من استعده ، في حين تأهب شيركوه لخرب شاوور ، وبعث بابن أخيه يوسف بن أيوب الذي كان مصاحباً له في هذه الحملة بطائفة من الجيش إلى بليس ، ليجمع هائلزم الجيش من العلال والأتابان

ومن ناحية أخرى عسكر شاوور أرض الطبالة ، وتم اللقاء بين جيشي شاوور وشيركوه في ٢٣ من شعبان سنة ٥٥٩ هـ في كوم الریش (٨١) ، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة ، وقد ظل محاصراً لها حتى التامع من دمعه ، ولم يجد شاوور أمامه غير الاستنجاد بعموري ملك بيت المقدس (٨٢) ، فكتب إليه يستعجده ، ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين في مصر ، ويخبره أنه متى استقروا في البلاد قلعوه منها ، وأطمعه بالأموال ، فحمل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار ، وقد مثل ذلك بالنسة للمريخ فرصة ذهبية طمعوا من ورائها إلى ملك مصر (٨٣) .

ولم يجد شيركوه ، والخال كذلك ، غير التوجه إلى بليس حيث كان يوسف بن أيوب أعد له من العلال وغيرها مايسى له بحماية المريخ في حرب قد تطول ، وتوجه شاوور في عسكر مصر ، والمريخ في عسكرهم إلى لقاء شيركوه ، وحاصروه في بليس واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر ، أصر فيها شيركوه على الصمود ، وألا يتراجع من موقعه (٨٤) .

(٨١) بلدة بين أرض البعل وسية الشبرخ كان النيل يمر بحريها بعد مرويه بعربي أرض البعل وكانت من أهل متروقات القاهرة ، يربح أهوان الناس في سككها ، وانتشر بها ، وفي سنة ٨٠٦ هـ زاد النيل ، وغرب الدوب الذي كان يصل بينها وبين أرض الطبالة ، فتوالت المعص وغيرها ، وفي ذلك يقول المقرئ - قهراً كأنك لم تك تلهو بها في بعة وألوانس أثرب

أنتعاط المحتاج ٣ من ٢٧٤ هامش ٤

(٨٢) تسميه المصادر العربية مري ، عموري وهو أمليوك الأول Analek . حكم بيت المقدس بين سنتي ٥٥٧ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٢ - ١١٧٤ م بعد وفاة بلدوين الثاني Baldwin II وكان في السابعة والعشرين من اعتلائه العرش

أنتعاط المحتاج ٣ من ٧٦ - حاشية ٢

Schlumberger, Campagnes du roi Amaury de Jerusalem, P. 58 (٨٣)

وأدرك نور الدين محمود في الشام مدى حرج قواته في مصر ، وكان عليه أن يصمط على عموري ليحصره على ترك مصر . فهساحم بعض ممتلكاته (٨٥) ، واستولى على حارم (٨٦) ، ووقع في أسر بوهيمند الثالث BOHEMOND III صاحب أنطاكية وريموند الثالث RAYMOND III صاحب طرابلس (٨٧) ، وصارت أنطاكية بذلك تحت التهديد المباشر لنور الدين ، لو أراد الاستيلاء عليها لتمكن من ذلك ، ولكنه حشى من استنحاد أهلها بصاحب القسطنطينية ، الذي قد يمثل خطراً أشد من خطر بوهيمند (٨٨) ، وتوجه نور الدين إلى مانياس (٨٩) ، واستولى عليها وملاها بالعتاد والرجال (٩٠) وشاطر المريخ في أعمال طبرية وقرروا له مالاً في كل سنة على الأعمال التي لم يشاطروهم عليها (٩١) ، وفث ذلك في عصف عموري فاضطر إلى توقيع صلح بمقتضاه حرج الجيشان النوري والفرنجي من مصر ، وقد تقرر الصلح على أن يدفع شاوور لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى حملت إليه ، وكان شيركوه مضطراً إلى توقيع ذلك الصلح بعد أن

(٨٥) وكانت قد صارت إلى عموري ممتلكات أخيه بلدوين الثالث الذي موث في سنة ٥٥٨ هـ ١١٦٣ م دون أن يعقب ولد

Cam. Mud. History Vol P 308

(٨٦) حصص حصص ، وكورة جليلة تجاه أنطاكية . معجم البلدان ج ٢ من ٢٠٥ وهي على مرحلتين من حلب في جهة الغرب ، وبور حارم وأنطاكية مرحلة

تقوم البلدان من ٢٥٩

(٨٧) تدعج عموري في جبل نور الدين يبرج عن بوهيمند الثالث ، كما تم الإخراج عنه لقراه بوهيمند من الأمبراطور البيزنطي حيث كانت أخته متروجة من الإمبراطور

Grousset, Histoire des Croisades... Vol 2, P. 470

(٨٨) الروصين ج ١ ق ٢ من ٣١٢ وانظر حاشية ٢ في نفس الصفحة ، مرجع الكروج ج ١ من ١١٥

(٨٩) مانياس اسم لبلدة صغيرة على مرحلة ونصف من دمشق في جهة الغرب بعيداً إلى الجنوب

بوهيم 'البلدان' من ٢١٨



قلّت القوات عنده ، وبعد أن حصر من رحلته جماعة ، ولم نصده بحده من نور الدين ، وتم خروجه من بلبس في أول ذي الحجة سنة ٥٦٠ هـ

وكان توقيع ذلك الصلح في صالح الفرنج الذين روعتهم حملات نور الدين على أملاكهم آنئذ (٩٢)

ومن ناحية أخرى أثبت شاور أنه بحق الوزير الداهية الذي تمكن - ورغم تعقد الأمور على الصورة التي رأبها - من استئصال جميع الأطراف لصالحه الخاص . وإن كان لهذه الأحداث من فصل على نور الدين فهي أنها وجهت نظرة إلى حظيرة الحبهة المصرية بطراً لطمع الفرنج فيها ودفعته إلى أن يعمل بصورة جديدة لمعالجة قضية مصر ، ومن ثم كان عليه أن يتناسى من أجل ذلك كافة المحاذير التي كانت تنبئ عن التدخل الفعلي المباشر في شئونها ، بالإضافة إلى ما اكتسبته القوات النورية من ممارسة الحرب على الأرض المصرية ، وما اكتشفه شيركوه إناء وجوده من ضعف مصر عسكرياً وسياسياً ، وما قرى قلبه من رغبة الانتقام من شاور وحفده عليه لتصرفاته معه (٩٣) وقد وصف ابن شداد انطاع شيركوه فقال : « وشاهد البلاد ، وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد عزم في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، فتمشى الأمور فيها بمجرد الأعيان والمحال (٩٤) » وقال أبو شامة : « وعاد إلى الشام ، وقد انصب إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام بالشام على مصصر ، وقلبه مقلقل ، والقضاء يحمره إلى شيء قد قدر لعبه وهو لا يشعر بذلك (٩٥) »

(٩٢) Grousset, Histoire des Croisades, Vol 2 P 485

(٩٣) الروصتين ج ١ في ٢ ص ٣٦٣

(٩٤) الوائلي السطحية ص ٦٤

وانظر Saunders, A history of Medieval Islam, P 164

حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ :

ومضى عامان بعد الحملة الأولى لم يقدم نور الدين حلالها على إرسال حملة أخرى إلى مصر وذلك لخشيته من تشتيت جهوده ، وتقسيم قواته ، سيما الموقف في بلاد الشام حرج يستدعي منه اليقظة والحوطة (٩٦) وفي سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م كانت حملته الثانية على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه (٩٧) الذي كان يتوق إلى ملك مصر ، على أن ثمة فاروق جوهرى كان بين هذه الحملة وبين الحملة السابقة :

فالحملة السابقة تمت بناء على دعوة من شاور ، أما هذه فكان الدافع إليها الرغبة المحضة في ملك مصر قبل أن يسبق الفرنج إلى ذلك ، وقد صمدت هذه الحملة كسابقتها الشاب يوسف بن أيوب ، وقد صار الجيش النورى على ميمية الفرنج عن طريق الصحراء الشرقية لهر الأردن (٩٨) ، حماية لها من جنود القدس وحصونها ، وشيخ السلطان العادل نور الدين محمود الحملة بنفسه حتى اقتربت قواته من الحدود المصرية

وسعى خبر مسير تلك القوات إلى عموري فأرسل إلى شاور يحبره بها ، فسارع شاور يطلب منه مساعدته في دحر ذلك الخطر ، فبادر عموري إلى نجده ، وهو يسعى نفسه بامتلاك مصر ، ويخشى أن تسقط في يد نور الدين حيث كان سقوطها يعنى أن مملكته ستصبح شريحة لذلك محصورة بين نارين مستعمرتين (٩٩) ، ولم يغب عن المؤرخين المسلمين سر اسراع عموري إلى ذلك فقال ابن واصل : « وحملهم على ذلك أمران أحدهما الطمع في تملك الديار المصرية ، والثاني الخوف من تملك العساكر النورية

(٩٦) Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury P P 101- 102

(٩٧) Saunders, A history of Medieval Islam, P 164

Grousset, histoire des croisades, vol 2 P 478

(٩٨) مصر والشام والصليبيون ص ٩٧

وانظر Wiet, L'Egypte Arabe P 295

(٩٩) مصر والشام والصليبيون ص ٩٣ - مصر في العصر الفاطمي ص ١٥٥

لها ، وعلموا أنه إن ملكها نور الدين - رحمه الله - واستضافها إلى البلاد الشامية ، لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ، وأن يتأصلهم ، وتصير بلاده في وسط بلاده (١٠٠).

وقد سار عموري بهذا الساحل حتى وصل إلى بليس حيث التقاه شاور بجيشه ، واستعدت تلك القوات المشتركة لمجابهة جيش شيركوه ، ولكن ذلك لم يتح لها حيث تمكن شيركوه من أن يسلك طريقاً آخر أبعد من خطر ذلك اللقاء ، متعدياً عن الأماكن المأهولة حتى اقترب من القسطنطينية ، وعبر النيل إلى جانبه الأخر ، وانجه إلى الصعيد ، وشي العارات على أطبع (١٠١)، وتمكنت الحيوش العربية المتحالفة من اللحاق به حيث وصلت إلى شرونة من أعمال محافظة المنيا الحالية . وقد دارت رحى المعركة عند قرية البابين من قرى الأشموبين ، ودارت المعركة على الحلفاء وقتل منهم عند كبير ، وبرز في هذه المعركة دور الشاب يوسف بن أيوب الذي أتى بلائاً حسناً ، وحمل حملات فرق بها الحموع ، وبدد شملها ، وكاد عموري نفسه أن يقع في الأسر ، وأسر شيركوه من أصحابه نحو من سبعين أسيراً (١٠٢).

ثم إن أسد الدين شيركوه قسم جيشه قسمين قسم تحت قيادة ابن أخيه يوسف بن أيوب سار إلى الاسكندرية ، في حين توجه شيركوه بالقسم الآخر إلى جنوب الصعيد ففتح البلاد ، وجمع الأموال

ورأى الخليفان شاور وعموري أن القضاء على يوسف قد يكون أسير من لقاء شيركوه ، وذلك لاعتقادهما بقلة خبرة يوسف ، وقد رميا من وراء ذلك تشكيل عامل صعب على شيركوه مما يضطره إلى المسارعة إلى إنجاد ابن

(١٠٠) فتح الكروب ج ١ ص ١٤٩

(١٠١) وهي بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقية ، معجم البلدان ج ١ ص ١٦٨

أخيه ، وتمكن الحبيصاء فعلاً من حصار يوسف بن أيوب في الاسكندرية مدة ثلاثة أشهر ، معها حلالها اميرة عنه ، حتى قلت الأقوات لديه غير أن يوسف تمكن من الصمود ، وسر له ذلك ترجيب أهل الاسكندرية به وتأيدهم له (١٠٣) وقد اصطر شيركوه فعلاً تحت ضغط حصار الاسكندرية على ابن أخيه إلى العودة من الصعيد محملاً بالكثير من الأموال التي جباها منه ، فركب على مصر وحاصرها ، مما اضطر إلى رفع الحصار عن الاسكندرية ، والدخول في مفاوضات للصالح استقرت على خروج الجيشين العربيين عن مصر (١٠٤) ، على أن يتحمل شاور جميع ما عرمة شيركوه في حملته ، وأن يعطى الفريخ ثلاثين ألف دينار وكان مقصدي الاتفاق ألا يبقى حندي واحد من جند عموري في مصر ، ولكن شاور تفاهم مع عموري على أن يكون للفريخ شحنة (١٠٥) في أسفاره ، وأن تكون أسوارها بد فرسانهم حتى يحولوا بين نور الدين وبين إرسال عسكر آخر إليها ، وأن يكون للفريخ مائة ألف دينار في كل سنة من دخل مصر ، على أن الحديير بالذكر أن كل هذا تم بتفكير من شاور دون علم الخليفة العاصد نفسه أو الرجوع إليه في ذلك ، نظراً لصعف الخليفة الذي كان شاور متسلطاً عليه . وهكذا رحل الفريخ عن مصر ، ولكنهم تركوا بها عدة من مشاهير فرسانهم ، وكان هذا الذي تم بناء على رغبة عموري الذي أراد أن تكون له قدم ثابتة في مصر حتى يتمكن من معرفة تطورات الأمور فيها ، ويكون تمهيداً لعمل حاسم يجمع القيام به عما قريب (١٠٦)

وهكذا لم تفلح الخطوة الثانية بالنسبة لنور الدين محمود ، وإن كان

(١٠٣) مصر والشام والصليبيون ص ٩٩

(١٠٤) Kerr, The Crusades, P. 64

(١٠٥) الشحنة الشحنة والشحنة ، وظيفة يسمي متوليها صاحب الشحنة وهو ليس الشرط والموكل بالأمور في بلد من البلاد

شريكوه قائده فدا ارداد تحرقاً إلى امتلاك الدبر المصرية حيث عاد د وفي  
نفسه من مصر مالا يفصل لأمه حر متحصلها ، وعرف بلادها ،  
واستحف بأهلها (١٠٧) .

وقد دعا نجاح شاور هذا إلى استداد شاور بأمور البلاد فكان يأمر  
بصرق الرقاب بين يديه في قاعة الستان من دار الوزارة ، ثم تسحب  
القتل إلى خارج الدار (١٠٨) واشتد كذلك ظلم إخوانه وأولاده وعيانه ومن  
لاذ بهم وكثر تضرر الناس بهم (١٠٩) .

حملة شريكوه الثالثة على مصر سنة ٥٦٤ هـ :

استبد الفرع الدين بقوا في مصر بأمر البلاد بعد ماتيق هم صعبها ،  
وفي نفس الوقت أراد عموري القيام بعمل يجمع نور الدين نهائياً من  
التكبر في أمر مصر ، وذلك بالاستيلاء عليها ، واتحادها مطلقاً لاستعادة  
بلاد الشام إلى حكم الفرع ، معتمداً على موارد مصر العبية التي تعبته  
في تحقيق ذلك ، وكان عموري يصدر في ذلك تحت صغط من رجاله الدين  
أقبحوه بضرورة الاستيلاء على مصر ، وكان قد أبدى رعيته في المحافظة على  
المورد المالي الثابت الذي يصل إليه من مصر ، وكان بفصل القيام بعمل  
عسكري ضد دمشق بطراً لخطوة نور الدين الذين كان يصرف على مصايفة  
الفرع (١١٠) في حين كان يحشى مهاجمة مصر حيث سيتعرض فيها ليس  
لمقاومة الحكام فحسب ، بل ولعامة أهل مصر وفلاحها ، ولعل ذلك شيئاً  
يشرف مصر وتاريخها (١١١) .

وقد راسل عموري مانويل الامبراطور البيزنطي لیساعده عسكرياً في  
حملة على مصر كما طلب مساعده فرسان المعبد ، ولكنهم رفضوا معاونة

(١٠٧) انماط المحتاج ٣ ص ٢٨٧

(١٠٨) نفس المصدر ٣ ص ٢٨٧ والكت المصرية ص ٨٧ - ٨٨

(١٠٩) نفس المصدر ٣ ص ٢٨٧ والكت المصرية ص ٨٨

(١١٠) Lane-Poole, Saladin, P. 103

لخشيته من أن يلقى هذا التصرف مصر في أحضان نور الدين (١١٢)  
عن أية حال ، تقدم عموري صوب مصر دون انتظار معونة بيرنطة ،  
ووصل الداروم (١١٣) ، وأحسن شاور مقبوم الملك عموري ، وأقرعه  
ذلك ، فأرسل إليه رجاله إلى أطراف الحدود الشرقية ، مستفسراً عن سر  
قدوم عموري دون الاستعداد به ، ودون أن يكون ثمة خطر يهدد مصر  
وقال شاور في رسالته إليه : « إن الذي قررته إنما جمعته لك مني احسنت  
إلى محدثك ، أو إذا قدم على عدو ، فأما مع حذرك من الأعداء ، فلا  
حاجة إليك ، ولا لك عدى مقرر (١١٤) » .

وحاول الملك عموري خداعه بأنه جاء لتأمين البلاد ضد نور الدين ،  
معلم شاور أنه قد عذر وحسن الأيمان ، ونقص العهد ، وطمع في  
البلاد (١١٥) ، ولم ينحدر شاور بدعواه ، وتوجه عموري إلى بليس ،  
ووجد معونة من بعض أعيان المصريين الذين كانوا يكرهون شاوراً ، وكان  
سليبيس أبا شاور ، طي والطاري والناصر ، وقد عارض طي في برول  
عموري بليس ، وقال : أيجسب أن بليس حينة يأكلها ، وقد قال  
عموري رداً على ذلك في رسالة إلى شاور : « مع بليس حينة ، ولقاهرة  
زينة (١١٦) » .

(١١٢) Stevenson, The crusaders in the East, p. 193

(١١٣) الداروم ، حصص صغير جنوب فلسطين ، بينها وبين البحر فوسج ، حصص عموري قريب  
من عره ، بينها وبين مصر ، وأقام بها فرسان الداوة أو المعبد ، وتسمى أيضاً الداروم وهي في موقع  
دور البلخ الحديثة

انظر Lane-Poole, Saladin, P. 106

Stevenson, The crusaders in the East, P. 199.

وفي معجم البلدان الداروم قلعة بعد خربة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر ، الآن بين  
وبين البحر ومدار فوسج .

ج ٢ ص ٢٢٤

(١١٤) انماط المحتاج ٣ ص ٢٩٢

وهكذا أسفر عموري عن وجهه الفحيح ، ولما لم يكن في استطاعة مصر مقاومة الخطر المريعى كان عليها الاستنجاد بقوة نور الدين محمود ، وجاء الاستنجاد هذه المرة في رسالة من الخليفة العاصد إلى نور الدين دون علم شاور (١١٧) ، وفي طيها فوائت ساء أهل القصر مجزورة مبالغة في طلب المجدة ، وبدل له إن وصل ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه ، بخارجاً عن الثلث الذي لور الدين (١١٨).

وعندما بلغت أساء ذلك التحرك المريعى الخطير نور الدين محمود ، شرع في إعداد جيش كبير عن عجل أمر عليه فائده أسد الدين شيركوه ، واستدعاه لذلك على عجل من إقطاعه في حمص ، فجاء أسد الدين شيركوه ليتولى قيادة الجيش النورى المتوجه إلى مصر ، وسار من دمشق في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ في جيش بلغ تعداده ستة آلاف فارس ، ونخرج في هذه الحملة كذلك يوسف بن أيوب الذي كان كارها أن يسير إلى مصر وكان « كأنها يساق إلى الموت (١١٩) » ، وفي ذلك يقول المقربرى : « فأخرج به نور الدين كرهاً ليحق قول الله سبحانه إذ يقول : «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فإن نور الدين أحب سير صلاح الدين وكان مسيره إليها لخروج الملك عن أولاده ، وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر ، فكان في مسيره إليها تملكه إياها وعيرها من الأقاليم (١٢٠).

وعبر أبو شامة عن بعض صلاح الدين للخروج مع شيركوه بقول صلاح الدين عندما دعى إلى ذلك : « فكأنها صرت قلبى بسكين » وأن نور الدين

(١١٧) وقال له : « هذه شعور ساقى من قصرى يستفش بك لتقتلهم من الفرج »

الروستى ج ١ ق ٢ ص ٣٩١

(١١٨) مخرج الكروب ج ١ ص ١٥٨ والروستى ج ١ ق ٢ ص ٣٩١

(١١٩) اتصال المحتاج ج ٣ ص ٢٩٤

أجبره على الخروج مع شيركوه وأن صلاح الدين قال : « وكأنها أساق إلى الموت (١٢١) » ، ومثل ذلك عز ابن الأثير (١٢٢) ، ولعل ذلك الآخر من المؤرخين على تأيى صلاح الدين هو إبرار أهمية الدور الذى يلعبه القدر والصيب المكتوب (١٢٣).

على أية حال ، تمكن عموري من الانتصار على بليس ، وحال أنه فتح مصر وملكها ، وقسم أهل المدينة عشائم على عسكره شكراً لله على ما أولاه من الفتح ، ثم بدأ يورع أحماء مصر في شكل إقطاعات وولايات عن رجاله ، ثم تقدم بعد ذلك صوب القاهرة وأصر شاور على المقاومة ، فأمر الناس أن يحرقوا مدينة مصر - القسطنطينية وما حولها - إلى داخل القاهرة ، فتركوا أموالهم وأثقالهم ، وسحروا بأنفسهم ، وأولادهم وحرمهم ، وقد ماح الناس ، واضطربوا اضطراباً عظيماً (١٢٤) ، وهبت مصر واقتر أهلها وذهب أموالهم وبعمهم (١٢٥) ، وقد اعتبر المقربرى إساءة عموري في بليس مئة من الله تعالى حيث قال : « وكان هذا من لطف الله ، فإنه لو قدر أن المريح أحسوا السيرة في أهل بليس لكان الناس لا يداومهم عن القاهرة ألته لما في قلوبهم من كراهة شاور (١٢٦) »

وقد أشعل شاور النار في مدينة مصر حتى لا يتفتح بها عموري ، عندما يصل لمحاصرة القاهرة (١٢٧) ، وقد وجد عموري لدى نروله القاهرة مقاومة ضارية حيث قاتل المصريون عنها قتالاً شديداً وبذلوا جهودهم ، واضطر

(١٢١) الروستى ج ١ ق ٢ ص ٣٩٤

(١٢٢) الكامل ج ٩ ص ١٠٣

(١٢٣) الحركة الصربية ج ٢ ص ٦٦٩

(١٢٤) اتصال المحتاج ج ٣ ص ٢٩٦

(١٢٥) مخرج الكروب ج ١ ص ١٥٧

(١٢٦) اتصال المحتاج ج ٣ ص ٢٩٦

عمورى إلى العودة عن القاهرة ، وإن كان قد فاز من شيركوه بملع مائة ألف دينار (١٢٨) .

ووصلت الجيوش النورية إلى مصر ، وما إن وصلت أباء وصولها إلى سامع عمورى حتى سارع الفريخ إلى معادرة مصر بحفى حين حائى بما أمله (١٢٩) ، دون أن يشتبك فى أية معركة « ورد الله الذين كبروا يعظهم لم يألوا حبراً ، وكفى الله المؤمنين القتال (١٣٠) » ، وكان الخليفة العاصد يسيل إلى شيركوه ، وكذلك الشعب المصرى ، ولم يسر ذلك شاور وبدأ بدر للقص على شيركوه (١٣١) وإن كان يذى له من الود حتى كان « يركب كل يوم إليه ويسير معه ويعلمه ويحتيه (١٣٢) » .

وقد ضايق موقف شاور هذا لشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاتفق مع بعض رجاله على القصص عليه فى غيبة أسد الدين شيركوه الذى كان قد توحه لزيارة قبر الشافعى بالقرافة (١٣٣) ، حيث كان شاور قصد بحيم أسد الدين شيركوه للاحتشع به كالعادة ، فلما لم يجده خرج إليه فى

(١٢٨) مرجع الكروب ج ١ ص ١٦٠ وانظر ابن العزى ج ٤ مجلد ٣ ص ٢٠٨  
Schlumberger: Campagnes du roi amoury PP 208-209

(١٢٩) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٧

وانظر التاريخ الماهر ص ١٣٨

(١٣٠) مرجع الكروب ج ١ ص ١٦٠

Kerr, The Crusades, P 164

(١٣١) عزم على أن يدمره ويحبى أمراته حتى إذا صارو إليه ، قصص عليهم ، واستخدم من معهم من الجند يصبغ بهم الفريخ ، وقد عودته ابنه شجاع فى ذلك وهدده بإخبار شيركوه ، فقال له شاور : يا بني والله لن تقبل هذا لقتل جديماً . فقال له : لأن تقتل ويحبى مسلمون خير من أن تقتل وقد ملكها الفريخ ، فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعو بالقبض على شيركوه ، وحينئذ يوصلنى العاصد إلى نور الدين لم يرسل منه فارساً واحداً ، فترك شاور ماعزم عليه

مرجع الكروب ج ١ ص ١٦١ واتعاط الحجاج ج ٣ ص ٣٠٠

وانظر الروشن ج ١ ص ٢ ص ٣٩٦ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٧

(١٣٢) اتعاط الحجاج ج ٣ ص ٣٠٠

## المصل الثانى

### الدور الأيوبي حتى وفاة نور الدين

٥٦٤هـ - ٥٦٧هـ / ١١٦٩م - ١١٧٢م

تولى صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة المصرية حلفاً لعنه شيركوه وكان أمداً فى الحادية والثلاثين من عمره (١٣٤) ، وكان معه من قادة الجيش السورى من هو أكبر سناً منه مثل عيسى الدولة البدرى ، وقطب الدين خسرو بن الليل ، وصيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وشهاب الدين وهو حال صلاح الدين وكان كل هؤلاء يطمح إلى منصب الوزارة (١٣٥)

ولعل هذا يدفعنا إلى عدة تساؤلات هل كان ذلك هو اختيار الخليفة العاصد نفسه أما اختيار المحيطين بالعاصد أشاروا به عليه ، أم هو اختيار نور الدين أملاه على الخليفة العاصد ؟ ثم ما هى الأسباب التى دفعت إلى اختيار صلاح الدين دون سواه من القادة ؟

وقد احتلقت أقوال المؤرخين حول هذا الموضوع ، فرأى ابن واصل أن الخليفة العاصد هو الذى اختار صلاح الدين ، وكان الذى حمل العاصد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ، ولا رجال ، كان تحت يده وحكمه ، ولا يجسر على المخالفة (١٣٦) ، ويشاركه فى هذا رأى ابن خلكان الذى رأى أن العاصد اختاره لطفه ، أنه إذا ولى صلاح الدين ، وليس له عسكر ولا رجال ، كان فى ولايته مستضعفاً ، ويحكم عليه ، ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يصعب على العسكر

(١٣٤) الدولة الأيوبية ص ٤٦٠

(١٣٥) تاريخ الدولة الأيوبية ص ٤٦٠

(١٣٦) تاريخ الدولة الأيوبية ص ٤٦٠

الشامية من يستملهم إليه ، وإذ صار معه البعض آخره ساقين ، وعده من العسكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين صاحب الشام (١٥٨)»

ويرى أبو شامة كذلك أن العاصد هو الذي احتار صلاح الدين للوزارة ولكنه يرى في حسب الاحتيار رأياً آخر حيث يقول « وكان صلاح الدين قد وقع من عاصد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته ، وإقدامه على شاور في موكله ، وأنه قد قتل حين جاءه أمره ولم يترث ولا توقف ، فسارع إلى تقليده الوزارة (١٥٩) » ويرى هذا الرأي اس الفرات المصري حيث يقول أن العاصد كان يميل إلى تولية صلاح الدين الوزارة « لشجاعته وبراعته وكرمه وصباحته (١٥٩) » .

أما الرأي القائل بأن لاحتيار كان من جانب الأمراء المحيطين بالخليفة العاصد فقد ارتأه المقريري الذي بين أن ثمة خلافاً بشأن هؤلاء الأمراء في شخصية من يتولى الوزارة ، وانتصر الرأي الذي احتار صلاح الدين ، فيقول المقريري أن أهل القصر وخواشي الخليفة من الاستاديين وغيرهم انقسموا فريقين « فرأى أحد الفريقين والذي كان يترعنه مؤمن بالخلافة جوهر (١٥٧) ، الذي رأى أن تتول الأمور بعد شيركوه إلى بهاء الدين قراقوش ، وأن يرخل برحاله إلى الشرقية إقطاعاً لهم ، فيمشون بذلك حاجراً بينهم وبين الفرنج ، يقتتلون عنهم إذ طمع الفرنج في العودة إلى مصر حيث يدودون عن حرمهم وإقطاعاتهم ، سيما رأيت طائفة أخرى أن

(١٥٨) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٧

(١٥٩) الروضتين ج ١ في ٢ ص ٤٣٩

(١٥٩) ابن الفرات جلد ١ ج ١ ص ٥٦

(١٥٧) وهو ينحصر من الاستاديين المحكيين بالقصر العاطمي ، وكان يتولى رمام القصر ، وإلى الأشراف الكبار عليه « وروى برهن مؤمن بالخلافة بعد شيركوه في بعد عن إصراره عن تحب هذه في التخلص من صلاح الدين وإعطاء النوري بأمره »

تكون الوزارة في صلاح الدين الذي هو من أحق شيركوه « والذي هو منه وإليه (١٥٨) »

ويرى اس الأثير هذا الرأي حيث قال « وكان الذي حمده مع ذلك أن أصحابه قالوا له . ليس في الجماعة أصعب ولا أصعب من يوسف والرأي أن يولى ، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا (١٥٩) »

واحق فيها يرى أن شخصية صلاح الدين وسراسته العسكرية شيء برهنت عليه الأحداث صد اشتراكه في حملات شيركوه الثلاث على مصر ، ولولا تلك البراعة والشخصية ما جعله شيركوه على نصف جيشه إلى الاسكندرية ، كما امتار صلاح الدين بالحسم في المواقف الصعبة فهو لدى دبر لاعتقال شاور وقبض عليه ، مع أن شيركوه نفسه كان لا يميل إلى التخلص من شاور بقتله

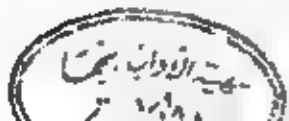
ويصاف إلى ذلك أن صلاح الدين قد فس من إيهاب نور الدين ومباسته ، وبعد نظره ونجدهاته في العمل ، وأنه أخذ عن عمه شيركوه الحرة والاقدام ومن الحرب (١٦١) وشرب من طموحه ، بالأصافه إلى مواهبه الشخصية

وهذا يدحض الرأي القائل بأن لاحتيار وقع على صلاح الدين لخدائته من وضعفه ، وقد كان من بين القادة المصريين فيها يبدو من أدرك تلك القوة ورأى فيها خطورة على الكيان العاطمي ، وبقصد بدلت الرأي الذي ترعنه مؤمن بالخلافة جوهر بعدم اختيار صلاح الدين

ومحن نرجح - بناء على ما تقدم - الرأي القائل بأن الخليفة العاصد نفسه هو الذي احتار صلاح الدين « لشجاعته وبراعته وكرمه وصباحته » وأن « صلاح الدين قد وقع من العاصد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه

(١٥٨) السامع جلد ٣ ص ٣٠٨

(١٥٩) الكمال ج ٩ ص ١٠٦





يكتب اسمه قبله ، وكان لا يعرده بالمكانة ، بل يكتب إليه « الأمير  
الاسمهلال صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون  
كذا » (١٦٩) .

ولاشك أن ذلك كان حس سياسة من نور الدين حرصاً منه على صلاح  
الدين حتى يستل الحقد صده من صدور الأمراء معه ، وليس صحيحاً لأن  
ورادة صلاح الدين كان أمراً بسوء نور الدين إلى درجة أنه أقام ثلاثة أيام  
لا يقدر أن يراه أحد من شدة ما عظم عليه ذلك وأعصبه

كما ينبغي أن يكون الأمر كذلك خشية نور الدين على صلاح الدين حتى  
من أهله ، وهو فيها يخشى عليه يخشى على مصر كذلك ، وذلك أن صلاح  
الدين أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يسير إليه إخوته ، فأجاب به نور  
الدين « أحاف أن يخاف أحد منهم عليك فتفسد البلاد » (١٧٠) ، ولكنه  
علماً رأى الخطر الفرجي يحدق بمصر فإنه أرسل إليه العساكر ، وفيهم  
إخوة صلاح الدين ، وقال لأخيه توران شاه من أيوب « إن كنت تسير  
إلى مصر ، ونظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك ، وأنت  
قاعد فلاتر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر كحيث وأعاقبك بها  
تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر ، وقائم فيها مقامى ،  
وتخدمه نفسك كما تخدمى ، سر إليه واشدد أمره ، وساعده على ما هو  
بصلده ، فأجاب توران شاه : « أفعل معه الخدمة والطاعة ما يتصل بك  
خبره إن شاء الله تعالى »

فكلام نور الدين لتوران شاه كلام رجل يعرف أقدار الرجال ، ويقدر  
دور صلاح الدين في خدمة الاسلام والمسلمين الذي كان أهم أهداف نور  
الدين

والحق ، أن ذلك يتمارض ثاماً وقول بعض المؤرخين وكتب إلى

الأمراء بمصر بمعارفته وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره ، وشرع يلزمه ،  
ويذكره بالسوء ، ويعتد في الطلب بحمل الأموال إليه ، وصار كثيراً  
ما يقول « ملك ابن أيوب ويستعظم ذلك احتقاراً له » (١٧١) ، وقد أورد أبو  
شامة هذا الرأي لابن أبي طى ثم علق بقوله « قلت . والذي أنكره نور  
الدين هو إغراء صلاح الدين في تفرقة الأموال ، واستداده بذلك من غير  
مشاورته » ثم يصيب « هذا مع أن ابن أبي طى متهم فيما يسبه إلى نور  
الدين بما لا يليق به ، فإن نور الدين رحمه الله كان أدل الشيعة بحلب ،  
وأطلق شعارهم ، وقوى أهل السنة ، وكان والد ابن أبي طى من رؤوس  
الشيعة فعاه من حلب » ثم يقول « وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طى في  
كتابه (١٧٢) مرفقاً في مواضع ، فلهذا هو في الكتاب الذي له كثير الحمل على  
نور الدين رحمه الله ، فلا يقل منه ما يسبه إليه بما لا يليق به » (١٧٣)

وقد قال ابن أبي طى كذلك أن نور الدين قال في مرض موته  
« ما أحطت إلا في إغفادي أسد الدين إلى مصر ، بعد عدى برعته فيها ،  
وما يجرئنى شيء كعلمى بها ينال أهلى من يوسف بن أيوب » (١٧٤)  
ولا ندري ماذا كان يريد نور الدين من صلاح الدين أكثر من ذكره ابن أبي  
طى أيضاً على لسان صلاح الدين حيث قال « والله لقد صيرت منه على  
مثل حز المدى ووحز الأبر ، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد على ما يعتد  
دسا ، ولقد اجتهد هو نفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتد بها على فلم يقدر ،  
ولقد كان يعتمد في غفائى ومراسلاتى على الأشياء التى لا تبصر على  
مثلها ، لعل أنصبر أو أتعب ، فيكون ذلك وسيلة له إلى مبدئى ، فما  
أبلغته أزيه يوماً قط » (١٧٥)

(١٧١) انظر المحاج ٣ ص ٣١١ . وهو رأى ابن الأثير المعروف سبيله من صلاح الدين وأسرته

انظر المحاج ٣ ص ٣١٠ ، ٣١١ هفتش ٣ ، ٤

(١٧٢) بقصد كتاب ابن أبي طى : « السيرة الصلاحية »

(١٧٣) الروصيرج ج ١ ق ٢ ص ٤٤١

(١٧٤) الروصيرج ج ١ ق ٢ ص ٤٤١



ويرهن أبو شامة على كذب ما يدعيه ابن أبي طي فيورد خطاباً بحظ نور الدين يشكر فيه صلاح الدين ثم يقول « وذلك صد ما قاله بن أبي طي » (١٧٦) ، والخطاب يوجهه نور الدين إلى شرف الدين بن أبي عسرون متولية قضاء مصر ويقول في حتامه « وقد كنت هذا بحظي حتى لا يفي علي حجة . فصل أنت ووليدك عدي حتى أسيركم إلى مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق من صلاح الدين ، وفقه الله ، فأما من شاكر كثير كثير كثير ، جراه الله حراً وأبقاه ، ففى بقاء الصالحين والأحبار صلاح عظيم ، وممعة لأهل الإسلام ، والله تعالى يكثر من الأحبار وأعوان الخير » (١٧٧)

وهكذا يتبين أن الأمر بين صلاح الدين وبور الدين لم يكن كما أراد بعض دوى الأهواء تصويره وإن صدقهم النقص وساروا على درجهم كما يتبين أن نور الدين لم يكن يعارض في أن يلي صلاح الدين الوزارة في مصر ، وأن يكون نائباً فيها .

والآن بعد هذا الاسهاب في هذه لفصية التي كثر النقاش حولها سنقل إلى الأخطار التي جابت صلاح الدين في مصر إبان تلك الفترة الأخطار الداخلية .

أصبح واضحاً للعيان أن صلاح الدين أصبح يتولى القضاء على الخلافة المصاطمية وأصبح العاصد معه صورة لأمر له ولا هي (١٧٨) ، فأقطع - صلاح الدين - أصحابه البلاد ، وأسد إليهم المناصب وذلك أنه « رأى النظر في حق أعوانه وأوليائه أولى ، وسد حديدهم وإعانتهم أخرى ، فأقطع الأجناد البلاد ، وأعطى الأمر ، والأصحاب من المعرى بمائتها ، ومن الأمكنة عرائسها » (١٧٩) ،

(١٧٦) من المصروح ١ و ٢ من ٤٤٢

(١٧٧) من المصروح ١ و ٢ من ٤٤٣ ، ٤٤٤

(١٧٨) الهجوم القاهرة ج ٥ من ٣٤٠

(١٧٩) ابن العزات للجلد الرابع ج ١ وانظر الأخطار ج ٢ من ٢

وعندما ازدادت وطأتها على أهل القصر المصاطمي ، وبدأ واضحاً استبداده بأمور الدولة ، وأصعاف شأن الخلافة ، استاء منه رجال القصر فمثلي في رئيس بلاط قصر الخليفة البوسى جوهر مؤتمن الخلافة (١٨٠) وأحد يدبر للقضاء على صلاح الدين ، وتسرب أنباء ذلك التدمير إلى صلاح الدين ، فدبر صلاح الدين عليه واستعمل خروج مؤتمن الخلافة في جماعة من رجاله إلى مظرة له بناها صاحبة الخرقانية (١٨١) في بستان فأمر من هجم عليه ، واستباح دمه ، ودم جماعته ، وقد احترت رأس مؤتمن الخلافة بعد قتله ، وأتى بها إلى صلاح الدين (١٨٢) وكان ذلك بما أثار غضب السودان جميعاً في مصر ، فثاروا حية له لأنه كان من جسمهم ، ولأنه كان يتعصب لهم ، كما ثاروا كذلك نتيجة لضعف نفوذهم واستبعادهم في عهد صلاح الدين وكان ذلك في ١٦ من دى القعدة سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م ، وكانت جميع طوائف السودان تحارب صعباً وحداً للبريحية والحيوشية والعرحية (١٨٣) ، وكان بأسهم شديداً حتى كادت الهزيمة تقع بجد صلاح الدين ، ولكن أحياه ثوران شاه نمك من انقاد الموقف بحملته على السودانيين ، وقتله بعض مقدميهم ، مما فت في قوتهم ، ورادت عدائهم حملة حشد صلاح الدين عليهم . وكان الخليفة العاصد نفسه يتمنى - آنذاك - أن يقضى السودانيون على هؤلاء المحتلين الجدد ، ويخلصوه من سلطان صلاح الدين الذي نرايد زيادة كبيرة حتى إن أهل القصر الذين كانوا يشاهدون المعركة من مظرة الخليفة راخوا بأمر من الخليفة بلقون حشد

(١٨٠) الحركة الصليبية ج ٢ من ٧٠٧ وكان أحد الاستاذين المحكيين بالقصر

المواعظ والاعتراج ٢ من ٢

(١٨١) وهي قرية على شاطئ النيل بقرب قليوب ابن العزات جلد ٤ ج ١ من ٦٩ ويسمىها

القرية الخنابية المواظ والاعتراج ١ من ٤٨٨ وانظر قوانين الدواوين من ٨٥

(١٨٢) المواظ والاعتراج ٢ من ٢

(١٨٣) وكان الجيش المصاطمي آنذاك يتكون من مصريين أسديريهم المصريين والسودانيون

الذين كان معظمهم من البوسى الذين كثروا في عهد الخليفة المستنصر بسبب أمه البوية ، وهربوا

بكثرتهم بعد شراه المصاح صلاح الدين من ٨٤

كان يقوم بتلك الأعمال في هذه المرحلة بوصفه نائباً عن نور الدين ، لا باسم الخليفة العاطمي بوصفه وزيراً له (١٩٠٠)

### الفرنج وصلاح الدين :-

لم تقتصر الأخطار التي واجهت صلاح الدين آنشد على تلك الأخطار الداخلية بل كان ثمة خطر أكبر يتهدد من ناحية الفرنج الذين ساء بهم استيلاء صلاح الدين باسم نور الدين على مصر مما جعلهم في موقف صعب بين وجودهم بوقوعهم بين شقي الرمح حيث أصححت القوات النورية تحيط بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي (١٩١١) ، وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يتداركوا الأمر وإلا ذهبت البلاد من أيديهم (١٩١٢) ، وخافوا من صلاح الدين « أن يملك بلادهم ، ويحرب ديارهم ، ويقطع آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك (١٩١٣) » ، ومن ناحية أخرى كانت سيطرة نور الدين وقائده صلاح الدين على ميثاقى الاسكندرية ودمياط في شمال مصر وغيرهما من موانئ الدلتا تؤثر على سيادة الصليبيين البحرية ، وتجعل هذه السيادة للمسلمين في الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط (١٩١٤)

وأشار ذلك فرع عمورى ملك بيت المقدس ، واستقر رأيه على الاستجداد بملوك أوربا ، فأرسل سفارة إلى هردريك بارباروسا امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهري الثاني ملك انجلترا ، وكذلك وليام الثاني ملك صقلية ، وغيرهم من الأمراء حتى قوموا بحملة صليبية جديدة يقدون بها إحواهم في بلاد الشرق (١٩١٥) ، ولكنهم لم يلبوا

(١٩٠٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩

(١٩١١) الكنس ج ٩ ص ١٠٥ والمترجم الباهر ص ١٤٣

(١٩١٢) مرجع الكروب ج ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠

(١٩١٣) البواهر السطانية ص ٧٠

صلاح الدين بالنشاط والحجارة ، مما اضطر صلاح الدين إلى إحصار النساطين وهند بإحراق منظره القصر العاطمي ، وأسقط في يد الخليفة الذي خشي على نفسه ، فظهر بغير ما يبطى ، فأمر أحد الأسنادين بالخروج من المنطرة والصياح بصوت عالٍ إلى نورا شة الذي كان على رأس النساطين ، وقال له :

« أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ، ويقول ، دويكم والعيد الكلاب أخرجوهم عن بلادكم (١٨٨٤) » وكان لإصراف تأييد العاصد عن السوادنيين أثره في جند السواديين الذين كانوا يحاربون من أجل هيئة الخلافة هت « في أعصاذهم محسوا ، وتحادلو ، وأديروا (١٨٨٥) » ، وجد صلاح الدين يشعونهم ، وأراد الأرض الذين كانوا بين القصريين في دارهم التي تحمل بعدد عظيم منهم مزاررة السوادنيين ، وتمكوا من إيقاف مسيرة جند صلاح الدين عن متانة السواديين غير أن شمس الدولة تمكن من إحراق دارهم وأهلكهم حرقاً وقتلاً (١٨٨٦) ، ثم تمسع السواديين حتى حصرهم عند باب زويلة ، وأعمل فيهم القتل مدة يومين ، كما أحرقت أعظم حاراتهم التي كانت تعرف بالمصورة ، وطلب السواديون الأمان في ٢٨ ذى القعدة فأمنوا ، ثم خرجوا إلى الخيرة ، فلق بهم شمس الدولة بجوده « وحكموا بهم السيف حتى لم يبق منهم إلا الشريد ، وتلاشى منذئذ أمر العاصد (١٨٨٧) » ولم يعد باقياً للعاصد إلا الخطبة له وبعده للملك العادل صاحب الشام (١٨٨٨)

هذا ، ومارال صلاح الدين يتبع أمر السودان حتى قصى على نفوذهم نهائياً في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م (١٨٨٩) ويجدر بالذكر هنا أن صلاح الدين

(١٨٨٤) لواطت والاقتراح ج ٢ ص ٢

(١٨٨٥) الكنس ج ٩ ص ١٠٥ سنة ٥٦٥ هـ

(١٨٨٦) لواطت والاقتراح ج ٢ ص ٣

(١٨٨٧) نفس المصدر ج ٢ ص ٢

(١٨٨٨) لى فقرات المجلد ١ ج ١ ص ٧١

(١٨٨٩) الدولة العاطمية في مصر ص ١٧٣ وانظر العاطميون في مصر ص ٣٠٩

هذه الدعوة لاشتعال أعينهم بمسائل تتعلق بدولهم (١٩٩)، واكتفوا  
بإعدادهم بالأموال والرجال والسلاح (١٩٧)

ولم يكن الانزعاج من نصيب الفرنج فقط فقد انزعج مانويل امبراطور  
الدولة البيزنطية للأمر، ولذلك لم يتردد عندما حاد إليه الفرنج طالبين معونه  
من مذبذبة المعونة إليهم بأسطول بيزنطي ليحدد بذلك اتفاقته مع الفرنج  
حول الاشتراك في مهاجمة مصر وأقسامها (١٩٨)، مؤملاً في تحقيق أطماعه  
بتوسيع رقعة البلاد الداخلة في دائرة نفوذه (١٩٩) هكذا اجتمع رأى الفرنج  
والبيزنطيين على مهاجمة مصر، وراوا أن يقصدوا إلى دمياط، وكان قصدهم  
دمياط بالذات «لتمكن القاصد لها من البحر والحر، ولعندهم أنها إن  
حصلت لهم حصل لهم معبرين قدم (٢٠٠) وتكون في نفس الوقت طهراً  
لهم يمكنهم من احتلاك بقية مصر (٢٠١)

ووصلوا إلى دمياط في صفر سنة ٥٦٥ هـ / ، ورأى صلاح الدين  
ضرورة الهرب من لجاجة الفرنج بدمياط مستشعراً مدى الخطر الذي تختمه  
حملتهم على البلاد، لاسيما وأنه لم يكن يفتق بعد من معركة السواديين  
الأولى (٢٠٢)، وأرسل إلى نور الدين مسياً له عن مخاوفه، وأوضح له أنه  
إن تحلف عن دمياط ملكها لأفرنج، وإن سار إليها حمله المصريون في  
عملية وعنف عسكريه بالسوء، وتخرجوا عن طاعته، وصاروا من حمله  
والفرنج من أمامه (٢٠٣) وقد اهتم نور الدين برسالة صلاح الدين أبين  
(١٩٦) الدولة الفاطمية في مصر من ١٣٣ وانظر في ذلك أوروبا المصور الوسطى ج ١ ص ٢٨٢ - ٣٩٢

(١٩٧) فتح الكروب ج ٢ ص ١٨٠ والباقر ص ١٢٣

(١٩٨) وهي اتفاقية سنة ١١٦٨ م. الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١١

(١٩٩) الدولة الفاطمية في مصر من ١٣٣ وانظر نور الدين والصليبيون ص ١٣٤ - ١٣٦

(٢٠٠) الوارد السلطانية ص ٧٠

(٢٠١) التاريخ الباهر ص ١١٣

(٢٠٢) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩

الاهتمام، فحضر إليه العسكر أرسالاً «كلما تجهرت طائفة سرها، فسارت  
إليه العساكر ينشئ بعضها معصاً (٢٠٢)، وخرج بنفسه إلى بلاد الفرنج  
بالساحل واستباحها (٢٠٣)

أما صلاح الدين فأرسل ابن أخ له هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب على  
رأس قوة إلى دمياط، وأمنه بالأمير شهاب الدين الحارمي، وقام أهل  
دمياط بنور بالغ في الدفاع عن مدينتهم ضد الفرنج، وصبروا على  
حربهم، وفي ذلك يقول المقرئ (٢٠٤) «والناس فيها صابرون في محاربتهم»  
وكان أهل دمياط يقفون موقف صلاح الدين الحرح وبصرهم الله رغم قلة  
عددهم وعددهم (٢٠٥)، وقد استعمل أهل دمياط ظاهرة جريان النيل من  
الجنوب إلى الشمال في إرسال أوان فخارية تحتوي على مواد مشتعلة، وذلك  
على سطح الماء فأرسلت النيران بالأسطول البيزنطي (٢٠٦)

ووقع الخلاف بين الفرنج والبيزنطيين، واستشعر الفرنج مبلغ الخطر  
الذي يهددهم من نور الدين الذي أحد يعث في بلادهم، فمضوا جميعاً  
العودة من حيث أتوا بعد أن عشدوا في حملتهم فشلاً ذريعاً، وعقب ابن  
الأثير على هذا بقوله «وهذا موضع المثل دهست النعامة تطلب قريين  
فعادت بلا أدنين (٢٠٨)

وقد ساندته الخليفة المعتمد آنذاك بالكثير من الأموال بوجه له صلاح  
الدين هذا الموقف فقال «مارأيت أكرم من المعتمد، أرسل إلى مدة  
مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري سوى الثياب  
وعبرها (٢٠٩)

(٢٠٤) التاريخ الباهر ص ١٢٣

(٢٠٥) اتفاق الحلفاء ج ٣ ص ٣٦٥

(٢٠٦) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩ وانظر ابن الفرات ج ٤ ص ٨٣

(٢٠٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١٣

(٢٠٨) التاريخ الباهر ص ١٤٤ والوارد السلطانية ص ٧٧ والجموع الزائدة ج ٦ ص ٧

ولكن الخليفة العاصد لم يكن يحصى عليه ما صار عليه صلاح الدين من قوة وتمكن في مصر ولم يكن يرضه ذلك فرمى سهمه لأحرى من قبله، فصعد فوقه عن طريق طلبه من نور الدين أن يسحب الخند الأتراك من القاهرة، ويطلب منه الاقتصار على الملك الصالح الدين ومن يلزمه من حواصده، فلم يجبه نور الدين، بل طسه وأرسل إليه يعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم، لا تعلمه بأن قصديرات (٢١٠) الفرنج، ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يعرفون إلا منهم، ولولاهم لراد طمعهم في الديار المصرية، وتغصنوا بها على الأمية، فلعن الله يسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إليه نعمة التي لا تحصى (٢١١).

وقد راد عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه بمصر، وقد وصل إليه أبوه وأقاربه في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م مما قوى من موقف صلاح الدين، وعزم على إحلال الأمراء النشاميين على الأمراء المصريين في دروهم وأمورهم وإقطاعاتهم، فكان الأمير الشامي يقف بأذنه على باب الأمير من أمره مصر، فإذا خرج قبض عليه واستولى على داره وأخذها لنفسه، وبذلك صار الأمراء النشاميون في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعادتهم. قال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم سائس فارس كان يركبها، وصار آخر وكيل القصر في بلب كانت إقطاعاً له، وبحود ذلك من الهوان (٢١٢).

وقد ساء هذا الذي لحق بالأمراء المصريين الخليفة العاصد، فأرسل

(٢١١) القطريات: نوع من الأسلحة في خراطة السلاح وتكون مقفولة ومدهية

الترغيب بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٧٧

(٢١٢) الروستون ج ١ ق ٢ ص ٤٦٠، والقطريات: نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم. مرجع الكروب ج ١ ص ١٨٣ حاشية ١ وانظر مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٧٧

يسأل صلاح الدين عن السب الذي حدا به إلى ذلك، فأجابه صلاح الدين بأن هؤلاء الأمراء كانوا عصاة لأمره، والمصلحة قتلهم، وإقامة عيهم ممن يمثل أمره، فسكت الخليفة (٢١٣).

وهكذا صار واضحاً للعيان أن الخليفة العاصد لم يعد له من الأمر شيء، فلا نور الدين بالشام يسمع له، ولا صلاح الدين نائب نور الدين في مصر يعير احتجاجة أدنى التفتات

محاولة القضاء على المذهب الشيعي في مصر:

كان صلاح الدين سعى المذهب (٢١٤) وقائداً لنور الدين محمود، وهو سعى متعصب لسببه، في حين كان وزيراً للخليفة العاصد وهو شيعي اسماعيلي، وهو من هذا المطلق مزدوج الولاء عملاً ومذهباً (٢١٥)، وقد بدأ صلاح الدين بعد أن ثقف من استقرار سلطته في مصر في العمل على القضاء على المذهب الشيعي لمصر، وعودة مذهب السنة: الشافعي ومالك إلى انتشارهما الأول قبل مجيء الفاطميين (٢١٦)، وكانت الخطوة الأولى تعيين قصاة سعي من المذهب الشافعي، فعزل في سنة ٥٦٦هـ قصاة مصر من الشيعة، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درياس المدياني الشافعي (٢١٧).

(٢١٣) ص ص المصريح ٣ ص ٢٢١

(٢١٤) كان صلاح الدين شافعي المذهب هو جميع أسرته باستثناء الملك العظيم عيسى بن النعمان الذي اهتم اهتماماً كبيراً بالمذهب الحنفي، وتعصب له تعصباً شديداً، وكان نور الدين محمود حنفي المذهب، لكنه سعى في اهتماماته بين المذاهب الأربعة جميعاً: مصر والشام والصلبيون ص ١٠٦ حاشية ٢

(٢١٥) مصر والشام والصلبيون ص ١٠٦، وسيرة القاهرة ص ٥٣

وانظر Grousset, Histoire des Croisades T 2, P 539

(٢١٦) الناصر صلاح الدين ص ٨١

(٢١٧) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درياس المدياني، وقد استمر في منصبه حتى نهاية عصر صلاح الدين. المواظ والاختيار ج ٢ ص ٢٢٢ وتماط الاختيار ج ٣ ص ٣١٩ حاشية ٤

الشاطي العلمي وتشجع رعايتهم فأشاد المدارس المختلفة على قرار مدارس حلب ودمشق بتعبه عن التحصن من كل اثر تشييعه وسجل على الأهر الذي لم يشترك في نشر التراث النسي إلا بعد فترة (١٢٢٣)، وكانت هذه المدارس للمذاهب الفقهية الأربعة، ومن أهمها مدرسة الشافعية بحدود جامع عمرو بن العاص والتي عرفت باسم المدرسة الشريفة (١٢٢٤) وهي أول مدرسة عرفت بمصر لإلقاء العلم (١٢٢٥)، ومدرسة للملكة بحدود جامع أياض وعرفت باسم مدرسة القمحية، لأن القمح في أيام صلاح الدين كان يورع على قهقهتها من صيغة دقيوق عرفت بدخوشية أوقفها صلاح الدين عليها، وكان موقعها قبل ذلك قيسارية (سوق) عرفت بقيسارية العزل بحدود جامع العتيق بمصر، ووقف عليها صلاح الدين أيضاً بقيسارية الوردية وعلوها بمصر، وكانت أجل مدرسة للملكية (١٢٢٦).

وتنسب إلى صلاح الدين أيضاً المدرسة السيوفية التي حل محل محلها الآن مسجد المطهر بالصاعدة شارع الفخر لدين الله، وحصصت لعمهائه الخفية (١٢٢٧)، كما سمح للحداثة أيضاً بممارسة شاطيهم (١٢٢٨) كما أنه نفى الدين عمر من أحق صلاح الدين بشري مبارز العرب وساهم مدرسة للشافعية (١٢٢٩) وقد اندثرت مدارس القاهرة التي أنشئت في العصر الأيوبي (١٢٣٠).

(١٢٢٣) أخبار النعمانية بين القاهرة وبيروت براهيم مذكور ج ١ ص ٦١ من أبحاث الدولة

(١٢٢٤) الواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٦٣ - وعرفت هذه المدرسة أولاً بالمدرسة الناصرية ثم عرفت باسم رين النجار بعد أحداث الشافعية الذي فرض هذه المدرسة مدة طويلة

وأظهر الخطط التوقفية ج ١ ص ٧١

(١٢٢٥) انقطاع المحتاج ج ٣ ص ٣١٩

(١٢٢٦) وفي سنة ٨٢٥ م أخرج السلطان الأشرف برسبك نحاسي الأعلام والحدوشية من وجهها وجعلها إقطاعاً لمملوكين له الواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٦٤

(١٢٢٧) العبرة الإسلامية في مصر ص ٢٤ أبحاث الدولة ج ١ ص ٢٥٤

(١٢٢٨) أبحاث الدولة ج ١ ص ٢٥٤

(١٢٢٩) المختصر في أخبار الشرع ج ٣ ص ٥٠

(١٢٣٠) حقائق عصره القاهرة التي أنشئت في العصر الأيوبي أحمد مكي أبحاث الدولة

ويبدو أن صلاح الدين وشركوه قد برعوا في عدم إظهاره من حيث كان معتنقيه وكان شريكوه يروون صريح الإمام الشافعي، وقد من ذلك يوم مقتل شاور حيث صعدت رياره شريكوه بصريح الشافعي، وكان مذهبها مالك وللشافعي موحدين في عهد النعمانيين، حيث لم يقصر النعمانيون على شعائر المذاهب المخالفة (١٢١٨) هذا، وقد شدد صلاح الدين الدعاة الشافعيين، وألقى محاليس دعوتهم، وعمل على إزالة أصول مذهب الشيعة، فأطلق الأذان وحمل على حير العمل محمد وعمر حير البشر، وفي ذلك يقول المقريري: فكانت أول وصمة دخلت على الدولة (١٢١٩)، ثم أمر أن يذكر في الجمعة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وتم ذلك في يوم الجمعة ١٠ ذي الحجة سنة ٥٦٥ هـ.

ثم إن صلاح الدين أمر بأن يذكر الخليفة العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبس على انشيعه فكان الخطيب يقول: اللهم أصبح العاضد لدينك لأخيه (١٢٢٠)، ثم تطور الأمر فيها بعد إلى إبطال ذكر العاضد من الخطبة حيث كان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد تلياً بأنه العاضد ببي هو يريد أياً محمد الحسن المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي (١٢٢١).

ثم أصاب صلاح الدين إلى ذلك تعطيل الجامع الأهر، وصل الجامع الأهر معصلاً من إقامة الخطبة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين إلى أن أعيدت الخطبة في أيام السلطان الظاهر بيبرس (١٢٢٢).

ثم اتبع صلاح الدين ذلك بحظوة تهدف إلى تجميع من يرجع في

(١٢١٨) الناصر صلاح الدين ص ٨١

(١٢١٩) انقطاع المحتاج ج ٣ ص ٣١٧

(١٢٢٠) انقطاع المحتاج ج ٣ ص ٣١٨

(١٢٢١) نفس المصالح ج ٣ ص ٣٢٧ وهو الخليفة الثالث والثلاثون من أسرة النعمانيين - حكم بين سنتي ٥٦٩ هـ (في أولها) سنة ٥٧٥ هـ (١١٧١ - ١١٨٠ م) - مصر للصدوح ج ٣ ص ٣٢٢ حاشية (٤)

(١٢٢٢) الواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٧٦ والظاهر Wiet, L'Egypte arabe, P. 302

وبذلك يمكن القول أن صلاح الدين اتبع سياسة يمكن أن يطلق عليها سياسة الإزاحة ، أى إزاحة مذهب لإحلال مذهب آخر مكانه (٢٣١)

ولاشك أن صلاح الدين في إشثائه لتلك المدارس ، كان بمحوجود مولاه نور الدين محمود الذى أكثر من بناء المدارس بالشام ، حيث كان نشر الثقافة وسيطة من وسائل نور الدين لتجميع الرأى العام حوله (٢٣٢)

هذا ، وقد ألقى صلاح الدين المكوس (٢٣٣) والضرائب غير المشروعة التى كانت تجبى أيام الفاطميين متأثراً فى هذه الخطوة للتحفيف عن كاهل الناس بما فعله نور الدين في الشام كذلك (٢٣٤)

وكانت النتيجة أن استعاد المذهب السنى قوته في حين أحد المذهب الاسماعيلى في الاحتفاء تدريجياً حتى لم يبق له أنصار في مصر (٢٣٥)

كان نور الدين محمود حريصاً على إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر لاسيما وقد تحقق من ضعفها ، وأنه لم يبق من أمراء السودان والعساكر المصرية أحد ، وأنه لم يبق لهم معة ، وأن شوكة صلاح الدين قد قويت وزال من مجاهله (٢٣٦) ، ولكن صلاح الدين كان يرى أن ثمة محاذير تحيط به ، وأن إسقاط خلافة وإعلان خلافة أمر يحتاج إلى وقت ، ولكن أمام إلحاح نور الدين شاور صلاح الدين الأمراء في ذلك الأمر فانقسموا في

(٢٣١) القاهرة ص ١١٥

(٢٣٢) ناصر صلاح الدين ص ٨١ ، ومصر والشام والصلبيون ص ١٠٧ ، وكان نور الدين نفسه قد حدا حين ملكته السلجوقي الذى كان وزيره نظام لذلك قد بسى المدرسة النظامية في بغداد . سيرة القاهرة ص ١٦٧

(٢٣٣) انعطاف الحجاج ص ٢١٩ والمواظ والاختيار ص ٢٣٣ والمكوس مردها مكس ، صربية تعرض على الانتاج وعلى السلع القارئة والصادرة الموجودة في الموانئ

التعريف بمصطلحات صحيح الاعشى ص ٣٧٥

(٢٣٤) مصر والشام والصلبيون ص ١٠٧

(٢٣٥) مصر الفاطمية / د سرو ص ١٣٥

(٢٣٦) ليس المرات مجلد ٤ ج ١ ص ١٦٢

الرأى بين مؤيد ومعارض ، وسرى للأمر أمير أعجمى كان قد أتى ديار مصر حديث يعرف بالأمير العالم (٢٣٧) ، فقال أنا أنتدى بها ، وفي أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ صعد الأمير لعالم المرقى الخطيب ، ودعا للحليمة الامام المستصفي بور الله ، فلم يكر ذلك أحد عليه ، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين بقطع الخطبة للحليمة العاصد في مصر والقاهرة وإقامة الخطبة للحليمة المستصفي بور الله ، فلم يتحرك مخالف لذلك ولا مفكر له ، وانتظم الأمر (٢٣٨) ، وقد عر اسن الأثير وغيره عن هذا بقولهم : فلم ينتطح فيها عيزان (٢٣٩)

وهكذا أجمعت المصادر التاريخية على الإشارة إلى أن الناس في مصر استقبلوا هذا التغيير دون اكثيرات أو اهتمام برؤال الخلافة الفاطمية (٢٤٠)

ولعل في ذلك ترويحاً لقول السيوطى بأن أهل مصر كانوا عبيداً لمن علي (٢٤١)

وهو قول مساقشه بعد قليل لسبب صدى سقوط دولة الفاطميين لدى أهل مصر

وقد احدى أصحاب العاصد ذلك عنه ، حيث كان العاصد مريضاً ،

(٢٣٧) مرجع الكروب ج ١ ص ٢٠١ ، وتبعه المبرورى رسلاً من أهل المغرب يقال له البيع بن عيسى بن حرم بن عبد الله بن الهيثم أبو يحيى العامى الأندلس ، انعطاف الحجاج ٣ ص ٣٢٣ ، ويقول عنه رسيان انه متصوف أتى من الموصل راثراً تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٣٦ ، وقيل رجل من بعلبك اسم محمد بن الحسن بن أبي القصد البعسكى الهجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٥

(٢٣٨) مرجع الكروب ج ١ ص ٢٠١ والكواكب النيرة ورقة ٥٣

(٢٣٩) الكامل ج ٩ ص ١١١ ويختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٠ وتنته المختصر ج ٢ ص ٧٩

(٢٤٠) الحروب الصليبية / بلر ص ١١٠

(٢٤١) ترجم الله به . هذا القول إلى من الصلة بالأمير أعجمى

وقالوا : إن سلم فهو يعلم فلا يسمى أن يحسن عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله (٢٤٧)

وذكر ابن أبي طي أن الخليفة العاصد علم بالأمر قبل موته ، وأنه أهتم لذلك ، وقام ليدخل إلى داره ، فتعثر وسقط ، فأقام مريضاً مدة خمسة أيام ومات ، وقبل به انتص فص خاتمه ، وكان تحته سم فمات (٢٤٨) ، وحكى القاصي العاصد أنه قتل نفسه لما سمع بقطع خطته (٢٤٩) ، وقبل إن طيبه المعروف ناس السديد امتنع من مداواته ، وقد يعى المقريري موقف هذا الطبيب من العاصد فقال أنه وحده مساعدة عليه للزمان ، وميلاً مع الأيام (٢٥٠) ؛ كما قيل كذلك أن توران شاه أحم صلاح الدين هو الذي قتله بنفسه (٢٥١) ، أو أن العاصد حصل له عيب من شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أحم صلاح الدين فسم نفسه ومات (٢٥٢) .

وكانت وفاة الخليفة العاصد في ١٠ من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (٢٥٣) ، وعلم صلاح الدين بموت العاصد فقال : « لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما عصبناه برفع اسمه من الخطبة » فقال له القاصي العاصد : « لو علم أنكم ماترهمون اسمه من الخطبة لم يمت » إشارة إلى أن العاصد قتل نفسه (٢٥٤)

وهكذا سقطت دولة العاطميين لتحل محلها الخلافة العباسية التي ظلت قائمة رغم ضعفها وانحلالها لرعية المسلمين في الاحتفاظ بها لا اعتقادهم أنه

(٢٤٢) مرجع الكرب ج ١ ص ٢٠١ والتاريخ الباهر ص ١٥٦ وقره جلي ص ٢٣٩

(٢٤٣) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ والكواكب الدرية ورقة ٥٣

(٢٤٤) الكواكب الدرية ورقة ٥٣

(٢٤٥) اتعاط احتاج ٣ ص ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧

(٢٤٦) الناصر صلاح الدين ص ٨٦

(٢٤٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٢

(٢٤٨) مرجع الكرب ج ١ ص ٢٠١ والروصتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ وانظر

Ensa da l'is ante at adid. T. 1., PP 203-204

نظام لاند منه لصالح العالم الإسلامي ، واستقامة شؤنه (٢٥٥)

هذا . وقد أرسل الخليفة المستنصر بهذه المناسبة الخلع إلى نور الدين إكراماً له ، وكذلك أرسل حثماً إلى صلاح الدين إلا أنها أقي من حثع نور الدين ، وسببت الأعلام السود لتصب على الماي (٢٥٦)

وهكذا رجعت لدعوة العباسية بعد أن كنت قد قصعت بالديار المصرية مائتين وعشر سنين (٢٥٧)

### صيني يسقط الخلافة الفاطمية في مصر :-

صممت أغلب المصادر عن الإفصاح عن حقيقة الشعب المصري من إهلاء الخلافة الفاطمية ، ونحن نقرر بدءاً أن موقف المصريين لم تدل عليه ثورة عارمة فورية وهذا ما عُدَّ عنه بقومهم . ولم ينتطح فيه عيران . فهل كان من المنتظر أن يهب المصلون على أثر إعلان الخطه للعاسيين في ثورة عارمة فورية بين أرحاء المسعد ؟ إذا كان هذا هو المراد ، فهو خطأ في استعجال النتائج ، وما هكذا تنعجر الثورة أمام حاكم له لسلطة وله الجيش وله القوة المسلحة ، ولكن المتدبر لما أعفب ذلك من ثورات مصرية يعلم أنه قد انتطح فيها أكثر من عزيز

وقد فطن بعض المؤرخين إلى عراة تصديق أن يمر الأمر هكذا ، ولكنه أقر في النهاية بأن التعبير قد تم فيقول : « ومنها كان من عراة هذا الأمر ، وصعوبة تصديقه ، فواقع الأمر أن التعبير العورى هذا قد تم ، ولم ينتطح فيه عيران (٢٥٨)

كما استدلل ستاتل لين بول عل أن التعصب الشيعي كان لا يزال قوياً

(٢٤٩) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ والكواكب الدرية ورقة ٥٣

(٢٥٠) Saunders, A history of medieval Islam, p. 164

(٢٥١) التاريخ الباهر ص ١٥٧ والروصتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ وقول الإسلام ج ٢ ص ٨٠

(٢٥٢) السجود الزاهرة ج ٥ ص ٣٤١ ودور الإسلام ص ٢ ص ٨٠

في القاهرة بعد اثني عشرة سنة كاملة على سقوط دولة الفاطميين ، وذلك من خلال وصف ارحالة ابن جبير لشهد الإمام الحسين بن علي ، وما فعله الناس في هذا الصريح ، وذلك حيث قل ابن جبير « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وسكباهم عليه ، وتسميحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحين داعين بأكبر ، موسلين إلى الله سبحانه بركة الثرى المقدسة ، ومتصرعين ما يذهب الأكباد ، ويصدع الحجاد ، والأمر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، بمعنا الله بركة ذلك المشهد الكريم » (٢٥٤).

والذي نخلص إليه أن سقوط دولة الفاطميين التي كان لها في مصر المصريين مكانة كبيرة حيث كانت تسمى بالسيرة لهم مصر المستقلة القوية التي كانت تناوى - في عهد قوتها - خلافة الماسيين والتي كانت تعتمد على المصريين في دواوينها ، بالإضافة إلى أن أيامها في مصر كانت أعيداً متصلة ، لم يعرف لها مثيل من قبل للمسلمين وللمسيحيين على حد سواء ، وكانت تعرف لدى المؤرخين بدولة المصريين (٢٥٥).

ولم يكن قضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية يعنى سوى أن مصر قد صارت دولة تابعة لخلافة العباسيين ، وقد عبر ابن جبير عن هذا المعنى حيث قال أنه « بإنهاء خلافة الفاطميين ثَمَلَتِ الْفَرْدِيَارُ مِصْرَ ».

والحق أن شعب مصر عبر عن وفاته لتلك الدولة ، وعبر عن شعوره بالأسى لزوالها ، وكان من مظاهر ذلك جرعههم لوفاة الخليفة العاضد الذي هاق الحدود فقد كان لموته بمصر « يوم عطيم إلى العاية » وقد وجد عليه المصريون وجداً عظيماً حتى إن نفوسهم « كادت تزحق حزناً » (٢٥٦).

وفي حب المصريين للفاطميين وروعتهم في أن تعود أيامها قال ابن

(٢٥٤) سيرة القاهرة ص ١٦٠ ، ١٦٢ ورحلة ابن جبير ص ٤٨

(٢٥٥) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٧ والنوادر السلطانية ص ٧٩ وانظر ظهور دولة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٢

حلكان « وكان أهل مصر يؤثرون عودهم » (٢٥٧) ، كما يحدثنا اس شداد « عما كان في قلوب القوم من مهاواة المصريين » (٢٥٨).

وقد أدرك صلاح الدين نفسه ذلك ، وعبر في إحدى رسائله إلى نور الدين عن أن المصريين يناصبونه العداوة ، وأهم أعداءه وإن قدمت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام (٢٥٩).

ولاشك أن إساءة صلاح الدين السيرة في أهل الخليفة العاضد كانت من دوافع المصريين إلى هذا الاستياء ، فقد احتاط فرافوش على أهل العاضد وأولاده ، وأخرجهم من القصر ، ثم فرق بين الرجال والنساء لكلا يتسلسوا ، وليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم (٢٦٠) ، وقد باع الخواري والعبيد ، وباع محتويات القصر ، واستمر ذلك البيع مدة عشرة أعوام ، ومنك صلاح الدين القصور التي أخرج منها أهلها لأمرائه ، فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكوا فيه ، وأسكن أبناء نجم الدين أيوب بن شاذي في قصر النولوة على الخليج ، وأحد أصحابه دور من كان يسب إلى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل إذا استحسن داراً أخرج منها سكانها (٢٦١) ، وأحليت أمكة من القصر العربي سكن فيها الأمير موسك والأمير أبو الحياه السمي وغيرهم من العرب ، وملئت لمطابخ المصونة والمنشآت التي لم يحظر انتهاكها في الخاطر (٢٦٢) ، ويعقب المقريري على ذلك بقوله « فسبحان مظهر المعائب ومعدنها ووارث الأرض ومورثها » (٢٦٣).

(٢٥٧) وفيات الأعيان ط السداد ١٩٤٨ ج ٦ ص ١٥٦

(٢٥٨) النوادر السلطانية ص ٧٩

(٢٥٩) مفرح الكروب ج ١ ص ٢٤٨

(٢٦٠) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ وللواظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

(٢٦١) للواظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

(٢٦٢) نفس المصدر ج ١ ص ٤٩٦ وانظر كذلك الخطة التوفيقية ج ١ ص ٧١

(٢٦٣) المراجعة والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦



هذا وقد عمل صلاح الدين على القضاء على معالم الدولة الفاطمية ،  
فصرع المناطق الفصية لثني كانت محاربي حوامع القاهرة ، والتي كانت  
تحمل أسماء الخدماء الفاطميين والتي كان ورثها خمسة آلاف درهم فصة  
نقرة (٢٦١) .

وقد أحسن المصريون بأن أموال مصر وخيراتنا تخرج للترك العرباء في  
مصر والشام / وأحسوا باحتفاء العملة الذهبية والفصية من التداول أيام  
صلاح الدين ، وظهرت بذهب عملة رديئة هي العنوس التي كانت من  
الحامس المحلوط بالفصية ، وعثر المقريري عما أصاب المصريين من ذلك  
فضال : « وعمت ملوى الصائقة بمصر لأن الذهب والفضة خرجا منها  
وما رجعا ، وعندما فلم يوجد ، ولحق الناس بها عظم من ذلك ، وصاروا  
إذا قيل دينار أحمرا ، فكأنها ذكرت حرمة العبور له ، وإن حصل في يده ،  
فكأنها جاءت بشارة الحنة له (٢٦٢) .

كذلك استبعد صلاح الدين رجال مصر من وراثته وجيشه ، وأمر  
رحاله في بيوتهم ، وهم كذلك باحراج لقط من الدواوين لولا خوفه من  
أن يتوقف دولاب العمل (٢٦٣)

وإذ كان بعض من وفد على الدولة الفاطمية قد وفي لها ، فكيف بأهل  
البلاد الذين يودعون دولة عاشوا في أعظافها ما يفي على قريبين من  
الزمان ؟! لقد وفي عبارة اليمى الشاعر الوافد على دولة الفاطميين هؤلاء  
الفاطميين الذين أكرموا وفادته ورثي دولتهم بقصيدة رائعة حاز بها إعجاب  
المقريري الذي قال : « والله در الفقيه عبارة » وقال ابن سعد عن هذه  
القصيدة : « ولم يسمع فيها يكتب في دولة بعد انقراضها أحسن  
منها (٢٦٤) »

(٢٦٤) السلوك ج ١ في ٢ من ٦٥ ، ٦٦

(٢٦٥) السلوك ج ١ في ١ من ٦٧

(٢٦٦) نص المصدر ج ١ في ١ من ٦٩ وظهور دولة الفاطميين وسقوطها من ٩٣

(٢٦٧) مواظ والاعتبار ج ١ من ٩٩

وهي القصيدة التي يقول فيها :-

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجبته بعد الحسن بالمطل  
وفيها

لحقى ولحق بنى الأمال فاطمة عن فجيعتها في أكرم الدول  
ويبقى عن صلاح الدين ما فعله بالفاطميين ، ويرى أن الفرج لو  
تمكوا منها ما فعلوا أتبع مما فعل فيقول :-

ماذا عسى كنت الأفرنج فاعلة في نسل آل أمير المؤمنين على  
هل كان في الأمر شيء غير قمة ما مكتسبين حكم السبي والممل  
ثم يتحرر على القصر الخالي من أصحابه فيقول :-

مررت بالقصر والأركان حالية من السقود وكانت قبة الفصل  
عملت عنها بوجهي خوف متعبد من الأعادي ووجه البود لم يمل  
ثم بعد أيام أعيادهم ومكرهم ، ثم يظهر كراهيته علناً لمن سلبهم  
ملكهم فيقول

والله لا ماز يوم الحشر ببعضكم ولانجا من عذاب الله غير ولى  
ولاسقى الله من حر ومن ظمأ من حد عهد الإمام العاصد من على  
ثم هو يقسم على جبههم حتى آخر عمره فيقول :-

والله ما رلت عن حبي لهم أبداً ما أحر الله لي في مدة الأجل (٢٦٨)  
وقال عبارة في قصيدة أخرى يعنى العاصد ، ويعرض بصلاح الدين :  
أسقى على من الإمام العاصد أسف العقيم على تراق الواحد  
لمس على حجرات قصرك إذ حلت بالنس النبي من اودحام الواحد  
وعلى انفرادك من عساكرك الذي كاسوا كأموح الخصم الراكد  
قلدت مؤتمس الخلافة أسرههم فكب وقصر عن صلاح العاصد (٢٦٩)

ولم يقف الأمر على عبارة ، فربما عثر بالكتابة على لحدود يعنى دولة

(٢٦٨) مواظ والاعتبار ج ١ من ٩٩

(٢٦٩) وهو يشير إلى مثل ثورة مؤتمس الخلافة في القضاء على صلاح الدين ، وفي قوله : صلاح

الفاطميين ، فمن ذلك ما وجد مكتوباً على بعض جدران القصر -  
 يا ههذه الدنيا عجت مولع بك كيف أصحى في هواك يقاد  
 ماصح منك لال أحمد موعد فكيف منك لغيرهم ميعاد  
 أما نعيمك فهو ظل رائل وصلاح ما تأتيه فهو فساد (٢٧٠)  
 ولعلنا نحصل من ذلك إلى أن ربة الفرج التي سادت أرجاء دولة  
 العباسيين بصيرورة مصر إحدى ولاياتها ، قالها ربة الحزن في قنوب  
 المصريين الذين فقدوا استقلالهم بزوال دولة الفاطميين .

وإذا كان الحال كذلك فلا عرو أن تقوم بعض الحركات في مصر  
 تستهدف إعادة الدولة الفاطمية ، وتحليص البلاد من استبداد صلاح  
 الدين ، ومن تبعيته للدولة العباسية ، وعلى ذلك فإن ثورات المصريين  
 ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطني ضد الاحتلال التركي (٢٧١)

#### حركة عمارة اليمنى :-

كانت أكبر المحاولات لإعادة الخلافة الفاطمية هي تلك الحركة التي شارك  
 فيها عدد كبير من المصريين فيهم القاضى والداعى والكاتب والأمير وأستاذ  
 القصر والعوام من الشعب (٢٧٢) فقد اشترك فيها المصلح بن كامل  
 القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعوريس ، وكان يتولى ديوان  
 الظرف ثم القضاء بعد ذلك ، وشيخاً كاتم السر ، وعبد الصمد القشة أحد  
 أمراء المصريين وساجح الخيامى ورجل صميم بصرانى ، وكان ممن ترعهم  
 هذه الحركة عمارة اليمنى الذى ظل على وفائه للفاطميين حتى حبل المشقة  
 ولم يكن هناك ود بين عمارة وبين الحكم الجديد فقد كان عمارة مستشعراً  
 من العبر وهم أيضاً مه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية (٢٧٣) ، وقد

(٢٧٠) اتعاظ الخماج ٣ ص ٢٣٤ وفى اليد الأخير كذلك بوزة واضحة وبمريض صلاح  
 الدين

(٢٧١) الناصر صلاح الدين ص ٩٢

(٢٧٢) الروصتنى ج ١ ق ٢ ص ٥٦١

اشترك في الحركة كذلك السودانيون ، وبعض التركمان ، وأسرة شاور ،  
 وسورريك ، وكل من كان ساحطاً على قيام لطام الحديد (٢٧٤) ، وكان ذلك  
 في سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (٢٧٥) وكانوا قد اتفقوا على تولية الخلافة إلى  
 ابن المصمك الأكبر ، ولقبوه «الحامد لله» ، غير أنهم كانوا قد أذعنوا  
 معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر ، فحضر عند صلاح الدين  
 وأخبره بأمرهم (٢٧٦) .

وكانت الظروف آنذاك تساعد التأثير حيث ساءت الأحوال في بلاد  
 اليمن في أعقاب استيلاء عبد السبي على ريد ، وقصع الخطة العباسية بها  
 والخطة لنفسه ، مما دفع توران شاه رجل صلاح الدين القوى الذى كان  
 قد عاد من بلاد النوبة بعد غزوه لها حيث لم يطلب له المقام إلى ابداء الرغبة  
 في فتح اليمن موافقه صلاح الدين ورين له عمارة اليمنى ذلك الأمر حيث  
 رأى الخبر في غيبة توران شاه عن مصر أثناء تفجر الثورة (٢٧٧) .

ويقول المؤرخون أن رجاء اخركة اتصلوا بعمورى ملك بيت المقدس  
 ليؤازرهم في إخراج حركتهم ، فمضى حين يهاجم الفرج في وقت حدوده ،  
 يقوم هؤلاء بحركتهم في الداخل ، ويعيدون دولة الفاطميين

وهذا الإدعاء يعوزه الدليل ، ويضعفه محاولة تكرار تلك الوصفة في كل  
 محاولة مصرية رعة في تشويه الأهداف (٢٧٨) ، ولم يكن الفرج في كل حركة  
 قاموا بها ضد مصر في حاجة إلى تأمر أو استدعاء ، فهم كانوا يستشعرون  
 على الدوام الخطر النورى على مصر ، ويحاولون القضاء عليه ، وقد سبق  
 أن جاء عمورى إلى مصر دون استدعائه شاور طامعاً في احتلالها (٢٧٩) ،

(٢٧٤) مصر العربية الإسلامية ص ٢٣٨

(٢٧٥) الناصر صلاح الدين ص ٩٢

(٢٧٦) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٣٥

(٢٧٧) وقد وقعت ثورة عمارة بعد صبر شمس الدولة إلى البلاد اليمنية الأخير السبى ص ١٦٢

فهؤلاء كان يدفعهم الطمع في احلاق صلاح الدين والأمل في الحصول على الخزانة (٢٨٠)

وكذلك أصاب المؤرخون (٢٨١) أن ثمة اتصالاً جرى بين التأثير في مصر وبين رشيد الدين بن سنان سليمان في مصياف (٢٨٢) مقر الحشيشية حيث أرسلوا إليه : « أن الدعوة جامعة ، وأن ما بين أيديها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن بصرة » واستدعوا منه من يقتل صلاح الدين غيلة أو بيت له مكينة وحيلة (٢٨٣)

وعلى أية حال ، لم يحجج الناثرون للعاظميين في حركتهم ، واكتشف أمرهم نتيجة للخيانة ، ونتيجة لبقطة صلاح الدين لما يتهدده من أخطار من ناحية المصريين . واستثنى صلاح الدين الفقهاء في أمرهم فأقتلهم بقتلهم فأمر بقتلهم (٢٨٤) ، وشق أقطاب التأثير جميعاً في يوم السبت ١٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ بين القصرين . شق عماراً وصلت فيها بين بابي الذهب وباب البحر ، واس كامل في رأس الخروفيين ، التي تعرف ليوم بسوق أمير الحيوش ، والعوريس على درب السلقة ، وعبد الصمد ، وس سلامة واس المطيبي الأمير ومصطفي الدونة والحاج عبد القوى بالقاهرة ، وشق ابن كامل القاضي بالقاهرة يوم الأربعاء ١٩ رمضان ، وشق أيضاً ابن شبرما وأصحابه ، وجماعة من الأجداد والعبيد والحاشية ، وبعض أمراء صلاح الدين ، واستولى صلاح الدين على جميع ما لهم من مال وعقار ، ولم

(٢٨٠) الناصر صلاح الدين من ٩٣ وانظر كذلك

Kirk, A Short history of the middle East, P. 47

(٢٨١) وأكثرهم من أنصار السنة أصحاب صلاح الدين ، الناصر صلاح الدين من ٩٤

(٢٨٢) حصن سمين مشهور للإسماعيلية بالملحاح النامي قرب طرابلس ، ويقال له صيد

معجم البلدان ج ٥ ص ١٢٤

(٢٨٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٥ والغروب الصليبية / باركر ص ٩٢

يسكن ورثتهم من شئ ، آتة (٢٨٥) ، ويقال إنه لم يتعرض بسوء لخلده وقواده الذين خرجوا عليه ، وإنما تجاهل فعلتهم صاهم يرتدون عن غيهم (٢٨٦)

وي يدل على أن الحركة لا تكن محدودة أن صلاح الدين « تنع كل من له هوى في الدولة العاطمية ، فقتل منهم كثير ، وأسر كثير (٢٨٧) » ، ثم ما أصدره صلاح الدين من أمر بترحيل كافة الأجناد ، وحاشية القصر والسودانيين إلى أقصى بلاد الصعيد (٢٨٨) ، وقص على كثير من السودانيين هكوا بالار في وجوههم وصدورهم (٢٨٩) .

وقد واكب هذه الحركة الثورية حركة أخرى في مدينة الاسكندرية حيث قام بذلك رجل يسمى فذيد من دعاة العاطميين ، فقص عليه صلاح الدين كذلك (٢٩٠) ، وقد وصف صلاح الدين مدى الخطر الذي مثله ذلك الرجل في خطابه إلى نور الدين حيث قال له : « وما يطرق به المولى أن ثمر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع لبحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محترماً شخصه ، عظيم كبره ، يسمى فذيداً القفاص ، وأن المذكور مع حوله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوه ، وطقت عقول أهل مصر فتنه ، وأن أرباب المعاش فيها يحملون إليه حراً من كسهم ، والنساء يحشن إليه شطراً من أمواتهن ، ووجدت في منزله بالاسكندرية عند الفحص عليه والمجوم إليه ، كتب محرمة ، فيها خلع

(٢٨٥) مرجع الكروب ج ١ ص ٢٥٠ ودول الإسلام ج ٢ ص ٨٨ والسلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥

(٢٨٦) Lane-Poole, Saladin, P. 101

(٢٨٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ والغروب الصليبية / باركر ص ٢١٢ وانظر

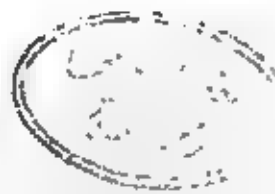
Wiet, L'Egypte arabe, P. 300

(٢٨٨) مصر في العصور الوسطى / د. علي إبراهيم ص ١٧٨ وانظر

Lane-Poole, Saladin, P. 101

(٢٨٩) السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥

(٢٩٠) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ٧٥



العداد ، وصريح الكمر الذي ما عه اندفاع واعتذر ، ورفاع يحاطب فيها بما تقشعر منه الخلود ، وكان يدعى السب إلى أهل القصر ، وأنه حرج منه طفلاً صغيراً ، وشأ على الصلالة كبيراً ، وبالحملة فقد كفى الإسلام أمره ، وحاق به مكروه ، وصرعه كمره (٢٩١) ، ولما بدرى كيف يكون أمره محترماً من « فشت في انشام دعونه ، وطفت عقول أهل مصر فته

هذا ما كان من شأن أخطر الثورات المصرية لاعادة الحكم العاطمي وماواكبها ، تلك الحركة التي قد صاحب الكواكب لدرية عن مديريها « وكاد أمرهم أن يتم (٢٩٢)

أما المرح الذين هاجموا الاسكندرية ، والذين كانت أنظارهم دائماً تنجبه إلى مصر طمعاً فيها ، والذين كانوا يعلمون مدى تفرج موقعها بعد سقوط دولة العاطميين فقد وصلت قوات وليم النورمانى في ٧ صفر سنة ٥٧٠ هـ (٢٩٣) ، في ستمائة قطعة مدين شامى وطراة وبطسة (٢٩٤) ، وغير ذلك وكنت قواتهم تبيع ثلاثين ألفاً ، وقد تمكنت هذه القوات من حصار

(٢٩١) مفتح الكروب ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ والروصتي ج ١ ق ٢ ص ٥٦٦

(٢٩٢) الكواكب المدية ورد ٦٢

(٢٩٣) السوادر السلطانية ص ٨٠ ، وجعل أموشمة مروجى في ٢٦ دى الحجة سنة ٥٧٠ هـ وأمرهم في أول الحرم . الروصتي ج ١ ق ٢ ص ٥٦٨

(٢٩٤) الشانى أو الشىي لجند ثلاثة وأربعين ومائة مهاد ، ومروده بالرح وعلاخ لندفاع وضموم ، وتحتوى على أمراء القمح وصهاريج لخزن الماء العذب

تاريخ الحصار الاسلامى في العصور الوسطى ص ٧٤

وتاريخ التمرد الاسلامى ج ٢ ص ٢٠٠ ومنايب الفوارس ص ٣٤٠

Muslim sea Power, P 134

والطريفة . مركب برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً

قوانين الدولتين ص ٣٣٩

والطريفة من البحر غربة العظيمة التى تعمل على هذه طبقات وعن قلوب كثيرة غدر أكثر من أربعين قلعة وتستحتم من حمل الأوداد والدخيرة والرجاء

تاريخ الحصار الاسلامى في العصور الوسطى ص ٧٤ - ٧٥

انظر Muslim sea Power, P 137

تغير الاسكندرية ، وعذارته مدة ثلاثة أيام ، ولكن مقاومة المصريين الباسلة التى أسفرت عن إحراق بعض سفهم وصطرت هذه القوات إلى العودة خائبة خاسرة بعد أن أسرع صلاح الدين لاجدة الاسكندرية (٢٩٥)

أما الملك عمورى صاحب بيت المقدس فإنه كان قد تولى في بيت المقدس دون أن يرسل قوات تعاون القوات الصقلية (٢٩٦)

ولعل وصول هذه القوات متأخراً عن زمن قيام ثورة عمارة وشركائه دليل على أنه لم يكن ثمة تخطيط بين القائمين على الثورة ومدوك المرجحة ، وإما كان السداسع إلى تحرك الفرنج أنهم علموا بتغييرات الأحوال في الديار المصرية وتقلبات الدول بها ، فداحلهم الطمع في البلاد كما قال ابن شداد (٢٩٧)

على أن الفاصى الفاصل فيما يرويه عنه أبى شامة يجعل إقدام صاحب صقلية على القدوم إلى مصر الرعية في الثار ، وذلك حيث يقول « ومن هؤلاء الكمار صاحب صقلية ، وكان حين عدم بأن صاحب الشام ، وصاحب فسطاطية ، قد اجتماعا في نوبة دباط فعلمنا وقسراً ، وهرنا وكسراً ، أرد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولا امتزجت فيه ماله وزمائه ، فله الآن خمس سبى تكثر عدته ، وتتنخب عدته ، إلى أن وصل بها في السنة الخالية أمر رائج ، وحطب هائل ، ما أنقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملا صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بتظيره لولا أن الله حذله (٢٩٨) »

(٢٩٥) الكواكب المدية ورد ٦٢

(٢٩٦) للحركة الصقلية ج ٢ ص ٣٣٢

بمصر في العصور الوسطى ص ١٧٧

(٢٩٧) السوادر السلطانية ص ٧٩

(٢٩٨) الروصتي ج ١ ق ٢ ص ٢٢١

## ثورة الكثر في الصعيد مصر :-

لم تقف الحركات ضد صلاح الدين على ما حدث في مصر والقاهرة والإسكندرية ، بل امتد ذلك حتى أقاصى لصعيد حيث قد به كثر الدولة وإلى أسوان ذكراً ، وسيطر على جنوب الصعيد (٢٩٩) ، واجتمع إليه من المصريين والسودانيين والعرب وغيرهم كثيرون (٣٠٠) عن إخلاص للدولة العاطمية فقد كان في قلوب القوم من مهاوة مصريين ما تنصهر هذه لأفعال عده (٣٠١) ، وقد امتدت السنة تلك الثورة حتى شملت إقليم قوص (٣٠٢) ، فحزله صلاح الدين قطعة كبيرة من العسكر بقيادة أخيه العادل سيف الدين أبي بكر ، ومعه من الأمر حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وعز الدين موسى ، وعدة من الأمراء وأصحاب الأقطاعات هناك ، وصحبه في تلك الحملة مهدي بن ثمانى صاحب كتاب قوانين النواويس (٣٠٣) ، وقد وصف ابن شداد جيش العادل هذا ودافعهم إلى القتال بأنهم من الدين دافقوا خلاوة البلاد المصرية ، وحافوا على موت ذلك منهم (٣٠٤) ، ففر الكثر إلى مدينة طود (٣٠٥) حيث واكبت ثورته فيها ثورة عباس بن شاذى أحد المحلصين للعاطميين كذلك ليتقوى به ، فهاجم الجيش العادل مدينة طود ، وتمكن من هزيمة الخلفيين ،

(٢٩٩) مصر العربية الإسلامية ص ٢٣٩

(٣٠٠) التكملة ج ٥ ص ١٣٠

(٣٠١) النواويس السلطانية ص ٧٩ ووفيت الأمان ج ٦ ص ١٥٩

(٣٠٢) وكانت قوص قاعدة لإقليم يعرف بالموصية منذ عهد العاطميين إلى آخر أيام أمانيك

وهي قصة صعيد مصر مرادد الإطلاع ج ٢ ص ١١٣

المنجم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٢

(٣٠٣) التاريخ الخري لصلاح الدين ص ٤٧

(٣٠٤) النواويس السلطانية ص ٧٩

(٣٠٥) طود وصفيها باقوت بأنها بليقة بالصعيد الأخرى فوق قوص ، ودو - سو - ماظر

وقتل عباس بن شاذى ، في حين تمكن كثر الدولة من الفرار ، ولكن بعض جند العادل لحقوا به وقتلوه (٣٠٦)

وقد بلغ أتباع الكثر وعباس بن شاذى مائة ألف من أهل الصعيد الأقوياء ، والحدود الكثيرين من المصريين والسودانيين ، الذين كان صلاح الدين يعاينهم إلى الصعيد ، وقد بلغ من النكاية بهم أنه قتل منهم ثمانون ألفاً ، وهبت بلاد الصعيد ، وأخذ الأسرى الكثيرون من أهلها ، حيث صلب منهم نحو ثلاثة آلاف على الأشجار بعامتهم وطيلسهم على حد قول القريرى (٣٠٧)

وهكذا ، وبما تقدم ، يرى أن سقوط الدولة العاطمية لم يمر في هدوء بالنظر إلى تلك الحركات الثورية القوية التي أعقبتها ، والتي كاد يحج بعضها كالحركة التي ترعها عماره ليسى ، ولاشك أن تلك الثورات كانت تعبيراً عملياً عما احتج في قلب المصريين من حزن وأسى عميقين لذهاب دولتهم دولة المصريين ، ولكن صلاح الدين ورجاله من الدين دافقوا خلاوة البلاد المصرية ، وحافوا على موت ذلك منهم ، بها لهم من إمكانيات عسكرية تمكنوا من إخماد هذه الثورات قبل انفجارها أو بعد

على أن الانتصارات الصلاحية التي أحررها صلاح الدين عن الحبهة العربية فيما بعد أظهرت الناس على بطل إسلامي مرتقب لتحرير بلاد المسلمين فالتفتوا حوله وأيدوه حتى إنه عندما خرجت في سنة ٥٨٤ هـ طائفة بمصر ممن ظلوا عن إخلاصهم للعاطميين وبادوا في الليل ، يآل على يآل على لم يجهم أحد من العاصمة أو التفت إليهم ، وتم أخذهم بسهولة (٣٠٨) ، وكيف لثل هذه الحركة أن تنجح بعد انتصار خطين العظمين الذين حققه صلاح الدين على الفرنج في سنة ٥٨٣ هـ ١٩

(٣٠٦) الروص ص ١ و ١ ص ٦٠٢

(٣٠٧) التاريخ الخري لصلاح الدين ٨٩ وظهر خلاوة العاطميين وسقوطها ص ٤٩٨ ، ٤٩٩

(٣٠٨) البدايه والنهايه ج ١٢ ص ٣٣١

ورغم ذلك فإنه بعد وفاة داود بن العاصد في سنة ٦٠٤ هـ في محسه. وكان يزعم أن العاصد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده . فإن أصحابه استأدروا الملك الكامل أن ينوحوا عليه ، وأن يدنوه ، فأذن لهم ، فبرزت النساء حائرات ، ولرجال في ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا في نذره ، ولياحة عليه ، واجتمع معهم من في الاستتار من دعائهم (٣٠٩) ، ورغم أن الكامل قد أذن لهم ، فإنه صبر عليهم ، حتى تكاملت أعدادهم ، ثم أرسل إليهم حوده ، فبهوهم وقصوا على المعروفين منهم ، ولم يكونوا قنة فقد « ملأ بهم السجون » (٣١٠) ، وقد استولى الكامل على أموالهم ، ومع ذلك قر بعضهم ولكن مدئد « زال أمر الاسماعيلية من ديار مصر ، ولم يحسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم » (٣١١)

والسؤال الآن هل يمكن بعد ذلك أن يقال أن المصريين لم يأسوا عن روال دولة الفاطميين ، دولة المصريين ، ولم يبالوا بسقوطها ؟ ولعل جوستاف فون جروسيوم يجيب على ذلك السؤال حيث قال : « ورغم أن الكثير مما أرساه الفاطميون في مصر قد أُلغي أو عدل على نحو ما طابعه تماماً في خلال نصف سنوات بعد تركهم لكراسي الحكم ، إلا أن قصة الفاطميين قد بقيت في ذاكرة المصريين باعتبارها طويلاً محبداً ، بل ومحيرة في تاريخهم الطويل » (٣١٢)

ويحتج حديثاً في هذا الموضوع بقول المقريري عن دولة الفاطميين وأتباعها حيث يقول : « وكانت أساسات دولتهم راسخة في النجوم ، وسيادة شرعهم قد أنافت عن النجوم ، وأتباعهم وأولياؤهم لا يخص لهم عدد ، وأنصارهم وأعوانهم قد ملئوا كل قطر وبلد » (٣١٣)

(٣٠٩) السوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩

(٣١٠) مصر المصداق ج ١ ق ١ ص ١٦٥

(٣١١) السوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩

(٣١٢) أبحاث البعث للدولة ج ١ ص ٣٦٥

(٣١٣) تعاطي الخطا ج ٣ ص ٣٤٦

ويلمع إلى قوله في تحير من كتب ضدهم من البعاديين والشاميين دون المصريين ، حيث يقول : « محكم العقل ، وأمرم جيوش الهوى ، وأعط كل ذي حق حقه ، ترشد إن شاء الله تعالى » (٣١٤)

ولاشك أن الثورات التي حدثت في عهد صلاح الدين قد دفعت إلى أن يسرع في التفكير في ساء فئعة تكون حماية له من خطر الفاطميين في الداخل ، وكذلك من أي خطر خارجي ، وبعده كان يقتدى في ذلك بما شهد منذ حدثته في بلاد الشام ، حيث كان الصليبيون يحيطون مدسهم بسور خارجي في داخله فئعة تقيهم شر الثورات الدخيلة ، أو اعرو الخارجى (٣١٥)

(٣١٤) مصر المصداق ج ٣ ص ٣٤٦

(٣١٥) التواريخ الحربية صلاح الدين ص ٨٩ ، ٩٠

## « العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين »

يذكر المؤرخون أن العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين لم تكن على ما يسمى وعبروا عن هذا بقول منهم هو « الوحشة في الباطن » ، والحق أن الخلاف بين الرجلين لم يتعد أن يكون خلافاً في الرأي حول بعض الأمور ، والخلاف في الرأي - لا يفسد للود قضية كما يقال

على أن يسمى أن تذكر أن نور الدين - فيما يرويه هؤلاء المؤرخون - هو الذي أرغم صلاح الدين على الذهاب - إلى مصر على غير رغبة من صلاح الدين ، وصلاح الدين - فيما يروى هؤلاء المؤرخون أيضاً - هو الذي قال « والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها » وهو الذي قال بعد أن أحضر نور الدين على المسير إلى مصر : فكاننا أساق إلى الموت » وقال « فمرت وكأنها طعموا قسي سكين » ، وفيه قال ابن الأثير « هجعت لغوم بساقون إلى الحنة رعم أنوفهم » ورغم ذلك فقد سار إلى مصر بأمر من نور الدين الذي قال له : « لا بد من سيرك إلى مصر »

فصلاح الدين جاء إلى مصر باختيار نور الدين وهو رحله أولاً وقبل كل شيء ، وكان صلاح الدين يعرف لنور الدين قدره ويعرف محله منه فكان لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين (٣١٦) .

ولكن هذه العلاقة لم تكن لتضع الخلاف بين الرجلين ومُب كل منهما درجة عالية من الكفاية والمقدرة

١ - ولعل أول ما وقع من خلاف في الرأي بينهما هو ما حدث في شأن قطع الخلافة الفاطمية ، حيث كان صلاح الدين في مصر يرى أن الوقت لم يحن بعد للإقدام على هذه الخطوة ، ويخشى من قيام الفتنة ، في حين

كان نور الدين يرى ضرورة حسم هذا الأمر وكان في رأيه هذا يصدر عن بعد نظره السياسي ، وتعامله مد فترة طويلة مع الوزراء المصريين ، وكان يدرك ضعف الخلافة الفاطمية التي أصبحت بلا شخصية قيادية قادرة ، بعد وفاة شاور الوزير الداهية ، كما أن الخليفة العباسي المستنجد بالله من ناحية أخرى كان قد أرسل إليه يعاتبه في تلحيز إقامة الدعوة له بمصر (٣١٧)

٢ - وقد أكد نور الدين حرصه على صلاح الدين عندما أرسل إليه إخوانه وأباه (٣١٨) بهاء على طلبه بعد أن كان قال له « أحاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد » ، كما قال لشمس الدولة توران شاه الأح الأكبر لصلاح الدين - الذي اشتهر بقوة شكيته وطموحه - « إن كنت تسير إلى مصر ، وتظهر إلى أحيث أنه يوسف لدى كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر حينئذ ، وأعاقبك به تنحطه ، وإن كنت تسير إليه أنه صاحب مصر ، وقائم فيها مقامى ، وتخدمه نفسك كما تخدمى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » فأجاب توران شاه بالسمع والطاعة

٣ - قام نور الدين بأعمال عسكرية في بلاد المربع يؤم وصول بحم الدين أيوب والد صلاح الدين ، ومن صحبه من العسكر إلى صلاح الدين (٣١٩) .

٤ - كان فتح مصر من وجهة نظر نور الدين خطوة هامة يقصد من ورائها توجيه الصربة الفاصلة للمربع للقضاء على مملكة بيت المقدس قضاء مبرما (٣٢٠) ، لاسيما وأن مملكتهم كان قد أصاب الوهن أذاك ، ومنوك

أوربا في شغل عن الشام وأهلها ، والبيزنطيون الذين أصاب أمر طورهم مانويل الوهن كانوا عاجزين عن التدخل (٣٢١) ، وقد عرّض نور الدين عن هذا المدعى حين أرسل إليه صلاح الدين مهديّة من مصر حيث قال « ما كان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أننا أعمقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، والهدايا المحضون في مقابلة ما جدينا به مقدار . لكنه يعلم أن ثمرور الشام معتقرة إلى وفور العدد من أحد ، وقد عمّ اللاء بالفرنج ، فيسعى أن تقع المساعدة والمعونة بالأمد (٣٢٢) ولم يكن هدف نور الدين غائباً عن صلاح الدين نفسه ، فقد كان عاهاء في رسالته مع هديته إلى نور الدين « علم المملوك » يعنى نفسه « بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقصّر أبحاثهم ، ويقلّ أسلحتهم ، ويقطع موادهم » ويغرب بلادهم (٣٢٣) »

والسؤال الذي يرد الآن لماذا لم يتعاون صلاح الدين مع نور الدين في محاربة الفرنج كما كان يريد نور الدين ؟ لقد كانت وجهة نظر صلاح الدين أن الخطر بمصر ماثل في كل وقت ، وهو يحشى في كل آن وكل مكان قيام ثورة تفشل جندوره من مصر فهو لم يكن مطمئناً الاطمئناً كاملاً إلى وضعه الداخلي في مصر ، ومن ناحية أخرى كان لا يأمن الخطر الخارجي المتمثل في مؤامرات الفرنج عليه ، وعلى هذا الأساس كان صلاح الدين يربع في الاطمئنان على أنه يقف على أرض ثابته ، قل أن يتجه بجهد مركز ضد الفرنج أعداء مصر والشام على السواء (٣٢٤) .

كما أن حصار الكرك (٣٢٥) بقصد الاستيلاء عليها - كما أراد نور الدين -

(٣٢١) نور الدين محمود ص ٣٤١

(٣٢٢) مرجع الكروب ج ١ ص ٢٢٩

(٣٢٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٥

(٣٢٤) مصر والشام والصليبيون ص ١١٥

(٣٢٥) الكرك - مصر ليد تارخ ص ١٤٨

كان أمراً شاقاً طويلاً المدى يستدعى تمرعاً عسكرياً لهذا الحصار ويستدعى أن يكون صلاح الدين مطمئناً تمام الاطمئنان عن أوضاع مصر الداخلية ، وكلا الأمرين لم يكن ميسوراً لصلاح الدين (٣٢٦)

وقد كانت الكرك من القوة بحيث لم يستطع نور الدين - الذي كانت أموره مستقرة بالشام تمام - من فتحها ، كما أن صلاح الدين لم يفتحها إلا في سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م بعد وفاة نور الدين بحمص عشرة سنة ، بعد تحرير فلسطين واسقاط بيت المقدس (٣٢٧)

وكل ما يمكن أحده على صلاح الدين هو توثيق انسحابه لدى علمه باقتراب نور الدين ، وإن كانت هناك رواية أخرى تنص على عدم وصول صلاح الدين أساساً لمساعدة نور الدين في حصار حصن الكرك والشوك (٣٢٨) ، وأنه أرسل إلى نور الدين يعتذر إليه باحتلال الأحوال في مصر « وأنه يخاف عليها من العدو عنها » (٣٢٩) .

وصور بعض المؤرخين رغبة نور الدين في لقاء صلاح الدين بمصر على أنه بقصد أحد مصر منه (٣٣٠) ، والأغلب أن نور الدين فكر في ذلك

الربح

انظر Ency de L'Isi, Aart al- Kerak. T 2, P 905- 908.

Eineyclopedia Britanica vol 13 P 231

(٣٢٦) مصر والشام والصليبيون ص ١١٥

(٣٢٧) نفس المصدر ص ١١٥ ، ١١٦

(٣٢٨) الشوك - حصص شديد احصاة به يندرس الأول Baldwin صاحب بيت المقدس سنة ٥٠٩ هـ - جنوب البحر الميت ، في منطقة عالية تسهل منه مراقبة القوافل السالكة في الطريق بين الشام ومصر ومهاجتها ، وهو قريب من حصن الكرك القريب

Stevenson, The crusaders in the East, P. 85

ونظر معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧١ وتقوم البلدان ص ٢٤٩

(٣٢٩) مرجع الكروب ج ١ ص ٢٢١ والتاريخ الباهر ص ١٥٨

(٣٣٠) التاريخ الباهر ص ١٥٨ والتاريخ الجريح لصلاح الدين ص ٣٤



لصرف اهتمام صلاح الدين الشديد بأموره الداخلية ، لا لكي يعاقبه (٣٣١)

وليس ثمة ما يمنع من أن بعض رجال صلاح الدين هم خطأ أن انتواء نور الدين لقصد مصر كان لغرض صلاح الدين ، ومن ثم فهموا خطأ كذلك أن في قدرتهم إفساح صلاح الدين بمحاكمة مولاة ، أو لعلمهم رموا من وراء ذلك أن تعموا مكانتهم في ظل دولة صلاح الدين إذا ما استقل عن نور الدين ، وهم لاشك كانوا معطئين على أي حال في توهم محاح هذا لشقاق بالسطر إلى مقدرة نور الدين وشرعيته وإمكانية صلاح الدين الوفوف في وجهه ، وهذا ما بين ريمه نجم الدين أبيوب لصلاح الدين حين قال له « والله لو رأيت أنا ، وهذا خالك ، نور الدين لم يمكس إلا أن نترجل له ، ونقتل الأرض بين يديه ، ولو أمروا أن نصرب صفك بالسيف لعلنا ، فودا كنا هكذا ، كيف يكون غيرنا ؟ فكل من تراه من الأمراء والعساكر . لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا السرو ، وتقبل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقمت فيها ، وإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المنحى ، بأمرك بكتاب مع تحف حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد » وقال للجماعة : قوموا عنا ، فمضى بمالك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد (٣٣٢) ، ولم يكتف والد صلاح الدين بهذا الكلام الذي قاله أمام الجماعة بل أورد ابنه بمثل هذا الكلام ثانية فقال له « ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر ، وكأنا أسلموك إليه (٣٣٣) »

وكان صلاح الدين نفسه يرى أن الطاعة لنور الدين واجبة ولا يجيب إلى محاولة شق عصا تلك الطاعة رغم طول الإلحاح - فيما يبدو - من رجاله

(٣٣١) نور الدين محمود ص ٣٤٣

(٣٣٢) التاريخ الباهر ص ١٥٨ ، ١٥٩ والروصين ج ١ ق ٢ ص ١٩٩

الدين كانوا يلحون عليه في ذلك وهو يخالفهم في الرأي حتى ورد الخبر بوفاء نور الدين ، فقد قال صلاح الدين لمؤرخه بهاء الدين بن شداد بعد وفاة نور الدين برمان « كان ملعاً عن نور الدين أنه قصداً بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكشف ويخالف ، وبشي عصاه ، وبلغ عسكره مصاف برده إذا تحقق قصده ، وكب وحذى أحلامهم ، وأقول لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل لمرارح سيا حتى وصل الخبر بوفاته (٣٣٤) »

٦ - ويتصل بهذا الأمر أمر آخر ، وهو أن صلاح الدين أمر أخاه توران شاه بفتح اليمن لتكون ملجأ له إذا انجبه نور الدين إلى مصر وعمره (٣٣٥) ، ويكذب هذا أن ما فكر فيه صلاح الدين من فتح تم ساء على إذن من نور الدين نفسه (٣٣٦) ، والحق أن اليمن كانت تدين بالولاء للمعاطمين سياسياً ومذهبياً حتى في أحوال أوقات الضعف المعاطمي في مصر ، وهي بذلك تمثل خطراً على صلاح الدين في مصر حيث لا يستعد أن تشارك في إعادة سلطان المعاطمين إلى مصر ، ولهذا كان فتحها ضرورة مذهبية لتأمين الاستقرار السني بمصر حيث بالاستيلاء عليها يتم استئصال حدود المذهب الشيعي من اليمن أكبر مساعد للمعاطمين (٣٣٧)

ومن كل ما تقدم وغيره نشيئ أن العلاقة بين الرجلين كانت علاقة بتسطمها الحب والاحترام ، ومعرفة كل منهما لقدر صاحبه ، وإن شأنا بعض الخلاف في وجهات النظر دون العايات في أكثر من مسألة ، وإن بلاط كلا الرجلين لم يحل من رجال يحاولون بث الشكوك بينهما ، ولكن الرجلين كانا على مستوى الأحداث

(٣٣٤) البوادر السلطانية ص ٢٨ وانظر الروصين ج ١ ق ٢ ص ٥٨١

(٣٣٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٤٤

(٣٣٦) مرجع للكروبي ج ١ ص ٢٢٨ والكمال ج ٩ ص ١٢٢

الفصل الثالث :  
الدور الأيوبي حتى وفاة الصالح إسماعيل  
٥٦٧هـ - ٥٧٧هـ ( ١١٧٢ - ١١٨٢ م )

توفي ذلك العادل نور الدين محمود بدمشق يوم الأربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ ١١٧٤ م ، بعد أن قام بدور كبير في الجهاد ، وكان ملكه قد اتسع اتساعاً عظيماً ، فقد أطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام والديار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر إلى اليمن ، فساروا - ومقدمهم شمس الدولة ابن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وحطت له بالحرمين مكة والمدينة (٣٣٨) ، وهو في نظر أبي المحاسن صاحب الفصل الأول في فتح مصر ، ولولاه ما كان صلاح الدين شيئاً مذكوراً فيقول : « ومصر أيضاً من حملة فتوحاته ، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الآخر والثواب ، ولولاه إيش كان صلاح الدين حتى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عبيد خلفاء مصر وقوة ثوابهم (٣٣٩) »

وكان على صلاح الدين من بعده أن يسير على دبره وقد صار ، وحقق الكثير ، ولو علم نور الدين ماذا ذكر الله تعالى للإسلام من المتوح الخليفة على يدي صلاح الدين من بعده لقرت عينه ، فإنه سى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها (٣٤٠) »

(٣٣٨) التاريخ الجاهل ص ١٦٦ ، وكان نور الدين كما قبل  
مع الخشاعة والخشوع لربه . « ملخص للحروب في الحروب  
للصالح في أخباره شرح ص ٥٥ »

١٢  
١٢  
١٢

على أن طريق صلاح الدين بعد وفاة نور الدين لم يكن طريقاً معروفاً بالشورود ، فقد وقع على كاهله أن يواجه ثلاثة قوى خطيرة هي قوى الرنكبين ، والباطنية والصليبيين ، تلك القوى التي تحالفت ضده لتحول بينه وبين تحقيق ما يريد من الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر ، مما يند الخلفاء الثلاثة جميعاً (٣٤٦)

### صلاح الدين والرنكبيون :-

وبإدراكه بانه مقرر أن سياسة صلاح الدين تجاه الرنكبين كانت تقوم على مريح من السياسة والحرب ليكسب الحولة ضد ورقة نور الدين (٣٤٧)

وقد حط صلاح الدين للملك الصالح إسماعيل الصبي بمصر ، وضرب السكة باسمه فيها (٣٤٨) وكان الصالح إسماعيل تحت وصاية شمس الدين بن المقدم (٣٤٩) ، وقد أرسل صلاح الدين إلى الصالح إسماعيل متظاهراً بالود والاحلاص له - رسائل التعزية التي تبين فداحة الخطب به ويرى أن تستمر سياسة نور الدين التي اتخدها حبال الفرج فقال : « الأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عارماً عليه من قصدهم والكاية فيهم على البدار (٣٥٠) » ، كما حث في رسالة أخرى من وقوع الخلاف نتيجة لوفاة نور الدين فقال : « فانه الله أن تختلف القلوب

(٣٤٩) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ ، ٧٥١

Saunders, A history of Medieval Islam, P 165 (٣٤٧)

الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ ، Brakelman, history of Islamic Peopl, p. 228

وانظر Eny de L'isl, Cart al- Maik al- Sâlih, 14 PP, 114- 115

(٣٤٤) وهو محمد بن عبد الملك بن المقدم ، كان من أكابر أمراء السطائين نور الدين ثم صلاح الدين ، حصر جميع فتوحات صلاح الدين وكان وصياً على الملك الصالح إسماعيل بعد موت والده نور الدين ، مات يوم السبت بمرمسة سنة ٥٨٣ هـ بسبب صدمة سببها من أحد محاليل طائفة من أمراء الخليفة العباسي على أثر خلاف قام بينه وبين طائفة

والأيدي ، فتلع الأعداء مرادها ، وتعدم الأراء رشادها ، ثم يقول : « فكونوا يد واحدة ، وأعصاءاً متساندة ، وقلوباً مجمعة ود ، وسيفها يصمها عمد ، ولا تحتفلوا فتكلموا ، ولا تسارعوا فتعشلوا (٣٤٦) » ، ثم يرى موقفه وموقعه في خطاب ثالث يقول : « الخادم مستمر على بدائه من الاستشراف لأوامرها ، والتعرض لمراسمها ، والرفع لكلماتها ، والإبالة لعسكرها ، والسحق لمحدثاتها في بوطن الأحوال وظواهرها ، ولترقب لأمره فيمثل ، ويكلف فيحتمل ، وأن يرمى به في نحر عدوه فيستد مدجده (٣٤٧)

وكان صلاح الدين كان يطر بعين العيب إلى ما سوف يحدث بعد وفاة نور الدين وولاية الصبي الصغير الصالح إسماعيل :

لقد اجتمع ورثة نور الدين على تشييت دولته ، وعلى تفنيت وحدتها بعد أن أمضى حياته محمداً في سبيل بنائها ، فقد ورثه ابنه الصالح إسماعيل الصبي الصغير في ملك حلب ودمشق ، تحت وصاية الأمير شمس الدين بن محمد عبد الملك المعروف بابن المقدم ، الذي كان رجلاً قبل الكفاية ولعقل (٣٤٨) ، وقد ضرب السكة وأقام الخطبة لنفسه ، في حين رهم سيف الدين علي بن الداية نائب نور الدين محمود في حلب أنه أكبر أمراء نور الدين وأولى بالوصاية على ابنه ، وأرسل يطلب العلام من دمشق

وقد ظهر صوت يتسم بالحكمة في حلال ذلك متمثلاً في كمال الدين محمد الشهروروري الذي أصبح بمشاوره صلاح الدين فيما يجري باعتباره الأقوى سلطاناً استعادة برأيه وتوقياً لخطورته فقال له : « لقد علمتم أن صلاح الدين من ممالك نور الدين وبوانه ، والمصلحة أن مشاوره فيما نفعله ، ولا نخزجه من بينا ، فيخرج عن طاعة الملك الصالح ، ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى

(٣٤٦) من المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٨٧

(٣٤٧) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨

(٣٤٨) من المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨

هو حنيفة الملك الصالح (٣٤٩)، ولكن قوله لم يجد قولاً حيث حشى  
الأمراء أن يدخل صلاح الدين فيخرجهم .

وهكذا لم يتفق الأمراء على موقف موحد من التعاون فيما بينهم ، كما لم  
يتفقوا حتى على موقف موحد يعاون فيه بعضهم بعضاً ضد عدوهم المشترك  
صلاح الدين (٣٥٠)

أما سيف الدين عارى الثانى ابن أحمى نور الدين صاحب الموصل  
الذى سرتبه وفاة نور الدين ، فظهر المصق ، وأمر بإعادة الكوس ،  
وتظاهر بالمكرات (٣٥١)، وأسرع إلى الاستيلاء على نصيبين (٣٥٢)، وبلد  
الحسابور وحران (٣٥٣)، وكذلك الرها والرقه وسروج (٣٥٤)، واستكمل  
ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعفر (٣٥٥)

كذلك ظهرت على المسرح السياسى آنذاك شخصية أخرى هي  
شخصية سعد الدين كمشتكين دردار قلعة الموصل الذى ترك جيش سيف  
الدين عارى ووصل إلى حلب ، واستقر الأمر بينه وبين ابن الداية ، على

(٣٤٩) التاريخ الباهر ص ١٦٢ ومرج الكروب ج ٢ ص ٢

(٣٥٠) مصر والشام والصليبيون ص ١٧١

(٣٥١) مرج الكروب ج ٢ ص ٩

(٣٥٢) مدينة حمص من بلاد الجزيرة على حافة القواس من الموصل إلى الشام ، بينها وبين مسحر  
مسافة مئتين وبينها وبين الموصل ستة أيام - معجم البلدان ج ٥ ص ٢٨٨

(٣٥٣) حران : مدينة قديمة ، نصب ديار مصر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة وحران  
وتقويم البلدان ص ٣٩٤

مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٨٩

(٣٥٤) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر ، بينها وبين البصرة مرحلة في الحبال

مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٧١٠

وتقويم البلدان ص ٢٧٦

(٣٥٥) التاريخ الباهر ص ١٧٥

Broekman History of Islamic people, P. 228

أن يذهب سعد الدين إلى دمشق ، لاستدعاء الملك الصالح اسماعيل .  
وأقع القاشمين بأمر دمشق بما في سمر الصالح اسماعيل إلى حلب مر  
المصالح ، وحمايتها من السقوط في يد صاحب الموصل سيف الدين عارى  
الثانى ، وقد علت يد كمشتكين في حلب بعد وصول الملك لصلاح  
اسماعيل معه ، وتمكن من القصر على ابن الداية وإخوته ، وعلى ابن  
الحشاش رئيس حلب ، وقد قتل ابن الحشاش وأودع القانون جميعاً في حب  
تحت الأرض (٣٥٦).

وأدرك ابن المقدم أن ذهاب الصالح اسماعيل إلى حلب كان مؤامرة  
موجهة ضده فكاتب سيف الدين غازى ليسلم إليه دمشق ، غير أن سوء  
الظن الذى كان يغلب على الأمراء آنذاك ، جعل عارى يخشى أن يكون  
ما أقدم عليه ابن المقدم مكيدة عليه ليعبر العرات إلى دمشق فيسمع عنها ،  
وعندئذ يقصده ابن عمه من وراء ظهره ، فلا يمكنه الثبات  
فيهلك (٣٥٧). وراسل عارى الملك الصالح وأقره على ما بيده ، ومكث  
الملك الصالح بحلب محجوراً عليه تحت يد سعد الدين كمشتكين (٣٥٨)

وأمام هذه التطورات عدل أمراء دمشق موقفهم من صلاح الدين ،  
ودعوه إلى الحضور إلى دمشق لتسلمها ، فادر صلاح الدين إلى ذلك على  
الفور وصار إلى بلاد الشام (٣٥٩).

وقد كان العرج من ناحية أخرى أرادوا استغلال تلك الفرصة التى  
أعقبت وفاة نور الدين ، وما صاحبها من اختلاف في الكلمة ، فحرج  
عمورى ملك بيت المقدس لاسترداد بانياس (٣٦٠) وصمدت المدينة الياسلة

(٣٥٦) التاريخ الباهر ص ١٧٦ والروصتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ والنوافر السلطانية ص ٨١

(٣٥٧) التاريخ الباهر ص ١٧٦

(٣٥٨) من المصدر ص ١٧٦

(٣٥٩) من المصدر ص ١٧٦

Stevenson, The crusaders in The East, p. 213 (٣٦٠)

للحصار مدة أسبوعين في الوقت الذي حرج فيه ابن المقدم على رأس جيشه من الدماشقة دفاعاً عن المدينة (٣٦١)، وكان ما فعله ابن المقدم أن هدد الفرنج بصلاح الدين وحوافهم بقصد صلاح الدين للادهم، وأنه قد عزم عن جهادهم (٣٦٢)، ثم عرض عليهم ترك بانياس في مقابل أموال يحصلون عليها، وأن يطلق لهم أسراهم، ونعت على هذا الأساس المصالحة بينها (٣٦٣).

وعندما بلغت تلك الأنباء صلاح الدين أنكر عليهم ذلك التصرف، واستنصر أمرهم، وعلم صممهم، وحول ذلك إلى خطابات تمتلئ بالتوبيخ واللولم إلى جماعة من الأعيان، وكان من تلك الخطابات خطاب من إنشاء القاضي الفاضل إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عسرون (٣٦٤)، يبين فيه أنه قد اهتم لقصد الفرج لبانياس وأنه خرج لتأديبهم ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤبدة بدل الاسلام من دفع القطيعة، وإطلاق الأسارى ثم قال له «سيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تعتمد له السيوف ونجود، وقام في سبيل الله قيام من يقطر عادية من تعذى وتقر (٣٦٥)»

دمشق من جهة العرب بعيدة إلى الجنوب والصبية اسم لقلعتها وهي من حصون النجعة، وبانياس في لحف جبل النلاج وهو من عليها والتلج عن رأسه كالكمامة لا يفتح منه صبراً ولا شاة  
تقويم البلدان ص ٢٤٨

(٣٦١) Michaud, histoire des croisades, vol 2 P 248

(٣٦٢) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٨٩

(٣٦٣) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٨٩ ومخرج الكروب ج ٢ ص ٧

(٣٦٤) هو أبو سعد عبد الله بن أبي النسر محمد بن عبد الله بن مطهر بن علي بن أبي منصور ابن أبي النسر التميمي الحنطش ثم الموصل، القبة الشافعي القلقب شرف الدين، كان من أعيان الفقهاء، وفضلاء عصره، ومن سار وانتشر ذكره، وتعين بالشام، وتقدم عند نور الدين صاحب الشام، ومنه في المدارس بحسب وجهه ومجلسه وعلمه وغيرها، وتولى القضاء بسجار وعين وحران وغيرها من تيار بكر، ثم عاد إلى دمشق في سنة ٥٧٠ هـ، وتوفي القضاة في سنة ٥٧٣ هـ، ثم عصى في آخر عمره قبل موته بمشتر سير. وفيات الأعيان ج ٣ ص ٥٤

وهكذا بدأ صلاح الدين يعد العدة للتدخل المعنى لوضع حد تلك المهرلة التي أصبحت تعنى بها أملاك نور الدين في بلاد الشام نتيجة لصعب الفاتمين بأمره، واختلاف كلمتهم، وحطط لذلك الأمر تحطيطاً سياسياً نارغاً، فأرسل كتاباً إلى الأوصياء بإشارة القاضي الفاضل وكليلته (٣٦٦) جاء فيه «إن الملك العادل «نور الدين» لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أوبى إلى مثل ثقته بى لسلم إليه مصر، اتى هى أعظم عملك، وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمة سوى، وأراكم قد تفرقتم بخدمة مولاي، واس مولاي دونى، فسوف أصل إلى خدمته، وأجزي إيعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقبل كلاً منكم على سوء صبيعه، وإهمال أمر الملك لصالح، ومصلحه، حتى أخذت بلاده (٣٦٧)»

وكذلك أرسل صلاح الدين إلى الخلفاء في بغداد بصوراً لها «موقف فقال «وتوافقت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتورعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع إليه طلب، والفرج قد سوا قلاعاً يتجمعون بها الأطراف الإسلامية، ويصابقون بها البلاد الشامية، وأمرأة الدولة النورية قد سجن كبارهم، وعوقبوا وصودروا، والممالك الأعماح الدين خدموا الأطراف لا الصدور، وجعلوا للقيام لا للعود في المجلس المحصور، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالسكر والهي عن المعروف، وكل واحد يتحد عند الفرج بدا، ويجعلهم لظهوره مسداً، وعندما أن البيت المقدس لم ييسر إن لم تيسر الأسباب لفتحها، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم لقلعه، ولا ست عروقه وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، ونقطع المعارة وكلال الدواب التي بها عن الجهاد العوة، وإذا حاورناه كانت المصلحة نادية، والمصلحة

(٣٦٦) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٣

(٣٦٧) الروصتين ج ١ ق ٢ ص ٩٠

جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والعروة محكمة ثم يقول : والمراد الآن هو كل مبقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويصمم الرافة ، ويفتح بنية البلاد ، وأن يطلق بالاسم العباسي كل مناطقهم المعاهد ، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والعرب والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يمنحه الله تعالى لدولة العباسية بسيفنا ، وسيف عساكرنا (٣٦٨) .

وهكذا ظهر صلاح الدين بمظهر المدافع عن حوزة الاسلام وعن مولا ابن مولا لدى الأمراء والأوصياء والعلماء والعقهاء والخلافة ، وأمام الرأي العام (٣٦٩) .

وعن الحملة ، كان المسرح السياسي آنذاك قد تمهيا لاستقبال صلاح الدين ، ولذلك فإنه عندما استدعاه ابن المقدم وأمراء دمشق - كما أشرنا - إلى التقدم إلى دمشق وتسليمها نعد أن أدركوا حرج موقف دمشق وأنها باتت في خطر ، وحشوا أن يقصدهم سعد الدين والملوك الصالح ، وأن يعاملهم سعد الدين بما عامل به بني الداية لاسيما وأن سيف الدين عازى الثاني لم يجهم إلى طلبهم باستلام دمشق منهم (٣٧٠) - « طار صلاح الدين إليهم (٣٧١) » .

### توجه صلاح الدين إلى دمشق :-

كان صلاح الدين قد تحلّص من متاعبه الداخلية ، وقرّر قواعد دولته الحربية في البر والبحر ، وذلك قبل نهاية سنة ٥٦٩ هـ (٣٧٢) ، وأصبح في استطاعته بسط سلطانه على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ليخلق دولة سورية مصرية إسلامية موحدة ، وذلك حتى يواجه المسلمون قوى الفرنج

(٣٦٨) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٢٢ ، ٦٢٣

(٣٦٩) مصر والشام والصليبيون ص ١٢١ و Lane-Poole, Saladin, P 137

(٣٧٠) التكميل ج ٩ ص ١٣١ وانظر التاريخ الباهر ص ١٧٦

(٣٧١) حقائق الأنس ج ٢ ص ١٥٢

صفاً واحداً مترافاً (٣٧٣) ، وقد صرح صلاح الدين بذلك لدى حروجه إلى بلاد الشام حيث قال : إن مؤثر للاسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم (٣٧٤) .

وقد دخل صلاح الدين دمشق ، فاستقبل فيها استقبالاً حسناً ، وقضى الليلة التي وصل فيها في دار أبيه المعروفة بالمعفي ، وفي الصباح سلم من دمشق من الأمراء المدينة إليه كما تسلم قديمتها (٣٧٥) ، واستقر صلاح الدين بدمشق دون أن تنشق عليه عصا (٣٧٦) ؛ وقد قبل صلاح الدين أهل دمشق بشر الدراهم والدينار عليهم ، وأظهر صلاح الدين ولاءه للملك الصالح إسماعيل فلم يقع حطته وقال : « إني إنما جئت لأحدم مولاى وابن مولاى ، وأسترد له بلاده التي أحدها ابن عمه (٣٧٧) » كما أنه جاء ليحفظ ماله من المصالح وتدير ملكه ، فهو أحق بصيانة حقه (٣٧٨) .

ومنذ أول يوم وطئت فيه قدما صلاح الدين دمشق كان قد حدد أهدافه من وراء ذلك في أمرين هما : استرداد أملاك الملك الصالح التي استولى عليها سيف الدين عازى الثاني أثناءك الموصل في الحرية ، وجهاد الفرنج لتحرير الأرض وقد باذر صلاح الدين بتعبيد سياسته حتى يعيد الحياة الإسلامية المتحدة إلى مناطق عهدها ، بحيث تمتد من شمال العراق إلى الشام فمصر (٣٧٩) .

وكان صلاح الدين يعتمد إلى حد بعيد على الرأي العام في تأييده ، وتأييد تحركاته ، وفي سبيل الفور بذلك التأييد « شر علم العدل

(٣٧٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١٢

(٣٧٤) معراج الكروب ج ٢ ص ١٨

(٣٧٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٦

(٣٧٦) القواعد السلطانية ص ٨٢

(٣٧٧) التاريخ الناصر ص ١٧٧

(٣٧٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٢

والاحسان ، وعفى آثار العظم والمدون ، وأعطى ماكن الولاية ستحدوه  
من القبايح والمنكرات ، والمؤن والصرائب والمحرمات (٣٨٠)

على أن استيلاء صلاح الدين على دمشق قد ساء من محلب : الملك  
الناصر وسعد الدين كمشتكين وغيرهما ، فأرسلوا إلى صلاح الدين قطب  
الدين يبال بن حسب يحمل رساله تمثله بالتهديد والتحذير قالوا له فيها

« هذه اسيفوف التي ملكتك مصر بأيدىنا ، والرمح التي حوت بها قصور  
المصريين على أكفنا ، والرحال التي ردت عليك تلك العساكر هي تردك ،  
وعما تصذيت له تصدك ، وأنت فقد تعديت طورك ، وتجوزت حدك ،  
وأنت أخذت علمان نور الدين ، ومن يجب عليه حفظه في ولده (٣٨١) ، وقد  
قابل صلاح الدين ابن حسان هذا بعد وصوله بثلاثة أيام ، وصرى صمحا  
عما يجعله من تهدد ، وأجبه بقوله « يا هذا ، اعلم أسى وصلت إلى  
الشام جمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد  
الثغور ، وتربية ولد مور الدين ، وكف عادية المعتدين (٣٨٢) ، ونطاول ابن  
حسان عليه ، وردد وجهة نظر أمراء حلب حيث قال : « إنك إنما وردت  
لأحد الملك لعك ، ونحن لانطاولك على ذلك ، ودون ماترومه حرط  
القتاد ، وهت الأكاد ، وابنام الأولاد (٣٨٣) »

وهكذا تددت نبات القائمين على الأمور في حلب ، وأهرك صلاح الدين

ألا مناص من خوض القتال

وقد بدأ صلاح الدين بقصد الشام الأسفل ، وتوجه إلى حصص فأخذها  
في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ / ١٠ ديسمبر ١١٧٤م ، ولم يشتغل  
بقلعتها (٣٨٤) التي امتنعت عليه ، وتركها إلى حين ، ثم توجه بعد ذلك إلى

(٣٨٠) الروصيرج ١ في ٢ ص ٦٠٥

(٣٨١) الروصيرج ١ في ٢ ص ٦٠٧

(٣٨٢) من المصنوع ١ في ٢ ص ٦٠٧

(٣٨٣) من المصنوع ١ في ٢ ص ٦٠٧

مدينة حماه فملكها في جمادى الآخرة (٣٨٥) ، ومنها أرسل صاحبها حرديك  
رسولاً إليه وبين من بحلب ، فقص عليه أصحابها ووضعوه في الحب مع  
بنى الداية (٣٨٦)

توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى حلب ، وحصرها في ٣ جمادى الآخرة  
سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فرحل عنها إلى حماه ،  
ثم إلى حصص التي كان الفرنج حاصروها ساء على استعانة أصحاب حلب  
بهم ، فرحلوا عنها ، وتمكن صلاح الدين من احتلال قلعة حصص التي  
كانت قد استعصت عليه وذلك في ٢١ شعبان ، ثم استولى على بعلبك  
بعد تأمين واليها وأهله ، وبذلك « صار أكثر الشام بيده (٣٨٧) »

وقد استشعر الرنكبون خطر صلاح الدين عليهم ، وكان لابد أن  
يتحدوا في مواجهة ذلك الخطر ، فأرسلوا سيف الدين عارز الثاني  
يستجدونه على صلاح الدين ، وأراد سيف الدين عارز أن حشد تحت  
جنوده ، وحمود أخيه عماد الدين ركني الثاني صاحب مسحار ، ونكر عماد  
الدين رفض التعاون مع أخيه ، حيث كان صلاح الدين أطمعه في ملك  
لأنه هو الأخ الأكبر (٣٨٨) . فأرسل سيف الدين عارز جيشاً مؤلفة  
اخليين ، في حين سار في جيش آخر لحرب أخيه ، وتمكن صلاح الدين  
من هزيمة الجيش الخليي والجيش الموصل الذي جاء لشدته وحزرت  
مفاوضات بين صلاح الدين وسيف الدين عارز ولكنها وصلت في طريق  
مسدود ، وأرسل سيف الدين عارز جيشاً قوياً مع أخيه عماد الدين ركني  
لمؤازرة الجيش الخليي في حربه مع صلاح الدين ورحف جيش الحشد على  
حماه ، ورأى صلاح الدين أن يقع في هذه المرحبة بامتلاك دمشق ، متمم

(٣٨٥) الكامل ج ٩ ص ١٣٢

(٣٨٦) الروصيرج ١ في ٢ ص ٦٠٨

فيها إلى الملك الصالح إسماعيل (٣٨٩)، فراسل سيف الدين عاردي يعرض له التنازل عن حمص وحماه، ورأى سيف الدين عاردي في عرض صلاح الدين فرصة لفرض شروطه وقال له: «لا بد من تسليم جميع ماأحد من بلاد الشام والموعد إلى مصر» (٣٩٠)، وكان الغطاء يجرى إلى أمور وهم لا يشعرون (٣٩١)، ودارت رحى معركة طاحنة عند قرون حماه (٣٩٢) في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، ولم يستطع جيش الحلفاء الوقوف في وجه صلاح الدين وهزم لابلوى أخ: «على أخيه» (٣٩٣)، وكان من أسباب الهزيمة جهل عر الدين أحمى سيف الدين بفنون القتال (٣٩٤)، وكسب صلاح الدين في هذه المعركة عاثم كثيرة فإذا أصعبا إلى ذلك في هذه المرحلة كسب صلاح الدين للرأى العام الشامي الذي بدأ يرى فيه رجلا يعمل لصالح المسلمين، وجمع كلمتهم، وذلك حين أرسل معونه جريدك إلى الحلبيين فاعتقلوه، وألقوه في الحب، وكذلك حين عرض التنازل لهم عما وراء دمشق، وكان الرأى العام يرقب تلك لتطورات بيقظة تامة، مؤيدا صلاح الدين في كل خطواته (٣٩٥).

هذا، وقد تنع صلاح الدين للمهمين في أبواب حلب، وحاصره فيها، وبدأ يعيد حساباته، ووجد أن الموقف في صالحه أمام لرأى العام

(٣٨٩) مخرج الكروب ج ٢ ص ٩٢ والكامل ج ٩ ص ١٣٣

(٣٩٠) الموارد السلطانية ص ٨٣ والكامل ج ٩ ص ١٣٣

(٣٩١) الموارد السلطانية ص ٨٣

(٣٩٢) قرون حماه: مدينة كبيرة بسوريا على جانب نهر العاصي بما لفتة حصينة  
الوارد السلطانية ص ٨٣ حاشية ١

(٣٩٣) الموارد السلطانية ص ٨٣ والكامل ج ٩ ص ١٣٣

(٣٩٤) ويروي ابن الأثير أنه لم يثبت خبر عر الدين هذا بعد انهزام أصحابه، فقال صلاح الدين: «إما أن هذا أشجع الناس، أو أنه لا يعرف الحرب، ولما أصعبه بالحيلة عليه عجزوا، فزالوا عن موضعه، وتمت الهزيمة»

الكامل ج ٩ ص ١٣٣

الشامي، وأمام الخلافة نفسها، التي كان يطالها بحطواته أولا بأول، فأقدم على خطوة حاسمة حيث قطع خطبة الملك الصالح، وأزال اسمه عن السكة في بلاده (٣٩٦)، واسقط في أيدي الحلبيين المحاصرين، فراسلوه في طلب الصلح على أن يكون له مايبده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، فوافق صلاح الدين على ذلك الصلح، الذي تضمن كذلك أن تساعد حلب صلاح الدين في وقت الخطر ضد الفرنجة العدو المشترك وألا يغير صلاح الدين الدعاء للملك الصالح على جميع منابر البلاد التي تحت يده، وأن تكون السكة باسمه (٣٩٧).

ورحل صلاح الدين عن حلب في العشر الأول من شوال سنة ٥٧٠ هـ ووصل إلى حماه، وفيها وصلت إليه خلع الخليفة العباسي المستنصر بالله برسله: «ومعهم التشرifications الحليلة والأعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام» (٣٩٨)، وذلك في ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ (٣٩٩).

وهكذا يكشف انتصار صلاح الدين في قرون حماه الغياب عن حقيقة

(٣٩٦) الكامل ج ٩ ص ١٣٣

(٣٩٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٣٩

(٣٩٨) نفس المصروح ج ١ ق ٢ ص ٦٣٩ وتاريخ الحروب الصليبية / رسياد ج ٣ ص ٦٥٨  
جوانفر

Grousset, Histoire des croisades. T 2, PP 760-761.

Lone-Poole, Saladin, P 181

وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلي

وياليا الملك الحريز فضله  
كفى أسير المؤمنين قرفاً  
طرحك الرد على شطط السوى  
فكنت ذاك الصديق الرغيا  
أولاك من لسانه زعرقه  
لم يرقا قبلك أنسا  
نابست الروض سنا ورجعة  
حتى حكته روضاً وريا

الروضة ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠



موقعه (٤٠١) عن أن الموصل التي اسهرم جيشها مع المهرمين ولتى كانت معبدة عن سهام صلاح الدين أمث الاعتراف بالصلح الذي وقعه الخليويون الدين كونا في أخرج موافقهم ، وجمع سيف الدين عازى الثانى جيشاً ضخماً من بلاد الحريرة وديار بكر ، وانضم إليهم كمشنكيين بقواته الخلية ، ناقصاً بذلك المعاهدة التي لم يكن مذاها قد جف بعد (٤٠١) وقد تكون لهم جيش من أكثر من عشرين ألف فارس ، وقد استعزفت تدث التبعة منهم وقتاً طويلاً ، أتاح لصلاح الدين الفرصة حتى وصلته بحدة مصرية من أحبه العادل وقد وصف اس شداد حالة الاستعداد على الجانبين فقال : « والسultan قد أنصد في طلب العساكر من مصر ، وهو يترقب وصوله ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدبيرهم ، وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً حتى وصل عسكر مصر » (٤٠٢)

ثم كان اللقاء بين صلاح الدين ، وأعدائه المتحالفين في ١٠ شوال سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م ، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين كانت أقوى من اللقاء الأول ، ونمت الهزيمة على جيش المتحالفين (٤٠٣) ، وأصيب بحسائر فادحة ، وقد فر سيف الدين عازى الثانى من ميدان المعركة ، محملاً وراءه حتى متعلقاته الخاصة التي اتخذها صلاح الدين وسبياً للتشيع عليه ، فأرى الناس بيت شرابه ، وسراجه الخاص ، وما كان به من آلات الصيد والطرب والخمور ، والحواري والمحظيات ، والمصير والمعيات ، وقد أرسل صلاح الدين إلى سيف الدين غارى بأفصاص طوره المردة ، وأرسل إليه يقول : « عد إلى اللعب هذه

(٤٠٠) الحركة المصيبة ج ٢ ص ٧٤٦

(٤٠١) مصر والشام والمصريون ص ١٢٧

(٤٠٢) الطوادر السلطانية ص ٨٥ وروايه صاحب الروصين : « وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً »

الروصين ج ١ و ٢ ص ٢٥٠

الطيور ، فإنها أنزمن مفاصة الحرب » (٤٠٤) ومرة أخرى لم يقتصر النصر على ميدان الحرب بل تعداه إلى الرأى العام الشاسع الذى هاله مارأى من انحراف القادة المناوئين لصلاح الدين ، وماهم غارقون فيه من الضلالات ، وتزايد التعاف الناس حوله ، وأيده العلماء في جهوده (٤٠٥)

ثم إن صلاح الدين سار إلى بزاغة (٤٠٦) ، فاستولى عليها ، كما استولى على مدينة مسج (٤٠٧) وقلعتها بعد طول مقاومة من صاحبها قطب الدين يتال بن حسان وقد أسر صلاح الدين يتال بن حسان ثم أطلقه (٤٠٨) ، ثم استولى على قلعة عزاز (٤٠٩) في ٤ ذى القعدة ، وكانت من أمنع القلاع وأحصنها (٤١٠) ، وكانت عزاز تمثل خطورة على صلاح الدين حيث كانت قاعدة لتجميع الجيوش المتحالفة من عسكر حلب وفرنح أنطاكية (٤١١)

(٤٠٤) الروصين ج ١ و ٢ ص ٦٥١ ، ٦٥٢

(٤٠٥) مصر والشام والمصريون ص ١٢٨

(٤٠٦) بلدة من أعمال حلب في وادي طنان بين مسج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة

مجمع البلدان ص ١٠٩

وهي طيبة الثرى واسعة الدر ، تحصر من اللد وتكر من القرى ، وفي أحلامها قلعة كبيرة حصينة

رحلة ابن جبير / تحقيق نصر ص ٢٣٧

وانظر الدر المنتخب ص ٤٧

(٤٠٧) مسج إحدى بلاد الشام ، وهي في بيرة ، وهي حصينة كثيرة الفس ، ويحيط بها سور حديق تحت العلية والانتواء ، وفيها قلعة حصينة في جوفها تفتح عنها وتحتار منها رحلة ابن جبير / تحقيق نصر ص ٢٣٧ وتقويم البلدان ص ٢٧٠

(٤٠٨) الطوادر السلطانية ص ٨٧ والكمال ج ٩ ص ١٣٧ . وكان يتال بن حسان هذا شديد البغض لصلاح الدين المحتصر ج ٣ ص ٥٨

(٤٠٩) بلدة فيها قلعة وفارستاق شمللى حلب ، بينها يوم ، وكانت قديماً تعرف بقل عزاز الدر المنتخب ص ١٦٨ ومرامد الاطلاع ج ٢ ص ٩٣٧

(٤١٠) للمحصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٨ وقره جلى ص ٢٤١

Leop. Brucke, Seleucia, B. 211, (٤١١)

ومثل ذلك قطع الجوار بين الفرنج والحلبيين ثم تقدم صلاح الدين إلى حلب لفتحها ، وطرد الأمراء المتآمرين منها ، وإصلاح قادة نور الدين الذين كانوا قد أودعوا المعتقلات ، وتم له حصار حلب في منتصف ذي الحجة (١١٧) ، وقارب صلاح الدين الاستيلاء عليها ، وأدرك الحلبيون أن المدينة على وشك السقوط ، فلجأوا إلى حيلة علها تنجيهم ، ولعلمهم أرادوا أن يكسبوا جولة واحدة أمام الرأي العام فأخرجوا رسولا منهم إلى صلاح الدين إنة لنور الدين محمود صغيرة تسمى الخاتون (١١٧) تطلب منه الكف عن محاربة حلب ، وأن يبني قلعة عرازه وكانوا قد علموها ذلك ، فسلمها إليهم (١١٨) ، ونجح صلاح الدين أمام الرأي العام مرة أخرى حينما رعى ما كان لنور الدين في عنقه .

وتم الصلح مع الملك الصالح على أن له ( أى صلاح الدين ) من حماه ومافتحه إلى مصر ، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية (١١٩) ، وكان الصلح عاما لهم وللمواصله وأهل ديار بكر وكتب في نسخة اليمين أنه : « إذا حذر منهم واحد وحالف ، ولم يف بيا عليه وحالف ، كان الباقيون عليه يدا واحدة وعزيمة متعاقدة ، حتى يمي إلى الوفاء والوفاء ، ويرجع إلى مراقبة الرفاق » (١٢٠) .

ولترك الآن هذه الجبهة التي أثبت فيها صلاح الدين كفاءته وتفوقه على الزنكيين سياسياً ودعائياً وحربياً ، حتى وقف على أبواب حلب ، لترى ماذا كان موقف الباطنية والفرنج معه ، وموقفه منهم في هذه المرحلة .

(١١٧) المختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٥٨

(١١٧) الروستون ج ١ ق ٢ ص ٦٩٩

(١١٤) الكامل ج ٩ ص ١٣٧ والمختصر ج ٣ ص ٥٨

(١١٥) الروستون ج ١ ق ٢ ص ٦٩٩

(١١٦) من المصداق ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ وديسان ج ٣ ص ٦٦٠

### صلاح الدين والباطنية (١١٧) :-

وأول راجع عن نشاطهم أن عبارة اليمن ورفاقه ، اتصلوا بهم عقب إعلان سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وكانوا ستاناً (١١٨) صاحب الحشيشية (١١٩) ليدير كمينا لاغتيال صلاح الدين على يد بعض الفدائية (١٢٠) سواء في الشام أو في مصر ووعدوه بالمسح والعطايا

(١١٧) وهم من خلافة الشيعة ، وأعطى طوائفهم طائفة الحشيشية ، وفي ذلك الوقت كانوا يسيطرون على عدة فلاح حصية ، فيها كل وسائل الراحة والرفاهية ، وقد صار ينزلها على رؤوس الجبال بحيث لم تزل تحتها الفلاحية قوة على قوة ، وكان رعيهم يسكن قصر الكهف ، وكانوا يسمونه الشيخ

قلعة الثور ص ١٦٦ ولويس التاسع في الشرق الأوسط ص ٢٠٩ وقسم ابن ميسر الاسماعيلية إلى أقسام الدين بالشام منهم يقال لهم « الحشيشية » ومن كان يملكون يقال لهم الباطنية وللأخوة ، ومن كان بحرمان يقال لهم « التعلبية » ، وكلهم إسماعيلية . أخبار مصر ج ٢ ص ٦٨

(١١٨) وبصده المقرري أنه : صاحب فلاح الاسماعيلية ، ومنظم الطائفة الباطنية ، وإليه نسب الطائفة السنانية ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٢

ووصفه ابن جبير الذي جاز بفلاح الحشيشية بأنه : شيطان من الانس يعرف بسان ، خدعهم بأباطيل خيالات ، وودع صبيهم باستعبادها ، وسحرهم بمحافلها ، فالتقوه إذ يعلونه ، ويملكون الانس دونه ، وحصلوا من طاعته ولشأن امره بحيث يمر أحدهم بالترى من شائعة جبل ليرتدى ، ويستجبل في مرصاته الرعى

رحلة ابن جبير / تحقيق مصطفى ص ١٢٣

(١١٩) وذلك لدأبهم على تدخين الحشيش لومضته

خلاصة تاريخ العرب / صليبي ص ١٢٨

وانظر Kerr, The crusades, Bernard Louis, The arabe in history P 149

(١٢٠) وقد وصف الرحالة ماركبولو الذي مر ببلوت صها في سنة ١٢٧١ م كيف كان رعيهم الاسماعيلية بعد أتباعه ليطلب منهم بعد ذلك ما شئهم حيث يجدهم بمادة الحشيش ثم يحملهم إلى حديقة في جماعات صغيرة ، فإذا ما أحرقوا احتشدوا لهم في جنة العروس ، فإذا ما أحرقوا احتشدوا في لدرته ، ويقفون في خدمته وطاعته

الجزيرة (١٢١)، وقد كان القتل بالسنة للحشيشية امتداداً لتحركهم السياسي حيث يتولون اغتيال من يقع عليهم احتياهم العادر (١٢٢)، وكان هذاؤهم للمسلمين أكثر من عدائهم للفرنج، على أساس أنهم يحاربون أهل السنة نيابة عنهم (١٢٣).

ومن الثابت أن الساطية فرعوا لقوط الخلافة العاطمية، وانتصار المذهب السني في مصر، وأحسوا بالخطر الذي تهددهم بالشام (١٢٤)، ولذلك أرادوا إجراء تحالف بينهم بين الفرنج بعد أن اعتقدوا أنهم أقل خطراً عليهم وعلى كيانه من نور الدين محمود (١٢٥). وأرسل راشد الدين سان يرسله من أجل ذلك، ويقال إنه عرض فيه على حمورى رغبته في التحول إلى المسيحية، وإن كان تصديق ذلك بعيد (١٢٦) وفي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م تأمر أصحاب حلب مع الساطية على صلاح الدين (١٢٧) بعد أن استولى صلاح الدين على حمص وحماه، ووقف على مشارف مدينة حلب، فراسلوا ساناً زعيم الحشيشية، وعيّنوا للساطية

The Legacy of persia, P. 85 (١٢١)

(١٢٢) الفتوة البورية ص ١٠٠ و ١٠١ وانظر

Bernard Louis, The arabe in history P 149

Michaud, histoire des croisades P 310

Michaud, histoire des croisades, P 329 (١٢٣)

(١٢٤) تاريخ الحروب الصليبية / رسيان ج ٣ ص ٦٤١ وتراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٥٩

(١٢٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٣٢

(١٢٦) رسيان ج ٣ ص ٦٤١ والحركة الصليبية ج ٢ ص ٤٣٧

(١٢٧) وقد يبدو هريباً أن الوحيد الذي أبقى عليه الحشيشية هو ريشارد قلب الأسد، وذلك لأنهم رغبوا عن تليل الحبة أمام منافعهم صلاح الدين

Bernard Lolo The arabe in history, P. 149

بل يقال انها قتلت كوبرلا في مونتفرات بشعرى ريشارد قلب الأسد في سنة ٥٨٨

صياحاً، ويدلواهم من الذلول أنواعاً (١٢٨). فأرسل سان حاجة من العداوة المشهورين مفتكهم، وشاء عظمهم العائر أن يوجد في عسكر صلاح الدين الأمير ماصح الدين خاتركين صاحب قلعة بوقيس (١٢٩) الذي تعرف عليه لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم (١٣٠)، فعرض لهم مقتلهم، وألحقوا بالحراج من حول الدفاع عنه، ثم جرى أحدهم إلى حيث صلاح الدين مزماً قتله، شاعرا سكينه، ولكن أحد رجال صلاح الدين، وهو طفريل أمير جاندار احتفظ بشاته، ورباطة جأشه، والرجل يتقدم إلى صلاح الدين، فأطاح بسيفه رقبته، وهكذا أنقذ صلاح الدين من خطر ذلك الباطس، أما بقية زملائه من الباطية فقد بشروا الذعر في عسكر صلاح الدين، وقتلوا بعضاً منهم، حتى تم قتلهم في النهاية (١٣١).

ولم يقف نشاط الساطية ضد صلاح الدين عند محاولة قتله على حلب سنة ٥٧٠هـ فتكررت المحاولة في سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م في الحادى عشر من ذى القعدة، وكان ذلك بناءً على تأمر أصحاب حلب معهم مرة ثانية حيث كتبوا إلى سان يرعونهم بالأموال، ويدلواهم له الوعود حتى يرسل من يفتك بصلاح الدين (١٣٢) أثناء حصاره لقلعة حراز، وقد استجاب سان لهذا الطلب، وسلك هذه المرة مسلكاً أكثر حيلة مما سلكه في محاولته الأولى (١٣٣) فأرسل بعض العداوة في رى الحدود المصرية، وهكذا تيسر

(١٢٨) الروصين ج ١ ق ٢ ص ٦١٣ وانظر

Brokeman, history of Islamic Peopel, P 226

(١٢٩) حصن بديل قلعة شير

(١٣٠) الكمل ج ٩ ص ١٣٢

(١٣١) الروصين ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ و رسيان ج ٣ ص ٣٥٧ والتاريخ المحرر لصلاح الدين ص ٦١ - ٦٣

وتراجم اسلامية ص ٥٩

(١٣٢) الروصين ج ١ ق ٢ ص ٦٥٩

هم الاندلس في صفوف المقاتلين ، وإمعاناً في تحايلهم حتى لا يكشف أمرهم ، حاربوا مع جند صلاح الدين وأحسوا البلاء في صرب أعدائه ، وصاروا يترقبون الفرصة للفتك به (١٢٤٦) . ولاحق لهم تلك الفرصة عندما توجه صلاح الدين إلى حيمة الأمير حاولي الأسدي « لشاهدة الآلات ، وترتيب المهات ، وحصن الرجال ، والحث على القتال » (١٢٤٧) وبينما صلاح الدين في وسط رجاله وجسوده ، قفر أحدهم عليه ، وضربه في رأسه بسكبه ، ولكن السكين لم تؤثر في رأسه بفصل الررد الذي كان صلاح الدين يحيط به قلنسوته - حيث كان صلاح الدين يفعل ذلك خوفاً من الباطنية بعد نوبة حلب (١٢٤٦) ، فقد منعت صفائح الحديد المدهونة في لثة من تمكيه ، ومع ذلك فإن السكين حدثت حدة ، وتمكن صلاح الدين منه وجذبه إليه وسرك فوقه حتى أناه سيف الدين ياركوج فقط رأسه الحشيشي ، وكانت المؤامرة هذه المرة متكاملة بحيث إذا فشل حشيشي نلاء آخر ، ولذلك فإن حشيشياً آخر توجه نحو صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلا من التقدم نحو صلاح الدين ، وتمكن الحشيشي من إصابته إصابة في حبه مات منها بعد أيام ، وعندما فشل ذلك الثاني تقدم ثالث فقص عليه الأمير علي بن أبي العوارس ، وشل حركته من حلف ، ونادى على من تولى قتله وقال : « اقتلوه ، واقتلوني معه » فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه ، فطعن بطن الباطني سيفه « ومارال بمحضه فيه حتى سقط ميتاً » ، ونجا ابن أبي العوارس (١٢٤٧) ، أماراعهم فقد يش بعد محاولة من سبقوه ، وفصل المرار ، وخرج ناشراً سكيه في وجه كل من يقترب منه حتى تمكن منه بعض أصحاب الأمير شهاب الدين محمود خال صلاح الدين وقطعوه بسيوفهم (١٢٤٨) .

(١٢٤١) الروصين ج ١ ق ٢ ٦٦٠ تراجم إسلامية ص ٥٩

(١٢٤٥) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٥٨

(١٢٤٦) قلعة اللوت ص ١٦٥

(١٢٤٧) الروصين ج ١ ق ٢ ٦٦٠

هكذا نجا صلاح الدين بأعجوبة من تلك المؤامرة الأربعة (١٢٤٩) ، وهو لا يكد يصدق ، وكان لهذا الحادث الثاني من الباطنية ضد صلاح الدين أثره عليه ، وعلى جنده ، فبدأ السلطان يحتاط لنفسه ، ويحصن خيمته ، وينصب له في وسط سرادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه ويسام ، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه (١٢٥٠) ، بل يبدو أن ثمة بلبلة سرت في صفوف الجند بشأن حياته ، مما دفعه إلى أن يركب ليشاهدوه ، فسكن العسكر ، وعاد إلى خيمته (١٢٥١) ، وانهار بذلك مشروع سان وحلفائه مرة أخرى (١٢٥٢) .

وتعدت الاشاعات حدود الشام - إلى مصر مما دفع صلاح الدين إلى الكتابة إلى أخيه العادل بآتيه في مصر يطمئنه على سلامته ، ويأمره بمعاملة مروجي تلك الاشاعات بالخزم والشدة ، حتى لا تنجح الفرصة للإسماعيلية في مصر للقيام بثورة (١٢٥٣) ، وجاء في كتابه إلى العادل : « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الماصري حاصلة ، ولم ينل من الحشيشي الملعون - إلا خدش ، قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندمعت لساعتها ، والركوب حل رسنه ، والحصار لعزار على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرأ ، ولا ما يشغل سرأ » (١٢٥٤) .

وكان الاعتداء على صلاح الدين نذيراً له بما يمكن أن يجيق به ويدلته من خطر الباطنية ومؤامراتهم (١٢٥٥) ، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق

(١٢٤٩) التلويح الحربي في عهد صلاح الدين ص ٧٥

(١٢٥٠) الروصين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠

(١٢٥١) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠

(١٢٥٢) تراجم إسلامية ص ٦٠

(١٢٥٣) التلويح الحربي في عهد صلاح الدين ص ٧٦

(١٢٥٤) نفس المصدر ص ٧٦ والروصين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠

(١٢٥٥) تراجم إسلامية ص ٦٠

نعودهم ، هسار إليهم في العام التالي ٥٧٢هـ ، وحاصر مصياف أمع قلاعهم والتي فيها مركز زعامتهم ، ونصب على الحصن محانيقه ، وتمكن من قتل عدد كبير منهم ، وأسر عدداً آخر ، كما صافى أبقاؤهم ، وحرّب ديرهم مما أخاهم إلى تشجيع حال صلاح الدين شهاب الدين محمود ابن تكش صاحب حماه فيهم لديه ، بحكم الخبرة بينهم وبين شهاب الدين فشجع فيهم ، وقل صلاح الدين شعاعته بعد أن قدم بتأديبهم ، وكان السلطان قد رأى أن الفرنج قد يستعملون انتعاده عن الشام الأعلى فيهاهموه أو يظفروا منه بظايل<sup>(١١٦)</sup>

وقيل ، إن شعاعة حال صلاح الدين في الباطنية كانت نتيجة تهديد من سان الذي أرسل إليه ، إن لم تفعل قتلك وجميع أهل صلاح الدين فشجع فيهم ، وسأل الصلح عنهم<sup>(١١٧)</sup> .

كما يروى رسيان أن ساناً لم يكن موجوداً لدى مهاجمه صلاح الدين لخصر مصياف ولكنه عجل بالعودة ، ومذكر أنه كان بوسع عساكر رجال صلاح الدين أسره لولا أن قوة حمة تطوى على شيء من السحر معنتهم من ذلك ، وأن الأحلام المزعجة كانت تنتاب صلاح الدين كما أنه عثر في فراشه عسداً هب فجأة على كعك ساحر ، من نوع لا يجيزه إلا الحشيشية ، كما وجد حجراً مسموماً ، وفصاصة ورق بها أشعار تطوى على التهديد والوعيد ، وأن صلاح الدين اعتقد أن ساناً نفسه هو الذي كان بخيمته ، وأن صلاح الدين إهارت أعصابه ، وأرسل إلى سان يطلب منه أن يفقر له ذنوبه مع الوعد بالأبتعرض للحشيشية بأذى مقبل بذل الأمان له ، فعما عنه شيخ الجبل<sup>(١١٨)</sup> .

ومثل ذلك لا يمكن تصديقه ، ولا يتفق مع شخصية صلاح الدين ،

ولو تيسرت مثل تلك الفرصة لشيخ الجبل أو أحد أتباعه ما تردد لحظة في الفتك بصلاح الدين بدلاً من أن يحلف له كعكاً وأشعاراً تطوى على التهديد

والحق أن صلاح الدين اكتمى بها حقه في قلاع الاسماعيلية ، ورأى أن القضاء النام على مثل هؤلاء القوم قد يتطلب وقتاً أطول هو بلا شك وصالح الفرنج الذين يستعملون انشغال صلاح الدين بقتال الحشيشية وبعده عن الشام الأعلى ، فيصولون فيه ويجولون ، وقد كانت الأحبار وصلت فعلاً أثناء حصار صلاح الدين لخصر مصياف يحدث ذلك فعلاً حيث أعار الفرنج على جهة الدفاع الواقعة بين دمشق وعلبك وتصدى لهم الأمير محمد بن المقدم وإلى علبك وأسير منهم مائتي أسير أحصرهم إلى صلاح الدين ، وهو على حصار مصياف<sup>(١١٩)</sup> .

وقد كان للسلطان الظاهر بيبرس فيها بعد الفصل في القضاء على نمود تلك لطائفه حيث سبر إليهم حملة مصرية في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م حاصرت قلاعهم ، وافتحمت قلعة مصياف أمع حصونهم ومقر زعامتهم ، وحررت قلاعهم ، ومزقت قواهم كل ممزق ، وبذلك إهات نفوذهم في الشام ، كما إهات في فارس قبل ذلك بقليل .

واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطيرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالخرائب والمؤمرات<sup>(١٢٠)</sup> ، وقد نحل الحشيشيون في عهد بيبرس عن قلاعهم ليقطعهم بيبرس بعض الأراضي المصرية ليستوطنوها ، ثم إنه تيسر له بعد ذلك استخدامهم في قضاء أغراضه<sup>(١٢١)</sup>

## صلاح الدين والفرنج :-

كانت مصر قد تعرضت عقب وفاة نور الدين مباشرة ، وقبيل تحرك صلاح الدين إلى الشام وذلك في سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م - لهجوم فرنجي شت وليم الثاني صاحب صقلية على الاسكندرية ، ولكن هذا الهجوم ماء بالفشل ، وكان من أسباب فشله صمود أهل المدينة .

وفي بلاد الشام حاول عموري ملك بيت المقدس استغلال فرصة الانقسام التي حدثت في المملكة السورية بعد وفاة نور الدين محمود ، وذلك ليسترد مدينة بانياس ، ودخل معه ابن المقدم في مفاوضات للصلح ، وهدده بالاستيلاء على صلاح الدين وسيف الدين غازي الثاني مما يعرض الفرنج للهجوم من كل ناحية ، واضطر عموري إلى الموافقة على الصلح ، ورفع الحصار عن بانياس ، وعاد إلى مملكته ، ورأينا أن هذه الموقف لم يعجب صلاح الدين ، وأنه استاء من القائمين بالأمر بعد نور الدين ، وأرسل إلى العلماء والقضاة بل وإلى الخليفة العباسي يبين لهم ما آل إليه الأمر في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وقد وضع من مكاتبات صلاح الدين رغبة في توحيد الجبهة الإسلامية حتى تقوم بواجبها المرتقب في جهاد الفرنج .

وقد أصاب الذعر الفرنج نتيجة لتطورات الموقف بالنسبة لصلاح الدين ، ولتقلصه نحو الشام ، وخطورة ذلك على وجودهم ، وقد أعلن صلاح الدين صراحة أنه ماحضر الشام إلا لحمايته من الخطر الفرنجي ، وحتى يسترد أملاك الملك الصالح في الجزيرة من أتانك الموصل الذي استولى عليها .

وبعد استيلاء صلاح الدين على دمشق ، وتعيين أخيه سيف الإسلام طغتكين حاكماً عليها باسم الملك الصالح اسماعيل ، تقدم صلاح الدين لمعاينة كمشنكين الذي استبد بأمور حلب (١٠٧٢) ، واستولى صلاح الدين

عن حمص ، وتقدم صوب حلب التي استجذبت بالفرج ، كما استعانت بالحشيشية ، وقد رأينا ما كان من الحشيشية ، وما تم عليهم أما الفرنج ، فإن ريموند الثالث أمير طرابلس (١٠٧٣) والوصي أيضاً على عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة عموري (١٠٥٤) ، كان مدرك تماماً لخطورة صلاح الدين ، وخطورة الوحدة المصرية الشامية عليه (١٠٥٥) ، وقد أتاح له الحلبيون الفرصة للتدخل كحليف لهم في هذا الصراع (١٠٥٦) ، لا حياء حب وحمية أصحابها ، وإنما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين (١٠٥٧) .

وقد حاول ريموند الثالث أن يُلجأ أولاً إلى تهديد صلاح الدين حتى يترك الحصار عن حلب ، معتقداً أن صلاح الدين في موقف لا يسمح له بمحاربة عدوين في وقت واحد ، وقال في رسالة إليه : « أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة » فأجابته صلاح الدين : « لست ممن يهرب نساب الفرنج وهأنذا سائر إليهم » (١٠٥٨) ، ولم يكتب صلاح الدين بإبداءه

(١٠٥٣) وكان ريموند هذا قد أسره نور الدين محمود على حزم سنة ٥٥٩ هـ ، وظل قسراً عشرة سنة حيث أطلقه سعد الدين كمشنكين بعد أن اقتدى بيته وحسين الصديقر وذلك ألف أمير

Stevenson, The crusaders in the East, P 189

ووصفه ابن الأثير بأنه « كان حليفاً عليهم في الفرنج » من أعيان شياطينهم .

الكامل ج ٩ ص ١٣٧

(١٠٥٤) وقد توفي عموري في سنة ١١٧٤ م ، وصار ريموند الثالث وصياً على بلدوين الثالث الذي كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره والذي عرف بملوك الأبرص ، وظل ريموند الثالث وصياً على العرش مدة ثلاثة أعوام

رسميات ج ٢ ص ٦٥١ ، ٦٥٥

Stevenson, The crusaders in the East, PP 213-214 ,

Grousset, histoire des croisades. T2 P 539 (١٠٥٥)

(١٠٥٦) وأعلن نور حلب في هذه المرحلة واستجذبت بالفرج ضد المسلمين يمدد إلى الأمان الدور الذي لعبته دمشق ، وأصبحها معين الدين أبو عبد عباد الدين ونكي ثم نور الدين محمود من التحالف مع الفرنج ضدها

انظر في ذلك : الدولة البورية ودورها في عصر الحروب الصليبية

بلد حصص ، فوردنا حماه ، وأخذنا في ترتيب الأطلاب (١٦٦) لطله ولقاءه  
فسار إلى حصص الأكراد متعلقاً بحبله ، مقتصفاً بحبله ، وهذا فتح تفتح  
له القلوب ، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب ، وإن  
العدو قد سقطت حشمته ، وانحطت فيه همت ، وولى ظهراً كان صدره  
يصونه ، ونكس صلياً كانت ترفعه شياطينه (١٦٧)

وأكد صلاح الدين مصره بأن استولى على قلعة حصص التي كانت  
استعصت عليه ، والتي ساندت الفرنج ، فاستولى عليها في ٢١ شعبان  
سنة ٥٧٠هـ / (١١٧٤م) ، ثم أتبعها بالاستيلاء على بعلبك بعد  
حصار حلب الثاني في سنة ٥٨١هـ / ١١٧٦م الذي انتهى بالمصالحة  
وأنشى صلاح الدين للانتقام من الناطية حيث حاصر حصص مصياف أكبر  
حصونهم في سنة ٥٧٢هـ ، وفي تلك الأثناء هاجم الفرنج بقيادة ريموند  
الثالث البقاع (١٦٨) ، ولكن والى بعلبك تصدى لهم ، فقتل منهم ، وأسر  
أكثر من مائتي أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصص مصياف ،  
فجلب منه إلى غزو الفرنج الأنبيات (١٦٩) .

وكانت مهاجمة الفرنج السبب الرئيسي في وقوع المصالحة بين صلاح  
الدين وراشد الدين بن سنان ، ومن ناحية أخرى جمع الفرنج قواهم  
لتعويض هزيمة ريموند الثالث على بعلبك ، وذلك بقيادة بندوين الرابع -  
وهو صفوه ومرصه ، وصحبه همفري سيد تبيين (١٧٠) ، وعندما علم توران

(١٧١) جمع طلب بهم لوله ، وهي وحدات صغيرة قد نبغ لربما - ويقول ابن يباس أن هذا  
اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي . انصرف بمصطلحات صح الأيوبي ٣٦

(١٧٥) الروصتي ج ١ ق ٢ ص ٦١٤

(١٧٦) التكميل ج ٩ ص ١٣٢

(١٧٧) الرماح - لرص واسعة بين بعلبك وحمص والمشرق ، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة صغيرة

معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٠

(١٧٨) الروصتي ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ والتكميل ج ٩ ص ١٤٠ وانظر طرابلس الشام ص ٢٥٤

استعداده لمهاجمة الفرنج ، بل أمر بعض جيشه بالتوجه إلى أنطاكية ،  
والإعادة عليها كرد عمل على تحديات ريموند الثالث ، وتمكن من إحراز  
غنائم حسنة من الفرنج ، وأراد ريموند الثالث من جهته أن يرد على صلاح  
الدين بمثله ، فتوجه بقواته إلى حصص التي كان صلاح الدين استولى عليها  
صد أمد قريب ، وسانده الحامية المراقبة بقلعة حصص التي لم تكن سقطت  
بعد في يد صلاح الدين ، وكان ريموند يهدف من وراء ذلك إلى قطع خط  
الرجعة على صلاح الدين إن لم يؤد هذا إلى عودته عن حلب حتى يدافع  
عن حصص (١٧٩) . ولم يجد صلاح الدين بُدّاً أمام ذلك الخطر من دفع  
الحصار عن حلب مرجئاً أمرها إلى مرة أخرى ، وعاد إلى حصص لردة عادية  
ريموند الثالث ، ولم يتظر ريموند الثالث لقاء صلاح الدين (١٨٠) ،  
وانصرف إلى حصص الأكراد (١٨١) مكتفياً بأنه أظهر للمحليين قدرته على فك  
الحصار عنهم ، وأعرب كمشتكين عن شكوه وامتنانه لخلفائه الفرنج ،  
فأطلق سراح ريسالدشانيون (١٨٢) وحوسلين كورنياني ، وسائر الأسرى  
المسيحيين ، بعد أن وضعت أجسادهم في سجون حلب المظلمة (١٨٣) .

وقد أرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل في مصر بحجرة متأمر الخليليين  
مع الفرنج ، وما حققه من نصر على الفرنج ، وإن لم يتم بينه وبينهم لقاء  
مباشر فقال : وقد أعلمنا المجلس أن العدو حذله الله ، كان الخليليون قد  
استجدوا بصلواتهم ، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم ، وأنه خرج إلى

(١٨٩) مصر والشام والخليج ص ١٢٦

(١٩٠) ريسان ج ٢ ص ٦٥٧

(١٩١) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٢٥٢ وحصص الأكراد قلعة حصص مقابل حصص  
من غربها على الجبل المتصل بحبل لبنان ولها ريف وهي عن مرحلة من حصص وكذلك عن طرابلس  
وهي بين حصص وطرابلس - تقويم البلدان ص ٢٥٨

والشرك وصفاً ص ١٣٦

(١٩٢) سمي للمراجع العربية و أرباط

(١٩٣) ...

## الفصل الرابع ، تدعيم الدولة الأيوبية في مصر والشام

قام صلاح الدين منذ عودته إلى القاهرة في سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٧م بكثير من التحصينات القوية ، والأعمال الكبيرة للدفاع عن مصر بوجه عام والقاهرة بوجه خاص (٤٧٥) ولم يحل في سبيل إتجازها بالمال فأنفق عليها أموالاً طائلة (٤٧٦).

ففي القاهرة قام بإنشاء سلسلة من التحصينات (٤٧٧) منها إعادة السور المحيط بها ، والذي كان سبباً في انتفاذ الخلافة الفاطمية من أعضائها عدة مرات (٤٧٨) ، ويبدو أنه كان عبارة عن سورين : سور للقاهرة ، وسور لمصر (المسطاط وماحولها) ، وقد تهدم أكثره في أيام الفاطميين ، وأصبح يمكن عبوره من أى مكان (٤٧٩) ، فقال صلاح الدين : « إن أقردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحجمها ، وإنى أرى أن تدبر عليهما سوراً واحداً من الشاطئ إلى الشاطئ » (٤٨٠) . وجعل صلاح الدين الإشراف على بناء ذلك السور إلى جاء الدين قراقوش ، وكان طول السور ٢٩٣٠٢ ذراعاً (٤٨١) ، كما أحاط السور بخندق في بعض أجزائه ، قال المقريزى : « وهذا السور هو الذى ذكره القاصى الفاضل في كتابه إلى

(٤٧٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٦

(٤٧٦) القاصر صلاح الدين ص ١٢٩

(٤٧٧) Ency. de L'isl. (art Le Cairo) T. 1 P. 844

(٤٧٨) القاصر صلاح الدين ص ١٢٩ وفترة جلوس ص ٢٤١

(٤٧٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧

(٤٨٠) حسن المصراع ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧

(٤٨١) المخطط للتوجيه ج ١ ص ٧١

شاه أحمو صلاح الدين في دمشق بذلك خرج إليهم ، والتقى بهم بين بعلبك ودمشق في مكان يعرف بعين الحر ، ويبدو أنه لم يستطع تحقيق النصر عليهم ، بل ووقع بعض أصحابه أسرى في أيديهم ، ومن هؤلاء الأسرى سيف الدين أبو بكر بن السلار ، من أعيان الحشد المماليك (٤٧١) ، هل أن الفرنج ما إن علموا بقدوم صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا من جديد ، ولم يقتف صلاح الدين أثرهم إذ كان حريصاً على أن يعود إلى مصر ، وترك أخاه توران شاه على قيادة جيش قوى في بلاد الشام .

وقد عاد صلاح الدين إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م (٤٧١) ، قال العماد : « ولما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه ، وأمن على مناهج أمره ومسالكه أزمع إلى مصر الإياب (٤٧٢) » .

على أن صلاح الدين قل عودته إلى القاهرة في هذه السنة قام بخطوة سياسية هامة وهى زواجه من عصمة الدين خاتون اسم معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود ، وكان يرعى من وراء هذا الزواج السياسى إلى أن يظهر بصورة وريث نور الدين من ناحية ، وليقوى الرابطة بينه وبين نور الدين من ناحية أخرى مما يساعده على تحقيق مشروعاته السياسية في المستقبل (٤٧٣) ، وإن ادعى أنه تزوجها « حفظاً لحرمتها ، وصيانتها وعصمتها (٤٧٤) » .

(٤٧٠) الكامل ج ٩ ص ١١٠ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٠ ورسيد ج ٢ ص ٦٥٢ ، ولى السبك ج ١ ق ١ ص ٨٥ يذكر المقريزى خلافاً لذلك : أن توران شاه « لوقع بهم ، ثم سار إلى حله وبيا صلاح الدين »

(٤٧١) الوافد السلطانية ص ٨٩ والسلوك ج ١ ق ٢ ص ٨٥

(٤٧٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٩

(٤٧٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ ، ومن مثل هذا الزواج السياسى ما فعله من قبل عبد الدين زنكى وسور الدين محمود . انظر في ذلك : الدولة الجورية في عصر الحروب الصليبية



صلاح الدين حيث قال : « والله بحمى المولى حتى يستدير بالبلد بظاقه ، ويمتد عليها رواقه ، فها عقيلة ماكان معصمها ليرتك بعير سوار ، ولا خصرها ليحتل بغير منطقة تضار (١٨٢) » ، ثم بين فوائد هذا السور فقال فى خطابه . « والآن استقرت حواطر الناس ، وأمنوا به من يد تتخطف ، ومن يد يجرم يقدم ولا يتوقف (١٨٣) » قال المقرئى : « وشاهدت آثار الخندق باقية ومن ورائه سور بأبراج ، له عرض كبير مبنى بالحجارة إلا أن الخندق انطم ، وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه (١٨٤) » كذلك أوكل صلاح الدين إل قراقوش مهة الإشراف على تحصينات أخرى فى القاهرة وغيرها .

وأوكل صلاح الدين إلى قراقوش كذلك بناء قلعة الجبل ، وكان ذلك فى وقت بناء سور القاهرة (١٨٥) ، وكان موقعها على قطعة من الجبل ، « وهى تصل بجبل المقطم ، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة ، فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر والقرافة الكبرى ، وبركة الحبش فى الجهة القبلية ، والنيل الأعظم فى غربيها ، وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية (١٨٦) » ، ففى القلعة ، وأعطاهما حقها من إحكام العمل (١٨٧) ، وحفر فيها بئراً عميقة يضمن لمن فيها الحصول على

(١٨٢) للمواظ والاحتراز ١ ص ٢٨٠

(١٨٣) للمواظ والاحتراز ١ ص ٢٨٠

(١٨٤) نفس المصدر ١ ص ٢٨١ .

(١٨٥) ص المصدر ٢ ص ٢٠٣

(١٨٦) نفس المصدر ٢ ص ٢٠١

(١٨٧) الروضى ج ١ فى ٢ ص ٦٨٨ ويوجد على الباب الخارج إلى الضلع الغربى من القلعة مئذنة .

٣  
إلى يومنا هذا . « بسم الله الرحمن الرحيم » أمر بإنشاء هذه القلعة الماهرة المحروسة القاهرة التى جعلت نفعاً ونجاةً واسعة على من اتبعها إلى ظل ملكه ونجسها ، مولانا الملك الناصر صلاح الدين والدين أبو الظفر يوسف بن أيوب عمى دولة أمير المؤمنين فى ظهر أجياله وبنى هذه الملك العادل سيف الدين لى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الملك

الملك وكانت من عجائب الأسىة (١٨٨)

وتعتبر القلعة أثراً حائداً من آثار العبارة فى العصر الأيوبي ، لأنها من جهة احتضنت بمعظم عاصرها المعيارية ، ولأنها من جهة أخرى حظيت باهتمام ولاية مصر فى العصور المتعاقبة ، وإلى وقتنا هذا (١٨٩) .

وقد استخدم قراقوش فى بناء القلعة وبها سور القاهرة الأحجار الضخمة ، وفى سبيل ذلك هدم ماكان هناك من المساجد ، وأران القصور ، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالحيرة تجاه مصر ، وكانت كبيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة ، وبنى به السور والقلعة ، واستخدم فى بنائها الأسرى من الفرنج ، وكان يبلغ عددهم خمسين ألف أسير (١٩٠) كما بنى قاطر الحيزة (١٩١) التى تتكون مما يزيد عن أربعين قطرة على هيئة أقواس ، واستخدم فى بنائها أيضاً ما هدمه من أحجار الأهرامات الصغيرة كما بنى بإرائها رصيفاً يمتد كحبل على الأرض مسيرة ستة أميال ، يقصد به أن تسلك عليه عساكره فى أى وقت (١٩٢) ، وقد غنمها ابن جبر من مفاخر صلاح الدين وآثاره الباقية المنقذة للمسلمين (١٩٣)

كما اهتم صلاح الدين بشعر دمياط ، والثغور البحرية الأخرى على ساحل البحر المتوسط ، وتعدت عيافته بشعر دمياط الذي كان في أيام قوة الخلافة الفاطمية دار صناعة للسفن الحربية ، تخرج منها الأسطول لجهاد أعداء البلاد ، فيكون لها ببلاد العدو صيت ورهبة (٤٩٤).

وقد أمر صلاح الدين بتقوية السلاسل الحديدية التي تربط بين برجين من الحجر ، وذلك ليجمع ضمن الأعداء من دحول المياه ، كما أمر بترتيب المقاتلين فيها ، وأن تشد مراكب إلى السلسلة التي بين البرجين ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من البرجين ، كما أمر بإصلاح سور المدينة وترميمه ، وإصلاح مانه من التلطمات التي سببتها العارات العربية عليه ، وأعطى في سبيل ذلك مليوناً من الدينار ، وبلغ طول السور ٤٦٣٠ ذراعاً (٤٩٥).

ومن مدن الساحل التي اهتم بها مدينة تنيس (٤٩٦) ، فاهتم بمعمارة قلعتها (٤٩٧) وسورها الذي يرجع بناؤه إلى أيام العباسيين وكلفه ذلك ثلاثة آلاف دينار (٤٩٨) ، وقد أمر صلاح الدين بنقل أهلها إلى دمياط في سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، وجعلها للمقاتلة فقط ، وذلك عندما كثرت عليها العارات الفرنجية .

وقد رار صلاح الدين في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م مدينة الإسكندرية ليشاهد العمل في السور الدائر ، وصام رمضان هذا العام بها واجتمع بالشيخ الحافظ أبي الطاهر أحمد بن السلفي (٤٩٩) .

(٤٩٤) الناصر صلاح الدين من ١٣١ .

من المصنوع ٢ من ١٥٢

(٤٩٥) المواظ والاعتبار ج ١ ص ٢١٥

(٤٩٦) تنيس جزيرة ومدينة جميلة وهي بقعة من الساحل بحيث لا يرى من أسطحها

سور نامة من ٧٦ ، ومعجم البلدان ج ٢ ص ٥٢

(٤٩٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٦ .

ولم يترك صلاح الدين مدينة الإسكندرية حتى كان قد أمر بإتمام الثغور وتعميرها وذكر ابن أبي طى سبب أمر السلطان بذلك ، وما جرى العمل به فقال : « فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول (٥٠٠) ، وجمع له من الأخشاب والصناعات أشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فقل السلاح والعديد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً ، وديواناً مفرداً ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من أحد رجاله ، وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ، وينرى إلى جزائر البحر (٥٠١) ، وجعل صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، وولى هذا بدوره صفى الدين عبد الله بن علي بن شكر نائباً عنه في مباشرة أمور الديوان (٥٠٢) ، وخصّص صلاح الدين لهذا الديوان الأموال العائقة ، فمضى له : « العيون بأعمالها ، والخس الخيوش في البرين الشرقي والغربي وهو من البر الشرقي يهتين والأميرية والميه ومن البر الغربي ناحية سمط وهيا ووصيم ، والساتين خارج القاهرة ، وعين له أيضاً الخراج وهو أشجار لانحصى كثرة في الهساوية وسمط ريشين والأشموبين والأسوطية ، والأخميمة والقوصية . . وعين له أيضاً النظرون وكان قد بلغ ضيائه ثمانية آلاف دينار ، ثم أفرد لديوان الأسطول مع ماذكر الركاة التي كانت تحبى بمصر ، وبلغت في سنة زيادة عن خمسين ألف دينار ، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشنأى وطنبدي (٥٠٣) ، كما زاد صلاح الدين رواتب المشتغلين في الأسطول ، وقضى عشرة أعوام في إعداد وترتيب حتى أصبح

(٥٠٠) وكان شاور قد أمر لدى تحريق مصر بحرق مراكب الأسطول ، صهرت ونبت

المواظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤

(٥٠١) التوضيح ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩

(٥٠٢) المواظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤ والنظم الاسلامية / علي إبراهيم من ٢٥٢

في مقدورته القيام بعمليات حربية ناجحة في مياه البحر المتوسط ضد العدو الفرنجي ، وذلك قبل وقعة حطين (٥٠٤)

وهكذا كانت عباية صلاح الدين بالأسطول عباية رائدة ، لم يقم بها أحد من جاء بعده إلا الظاهر بيبرس (٥٠٥)

ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين قد وجه عبايته نحو البحر الأحمر ، فاحتل قلعة أيلة - التي تقع على مدخل البحر الأحمر - من أيدي الفرنج ، واهتم ببناء برج السويس الذي يسع فيه عشرين فارساً ، ووضع فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد (٥٠٦) ، كما استولى توران شاه على اليمن ، ثم بسط نفوذه على الحجاز ، وصار يدعى له على مابعد مكة ، وكان أهداف من وراء ذلك بالنسبة للبلاد المنطلة على البحر الأحمر في الجنوب والشمال هو السيطرة على مداخل هذا البحر ، وحمايته من الخطر الفرنجي المتواجد في سيناء وجنوب فلسطين (٥٠٧)

وهكذا عمل صلاح الدين على تقوية مصر وتحصينها وتأمينها ، ووجه اهتمامه بالعمارة البحرية لخطورتها في مجابهة الفرنج ، وفي وقت حطهم على حد سواء

وكان عليه أن يوجه نظره إلى بلاد الشام لوضع الأمور فيها على الوجه الذي يحقق وحدتها مع مصر تحت راية أيوبية ، انطلاقاً إلى مواجهة إسلامية موحدة ضد قوى الفرنج لتحرير الأرض

ومن ثم كان عليه في هذه المرحلة أن يواجه قوة الرنكيين في حلب والموصل ، ثم الفرنج والصليبيين

(٥٠٤) تاريخ البحرية الإسلامية ج ١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٩

(٥٠٥) الخطط القومية ج ١ ص ٧١

(٥٠٦) السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٥

(٥٠٧) تاريخ البحرية الإسلامية ج ١ ص ٢٧٩

المواجهة مع بني زنكي :-

وكانت خطة صلاح الدين أنشد تقوم على أساسين : الأول - قطع صلة حلب بالموصل ، والثاني : الاستيلاء على الموصل أو على الأقل إضعافها (٥٠٨)

وقد خلعت الظروف صلاح الدين حيث توفي الملك الصالح إسماعيل في شهر رجب سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م عن عمر يناهز التاسعة عشرة (٥٠٩) ، وأوصى قبل موته أن يتول ملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، واستقر رأي الجماعة على ذلك ، غير أن عماد الدين زنكي الثاني صاحب سجعار اعترض طريقه ، وتم الاتفاق على تسليم سجعار إلى عز الدين مسعود ، ون يملك عماد الدين زنكي الثاني حلب ، وبذلك صار عماد الدين زنكي الثاني صاحب حلب (٥١٠)

وشجع هذا الانقسام في صفوف الرنكيين صلاح الدين على مهاجمتهم ، كما دفعه إلى مهاجمتهم أبصاً ما نعى إلى علمه من أن المواصله كانوا الفرنج وغيرهم في قصد الثغور الإسلامية ليشعلوا السلطان عن قصدهم (٥١١)

وكان أن تقدم صلاح الدين صوب حلب ليحاصرها وبارها ثلاثة أيام ، ولكنه أدرك أن الخطر الحقيقي يكمن في الحرية العراقية حيث يتمتع صاحب الموصل فيها بالكلمة العليا (٥١٢) ، فصر العرات إلى الدبلو الحرية ، لاسيما وأن أصواتاً مشجعة دعت إلى ذلك ، فقد حثه مظفر

(٥٠٨) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٣

(٥٠٩) للمختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٦٤

Brokeman, history of Islamic people, P 228

وقبل إنه مات مسجوراً . نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٧٢ وروسيان ج ٢ ص ٧٠٠

Brokeman, history of Islamic people, P 228 (٥١٠)

(٥١١) معراج الكروب ج ٢ ص ١١٥

الدين كوكسورى وإلى حران لعر الدين مسعود يعنده ، أنه معه عب لدولته ، ووعده بالصرة له إذا عبر العرت ، ويطعمه في البلاد ، ويخذه على الوصول (٥١٣) ، ولدى عبوره العرات كان من أنصاره صاحب قلعة البيرة (٥١٤) ، وفي تلك الأثناء كان عز الدين مسعود قد توجه إلى نصيبين ، متوجهاً للقاء صلاح الدين على حلب ، ففاجأ عبور صلاح الدين في طريقه إلى بلاده ، وتكرر صلاح الدين من الاستيلاء على نصيبين (٥١٥) ، بمؤامرة بعض أصحاب الأطراف مثل محمد بن قرا أرسلان صاحب حصص كيفا والأمير فخر الدين مسعود الرعفراني صاحب الرها الذي دخل في طاعته بعد حصاره لمدينته .

ومعد أن استولى صلاح الدين على نصيبين استقر رأيه على مهاجمة الموصل ، وكان من أكبر مشجعيه على ذلك مظفر الدين كوكسورى حيث قال له : « لا يجرى أن يبدأ بعير الموصل ، فيها في أيدينا لا مانع لها ، فإن عر الدين ومجاهد الدين (٥١٦) ( قاييز ) متى سمعا بمسير إليها ، تركاه وسارا عنها إلى بعض الفلاع الحلبية (٥١٧) » ، ولكن الجيش الصلاحي ومن رافقه عندما ذهب لحصار الموصل فوجيء بما أعده صاحب الموصل لئلا هذا

(٥١٣) الكامل ج ٩ ص ١٥٦ ومظفر الدين كوكسورى من ٨٣ ويورد العهد الأسمهاني بأسنونه المملوك بلطحات تحريض مظفر الدين كوكسورى لصلاح الدين حيث يقول مظفر : « ما زلت مشوقاً إليك في « حران » و « حران » وإلى الرى من ورد خدمتك هناك ، وهى لك صيدولة ، ويأمرها بك من لعل الشىء والى ما فعله له ، « والرها » لا يصر أمر لها ، « والرقة » لمركب وبعض حقتك ، و « الحبابورة » في انتظار خبرك ، و « دارا » و « نصيبين » و « صيك » و « دنك » الموصل » موصلك إلى الملك ، و « بعدا لوان الويا » مظفر الدين كوكسورى ص ٨٤

(٥١٤) وهى قلعة مبيحة على العرات من الجانب الجنوبي

(٥١٥) وكان قد استولى على الرها وحران والرقة وسروج الكامل ج ٩ ص ١٥٧ والمركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٦

(٥١٦) نائب عز الدين

(٥١٧) الكامل ج ٩ ص ١٥٧ ، وكان قد استولف على يدنا بعد نصيبين بفضد الموصل أو مستحو

اللقاء حيث كان ، عز الدين صاحبها ومجاهد الدين بانه قد جمع بالموصل العساكر الكثيرة مابين فارس وراجل ، وأظهر من السلاح والآلات الحصار ، ما حارت له الأبصار ، وبدلاً الأموال الكثيرة ، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً ، واصطلى الأمور نفسه فأحس تدبيرها ، ولم يقف الأمر على الموصل وحدها فقد شحوا مانقى بأيديهم من البلاد كالحزيرة وسحار الموصل ، وإزبل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال ، وعندما أراد صلاح الدين وبعض أعيان رجاله التحقق من مدى تحصينات الموصل بأنفسهم قبل الهجوم عليها فإنه شدة وأصحاحه حيث أنه « رأى بلداً عظيماً كبيراً ، ورأى السور والفصيل قد ملئت من الرجال ، وليس فيها شرافة ، إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المنتمحين » (٥١٨) .

ومع ذلك فإنه هاجم الموصل ونزل في الاستيلاء عليها ، وأدرك أنه ليس في استطاعته ذلك (٥١٩) ، وكان عليه مراجعة الموقف وفكر في طلب تأييد الخلافة العباسية له ظناً منه أن الخلافة قد تقف إلى جانبه وتمسحه سلطة على عبه من أمراء إقليم الحزيرة (٥٢٠) ، ولكن الخلافة لم تؤيده ، واكتفت بالتدخل فقط لاصلاح الأمر بينه ، وبين صاحب الموصل ، واكتفى بتفويض صدر الدين شيخ الشيوخ بالقيام بالوساطة بين الركنين وصلاح الدين (٥٢١) .

وأراد صلاح الدين أن يخرج بمعهم ما من هذه المعركة الخاسرة ، وذلك بأن يتبارك عن البلاد التى استولى عليها في مقابل أن يتحمل عز الدين عن مساعدة حلب ونجدتها ، ولكن عز الدين أحلف ظن صلاح الدين وقال

(٥١٨) الكامل ج ٩ ص ١٥٧

(٥١٩) نفس المصدر ج ٩ ص ١٥٧ ومفرج الكروب ج ٢ ص ١١٩

(٥٢٠) Grousset, histoire des croisades, T 2 P, 714

(٥٢١) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ ، وشيخ الشيوخ هو بشر الخادم وهو من نخاس الحليفة الناصر

له عن صاحب حلب : « هو أخى وله العمود والمواثيق ، ولا يسعى أن  
أكنها »<sup>(٥٢٦)</sup>

وهكذا لم تسفر الأمور عن صلح ، وأدرك صلاح الدين الأئمة من السقاء  
طويلاً أما الموصل ، لاسيما وقد نجح شاه أرمس السلجوقي وأمير مازدين  
لإرسال قوة لانقاذ الموصل<sup>(٥٢٧)</sup> ، « ورأى أن طريق أحده . أحد قلاعه ،  
وما حوله من السداد ، وإصغافه بطول الزمان »<sup>(٥٢٨)</sup> وانصرف عن  
الموصل ، وتوجه إلى سنجار حيث نزل عليها في ١٦ شعبان سنة  
٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م ، واستمر حصاره لها حتى ٢ رمضان حيث استولى  
عليها<sup>(٥٢٩)</sup> ، ثم استولى على آمد في أول المحرم سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م  
بعد حصارها ثمانية أيام ، وسلمها إلى صاحب حصن كيفا ، ثم إن  
السلطان توجه إلى بلاد الشام لخصار حلب ، فاستولى على تل  
خالد<sup>(٥٣٠)</sup> ، ثم هبتان<sup>(٥٣١)</sup> ، وسار صلاح بعد ذلك من عيتاب إلى  
حلب ، التي لم تصمد لخصار صلاح الدين وفصل عماد الدين زنكى  
الثاني صاحبها أن يسلم حلب ويأخذ عوصها سجار وبصير والخور  
والرفقة وسروج ، وتم الاتفاق بينه وبين صلاح الدين على ذلك<sup>(٥٣٢)</sup> ،  
ويرى ابن الأثير أن تلك السلسلة لعماد الدين زنكى الثاني كانت صفقة  
حاسرة فقال : « وساعوه بأوكس الأثيان ، أعطى حصناً مثل حلب ،

(٥٢٦) الكامل ج ٩ ص ١٥٨

(٥٢٧) ريسال ج ٣ ص ٧٠٩

(٥٢٨) النوازل السلطانية ص ٩٥

(٥٢٩) الكامل ج ٩ ص ١٦٢

(٥٣٠) تل خالد : قلعة من بواحي حلب . مجمع البلدان ج ٢ ص ٤١

(٥٣١) قلعة حصينة ورستاق من قرى حلب ، رستاقها طوك مرصع الاطلاح ج ٢ ص ٩٧٧

وقال الدر المنثور : « وهي مدينة ملجحة جليلة ولها قلعة » الدر المنثور ج ١ ص ١٥٧

(٥٣٢) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ ورسيال ج ٢ ص ٧٠٣ وانظر

Grauert, histoire des croisades ٢٥٥ ٢٥٦

وأخذ عوصها قرى ومرارح<sup>(٥٣٣)</sup> ، وقد تم ذلك بعد أن كان عماد الدين  
حرب قلعة حلب حتى لا يستعيد بها صلاح الدين ، ولم يكن تسليم حلب  
لصلاح الدين عن رضا من أهلها ، حتى أنهم بقموا على عماد الدين تسليم  
حلب وقد عبر عن ذلك بعض العامة حيث « أحصر إحانة وماء وناداه .  
أنت لا يصلح لك الملك ، وإياها يصح لك أن تعمل الثياب ، وأسمعه  
المكروه »<sup>(٥٣٤)</sup> ، وصاع الناس في ذلك أشعار يعبرون بها عن سخطهم  
منها :

وسعت سنجار حير القلاع ر تكلمك من يائع مشتري  
وكان سقوط حلب في يد صلاح الدين كسباً كبيراً قوى من مركزه في بلاد  
الشام ، حتى اعتبر ابن الأثير أن ملك صلاح الدين استقر بملكها<sup>(٥٣٥)</sup>  
وقد شعر صلاح الدين نفسه بذلك حتى أنه « أعطى العساكر دستوراً  
بالسير إلى بلادهم ، وأقام في حلب بقر أمورها .

وقدر الفرج أنفسهم خطورة استيلاء صلاح الدين على حلب واعتبره  
وليم الصوري أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنج<sup>(٥٣٦)</sup> ، وذلك إنه  
بفقطها في يد صلاح الدين أصبح أقوى حاكم معاصر في الشرق  
الأدنى ، وجعل الجبهة المتحدة تمتد تحت سلطانه من جبال طوروس في  
الشمال حتى البوابة في الجنوب<sup>(٥٣٧)</sup> ، وقد أصبح صلاح الدين في مركز قوى  
يمكنه من إنزال صربة قاصمة للفرنج . فموارد مصر الضخمة تحت  
تصرعه ، ودمشق وحلب في قبضته<sup>(٥٣٨)</sup> ، وامتد صوب الشمال الشرقي

(٥٢٩) الكامل ج ٩ ص ١٦٢

(٥٣٠) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ ، وقد استقر ملك عماد الدين زنكى الثاني بسجار وملجها في سنة

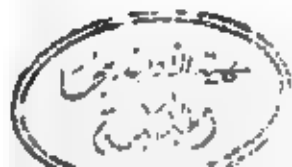
٥٧٩ هـ ، ولم يزل بها إلى أن توفي في المحرم سنة ٥٩٤ هـ . نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٩٠

(٥٣١) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٣٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٠ .

(٥٣٣) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ١٧٨ ر

Stevenson, The crusaders in The East P 230



حتى أسوار الموصل الا قطاعات الحربية التي ارتكن صلاح الدين إلى مساندة أربابها (٥٢٥)

وقد استشر المسلمون بفتح حلب ، وعدوه مقدمة لفتح بيت المقدس ، فقال القاضي عيسى الدين بن زكي قاضي دمشق يقول :

وفتحه حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتح القدس في وجب (٥٢٦)

وكان تسلم صلاح الدين لحلب في يوم السبت ١٨ صفر سنة ٥٧٩ هـ / ١٢ يونيو ١١٨٣ م (٥٢٧) ولكن صلاح الدين فقد أجهز تاج الملوك بوري على حلب ، حيث أصابه سهم في عيه مات منه (٥٢٨) بعد أيام ، فعزّن عليه حزناً شديداً نغص عليه فرحه بنصره الكبير ، فكان يقول : « ماوت حلب بشعره من أغنى تاج الملوك بوري (٥٢٩) » .

وهكذا تحقق لصلاح الدين تحقيق جزء كبير من أمله ، فقد صار في يده مدائن الشام الكبيرة - حمص وحماة وحلب ودمشق ، وظل تجرّ من أمله متجهها إلى الموصل للاستيلاء عليها ، أو جعلها كالتابعة له ، وفي سبيل ذلك عمل على تصييق الدائرة حوها (٥٣٠) ، فتمكن من اكتساب ولاء بعض القادة الذين أدركوا ما يتطوّرهم من جزء مساندتهم لصاحب الموصل ، بل أحسوا بالخطر الذي يتطرّق الموصل نفسها إن ظلت على

(٥٢٥) ربيع ج ٢ ص ٧٠٤

(٥٢٦) فكان كما قال ، لكن بعد سير ، وهو الذي خطب بالقدس عندما فتحها صلاح الدين في وجب سنة ٥٨٣ هـ

الجمجم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ ، وقرة جلى ص ٢٤١ ، والمختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٦٦

(٥٢٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٩

(٥٢٨) البوادر السلطانية ص ٩٨ والجمجم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ ، وفي البوادر ج ١ ص ٢٩٢ وكانت القطعة في ركنه

(٥٢٩) البوادر السلطانية ص ٩٨ وفي المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٦٦ ووجبات الأهمان ج ١ ص ٢٩٢ : « ما وقعت حلب علينا رغصة بموت توري د بوري »

معاندتها لصلاح الدين (٥٣١) وتبيأت الفرصة في سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م لصلاح الدين لحصار الموصل من جديد ، وقد حاول عر الدين الاستعداد بالخلافة في بغداد ، ولكن الخليفة لم ينجده ، ولم يحصل منه على زينة (٥٣٢) .

واضطّر إلى مراسلة صلاح الدين للمصالحة ، وتم الصلح على أن يسلم صلاح الدين إلى عر الدين شهر رور وأعمالها ، وولاية القرايل ، وجميع ما وراء الراب من أعمال ، وأن يحطب عر الدين لصلاح الدين على منابر بلاده ، ويضرب اسمه على السكة ، وأن يمد صاحب الموصل صلاح الدين بالجيش والعناد والسلاح في حالة اشتباك صلاح الدين مع الفرنج المقيمين أو ضد الصليبيين الوافدين (٥٣٣)

وهكذا يكون صلاح الدين الذي كان يعرف جيداً أهدافه الحربية ، ويجيد التخطيط لها (٥٣٤) قد نجح فيها خطط له من توحيد مصر والشام ، واستغرق ذلك منه اثنتي عشر عاماً منذ وفاة نور الدين محمود ، وأصبح على استعداد كامل لمواجهة الخطر الأكبر الجائئ من قلب الأمة العربية - خطر الفرنج والصليبيين .

الجهاد ضد الفرنج والصليبيين وحرب التحرير :

اتضح لنا من خلال ما سبق أن ثمة هدفين كانا يشعلان ذهن صلاح الدين : أحدهما ركيزة لما بعده ، ونعني بها توحيد مصر والشام والحزيرة ، وتأمين ذلك التوحيد وتانيهما جهاد الفرنج ، ويعلم من هذا أن إحدى الغايتين كان وسيلة للعباية الأخرى

(٥٣١) نفس المصدر ص ١٣٤

(٥٣٢) البوادر السلطانية ص ١١٢

(٥٣٣) الكامل ج ٩ ص ١٧٠ ومصر والشام والصليبيون ص ١٣٥  
واحد Brokelman, history Islamic People P 228

ولعل الفرنج لم يكونوا عافلين عما يتوهم صلاح الدين وما يكره فيه ، ولذلك كان حرصهم على حصر صلاح الدين في مصر وحدها ، وقد اتضح ذلك في محاولاتهم إبان ، وبعد سقوط الدولة العاطمية ، ثم ما كان منهم من مؤازرات متصلة من ولاية الأسور في حلب والموصل ، وإن جاءت جهودهم بالفشل ، وكان الدليل على ذلك فوز صلاح الدين بما خطط له في براعة حتى كون الجبهة المتحدة التي كان يطمح إليها

على أن الحدير بالذكر أنه في الوقت الذي كانت فيه الحجة الإسلامية تتحد وتقوى ، كان الفرنج يمرون بفترة عصية تسودها الانقسامات الداخلية العبيقة المنشعبة التي حالت دون تدخلهم بحسم فيما كان يقوم به صلاح الدين في بلاد الشام والحيرة ، وبين ذلك في تفصيل مركز .

أتمت العلاقات بين صلاح الدين والفرنج طابع المناوشات والمصادمات المتقطعة بين سنتي ٥٧٢هـ - ٥٧٦هـ / ١١٧٦ -

١١٨١م (٥٦٥) ، واضطر صاحب بيت المقدس في سنة ٥٧٦هـ أن يطلب عقد الهدنة مع صلاح الدين في أعقاب عارة موقعة لصالح الدين على السفن الراسية في مياه عكا ، ثم عازته انصيعة على الحليل ، وقد وفق صلاح الدين على هذه الهدنة وفقاً للأولويات التي كان رتبها ، والتي تجعل الاستيلاء على حلب سابقاً على استيلائه على بيت المقدس ، وكانت مدة هذه الهدنة سنتان ، ثم ما لبثت أن وقعت معاهدة مماثلة مع ريموند صاحب طرابلس (٥٦٦) .

وكانت محكمة بيت المقدس تمر آنئذ بفترة خطيرة عندما تولى بلدوين الرابع الذي كان مريضاً بالخدام والذي مات متأثراً به (٥٦٧) ، ثم تلاه

(٥٦٥) مصر والشام والعسكرون ص ١٣٧

(٥٦٦) رنارد ج ٣ ص ٦٧٩ ، ٦٨٠ . وحذا حذوه يوهنسد الثالث أمير ليطاكية مجلد هدنة مع صلاح الدين

lane- poole, Saladin, P. 161

Chimberger, Renadu de Chatillon, P. 189

بلدوين الخامس الذي ما لبث أن مات كذلك بعد بضعة شهور (٥٦٨) والذي كانت وفاته إيذاناً بفرع حاد بين أمراء الفرنج حول العور معرّش محكمة بيت المقدس (٥٦٩) ، ومن ثم انتقل إلى أمه سيبلا Sybella التي تزوجت عازراً قدم إلى الشام من أورن هو حي دي لورجان . Gui de Lusignan (٥٧٠) ، ولكن ريموند الثالث أمير طرابلس لم يرض بذلك حيث كان يطمح في الملك (٥٧١) ، وتولد عن ذلك انقسام شديد في صفوف الفرنج بين مؤيد لريموند ومؤيد للورجان ، ودان من ناصر لورجان ضد ريموند فرسان الداوية (٥٧٢) ، مما ألحق ريموند الثالث إلى صلاح الدين يطلب معونته ، فوافق صلاح الدين وسر لذلك ، وسر له المسلمون ، وكان ذلك من عوامل نصر الإسلام (٥٧٣) ، وقد نظر المؤرخون العربيون إلى موقف ريموند هذا على أن خيانة مع اعترافهم سلامة هذه السياسة ، فقال رسيبان : « ويرغم ما كان من سلامة سياسة ريموند فلا شك أنها انطوت على الخيانة » (٥٧٤)

وقد أتاحت هذه الهدنة فرصة لصالح الدين تمكن بها من إعداد قواته عسكرياً ومالياً ، وتوحيد الصفوف لبدأ جهاده الخامس ضد الفرنج

(٥٤٨) وله من المص ٩ سنوات . Ibid, P 48

(٥٤٩) ويقال أن أمه سمته ليثول الملك لزوجها التي المسمى لورجان . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٤

وسائق الأخبار ص ١٥٣

Kerr, The crusades, P 48 (٥٥٠)

(٥٥١) العلاقات بين الشرق والغرب / ٢ ، عابد ص ١٦٨ ، ١٦٩ و Lane- poole, Saladin, PP 220- 221

Saunders, A history of Medieval Islam, P. 165

King, The Knights hospitallers in the holy land, P. 118. (٥٥٢)

(٥٥٣) الروصتين ج ١ ص ٢٤ - ٧٥ ومعرج الكروب ج ٢ ص ١٨٥ وطرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٢٥٠

(٥٥٤) ...

والصليبيين ، وقد ساعدته الظروف حيث فقد المربع حليماً قوياً لهم هو  
الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين الذي توفي في سنة  
٥٧٦هـ / ١١٨٠م (٥٥٥)

وقد بات صلاح الدين يترقب وقوع المربع في أخطاء تمهد له السيل ،  
وتسقط أمامه الحجة بحريهم ، وواتته الفرصة على يد أمير الكرك  
ريالدشاتيون (٥٥٦) الذي بقص بعض شروط الهدنة مع المسلمين والذي  
كان يقضي بان يسمح للتجار على الحارين في أن يجتاز كل من الحارين  
بلاد الآخر (٥٥٧)

فقد تعرض ذلك الأمير الذي كانت سياسته قائمة على العطفة  
والمشاكسة - لإحدى القوافل التجارية المتجهة من القاهرة إلى دمشق في سنة  
٥٨٢هـ / ١١٨٦م ، وكانت قافلة عظيمة غريبة الأموال كثيرة الرجال ،  
ومعها جماعة صاخبة من الخلد (٥٥٨) ، وكان في هذه القافلة أحت صلاح  
الدين (٥٥٩) . فأخذ جميع مافي القافلة أسرى ، وأودعهم السجون ، كما  
استولى علي كن ماعهم من أموال ودواب وسلاح ، وأرسل صلاح  
الدين رسلا إلى ريالدشاتيون ليبسوا له خطأ مافعله ، وأن يطبق جميع من  
أسرهم ، وأن يتحمل التعويضات نتيجة الخسائر التي حلت بالقافلة ، ولم  
يجبه ريالدشاتيون إلى شيء من ذلك بل قال لرسله : قولوا لمحمد

(٥٥٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٦٧

(٥٥٦) وكان كشتكيون أطلق سراحه تعاطفاً مع الفرنج الذي تعاطفوا معه ، حيث أخرج من  
الأسرى الفرنج في قلعة حلب الذي أسروا في حارم سنة ٥٥٩هـ وريالدشاتيون مما أسر بالصلحة  
العامة للمسلمين

Schlumberger, Renaud de Chatillon, P 144

Stevenson, The crusaders in the East, P. 189.

(٥٥٧) رسيان ج ٢ ص ٦٩٦ و ١٩١-١٩٠ PP, Renaud de Chatillon  
192

(٥٥٨) الكليل ج ٩ ص ١٧٤ و 48 P, Kerr, The crusades,

بخلصكم (٥٦١) ، فوجه صلاح الدين برسه الى ملك بيت المقدس جى  
لورجان ليكج جهاج تبعه ، وكان جى لورجان حريصاً على عدم نقص  
المعاهدة مع صلاح الدين أثناء ، فاهتم بشكوى صلاح الدين ، وأرسل  
إلى أمير الكرك يأمره بتفيد طلبات صلاح الدين ، لكن ذلك الأمير المنهور  
لم يقبل بأمر الملك الذي كان حريصاً على أن تدوم المعاهدة (٥٦٢) ولم يكن  
موسع جى أن يفرض على ريالدشاتيون أن يطيعه (٥٦٣) .

وكان ذلك دليلاً على مدى التردى الذي وصلت إليه وسيلطان ملك  
بيت المقدس (٥٦٤) . وعلى الحملة فقد دفعت أقول هذا الأمير المنهور  
وأفعاله صلاح الدين إلى أن يندبر بدمراً أن يقتله إن طهر به (٥٦٥)

وقد سبق لهذا الأمير المنهور الذي كان لا يستطيع أن يعيش دون أن  
يسطرويهب (٥٦٥) أن هاجم القوافل المارة بين مصر والشام ، وكان أسوأ  
هذه الاعتداءات ماحدث في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م حين جهز ريالد  
سبت أعدها وحملها على حمل الدلو لدير أعمرهم بالمال (٥٦٦) إلى البحر  
الأحمر وسلاها بالمقاتلة وتمكن من لاستيلاء على أيله (٥٦٧) ، وهاجم

(٥٦١) مرجع الكروب ج ٢ ص ١٩٤

Schlumberger, Renaud de Chatillon, P 190 (٥٦١)

Brokelman, history of Islamic people, P. 228

(٥٦٢) رسيان ج ٢ ص ٧٢٧

Grousset, histoire des croisades, T 2. P 703

Besant Palmer, Jerusalem... P 388 (٥٦٣)

Grousset, histoire des croisade. T 2 P 703

(٥٦٤) الكليل ج ص ١٧٤

Grousset, histoire des croisades, T 2 P, 778 (٥٦٥)

وسوريا ولسان ولسطرين حتى ص ٢٣٧

lane- pool, Saladin, P. 175 (٥٦٦)

Lamb: The Flame of Islam P 56



بقراصته بعض البندان الصغيرة ، وسبوا عيذاب<sup>(٥٦٨)</sup> واستولوا بها على سفن تجارية راخرة بالسلح قدمت من عدن ومن الهند ، كما برلوا إلى البر وهاجموا قافلة ضخمة كانت قادمة عبر الصحراء من وادي النيل ، ولم يكتفوا بذلك بل احتازوا البحر الأحمر من عيذاب إلى ساحل بلاد العرب ، وأشعلوا الحرائق في السفن الرسية بالخوراء ووسع مياثي المدينة ، ثم توعدوا حتى بلغوا ربيع مياء مكة داتها ، وأغرقوا بقره سفينة للحجاج كانت متجهة إلى جدة<sup>(٥٦٩)</sup>

وكان لذلك آتاك - أسوأ الأثر على العالم الإسلامي بأسره ، بل على حلفاء الفرنج من المسلمين ، فقد كان أميراً حلب والموصل آتاك حجلين لاستعانتها بالفرنج الذين لا يعرفون حرمة مقدساتهم الإسلامية .

وقد تمكن العادل أخو صلاح الدين من إيقاف هؤلاء العائين عند حدهم ، حيث أرسل إليهم أسطولاً بقيادة متولى أسطول مصر حسام الدين لؤلؤ لحاجب الذي تمكن من استرداد أبله ، وانقضى عى من بها و انقضاء العقاب على صيده<sup>(٥٧٠)</sup> ، وقتل بعضهم ، وأسر البعض ، ثم تسع من ساروا إلى عيذاب فوجدتهم ارتحلوا ليعسوا في الموانئ المختلفة حتى أدركهم بساحل الجوزاء ، ودارت معركة بينه وبينهم في البحر ، فتك بهم فيها ، وانتقلت المعركة إلى البر و قتل أكثرهم ، وأحد الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى مصر ليعسوا بها عقوبة لمن رام إحادة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعاد بالأسرى إلى مصر فقتلوا

(٥٦٨) عيذاب : مدينة حسنة ، وهي مجمع التجار بر ويحرا

جريدة المجتلب وغيره المراتب من ٥٩

١ ابن الوردي : القاهرة ١٢٧٦

جميعهم<sup>(٥٧١)</sup> ، وتمكن رينالدى شاتيلون من الحرب ، وانتوجه إلى حصص الكرك ليواصل أعماله العدائية ثانية ضد المسلمين<sup>(٥٧٢)</sup> ، وأقسم صلاح الدين أنه لن يعفر لرينالدى محاولة انتهاك حرمة الدين<sup>(٥٧٣)</sup> .

وشهد ابن جبير الذي كان يروى مصر آتاك أسرى الفرنج وقد أدخلوا البلد راكبين على الخيال ، ووجوههم إلى أديابها ، وحولهم الطبول والأبواق<sup>(٥٧٤)</sup> ، ووصف شاعة ما كان هؤلاء قد أرمعوا عليه وما نالهم من جراء حيث قال : «حادثة تسد المسامع شاعة وشدة ، وذلك أهم كانوا هارمين هل دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإخراجهم من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك ، وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخفقهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطبهم ما يحول حاية القدر بينهم وبينه<sup>(٥٧٥)</sup>»

هكذا جَرَّ هذا الأمير المنهور بحيافته الممهودة الفرنج إلى الحروب مع صلاح الدين ، تلك الحرب التي جاءت كارثة على رينالدى نفسه بل وعلى الفرنج جميعاً<sup>(٥٧٦)</sup> ، فقد أتاح ذلك فرصة سانحة لصلاح الدين حتى يضرب الفرنج في الصميم ، معتمداً على التمكنك السياسي في جميعهم ، وعتجاً بأن ملك بيت المقدس لم يستطع كبح جماح صاحبه<sup>(٥٧٧)</sup> .

واستعد لصلاح الدين لهذا الغزو بالتعبئة العامة له وجمع له عساكر

(٥٧١) الكامل ج ٩ ص ١٦٠ وللخبر لشعار البشر ج ٣ ص ٦٥ وانظر :

Kerr, The crusades, P 47

Chumberger; Renadu de Shatillon, P. 224

lomb, The blame of Islam, P 29 (٥٧٢)

(٥٧٣) ريسان ج ٢ ص ٢٠٧ . مرجع الكروب ج ٢ ص ١٨٥

(٥٧٤) رحلة ابن جبير ص ٥٧

(٥٧٥) رحلة ابن جبير ص ٥٧

(٥٧٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٦ ر

Setton, a history of the crusades, vol I, P. 561

الخربة العراقية ومصر والشام<sup>(٥٧٨)</sup>، وبدأ بالإغارة على الكرك والشوبك وغيرها، وبت سراباه للحرق والتخريب<sup>(٥٧٩)</sup> فجهبا وحربوا وأحرقوا<sup>(٥٨٠)</sup>.

ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين طلب من أخيه الأفضل أن يرسل بعض القوات للإغارة على عكا، فسير جيشاً بقيادة بعض كبار الأمراء منهم. مظفر الدين كوكبوري صاحب حران والرها، وقد صبح هذا الجيش صفورية<sup>(٥٨١)</sup> في أواخر شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وكانت هذه البلد معقلاً للدعوة والاستتارية، وحرث بينهم وبين الجيش الإسلامي القادم حرب شديدة<sup>(٥٨٢)</sup> نشبت له المعارك السود<sup>(٥٨٣)</sup>، وانتصر المسلمون بعد أن قتلوا من الاستتارية والدعوة أعداداً كثيرة، كما أسروا أعداداً كبيرة أخرى من بينهم مقدم الاستتارية نفسه الذي كان من فرسان "تسريح المشهورين"، وله الكفاية العظيمة في المسلمين<sup>(٥٨٤)</sup>، وعاد المسلمون يحملون رؤوس أعدائهم على أسنة الرماح<sup>(٥٨٥)</sup>.

عن أن الحدير بالذكر أن هذه القوات الإسلامية احترقت إقليم الحليل في طريقها من بانياس إلى عكا وكان ذلك قد استلزم أن يأخذ صلاح الدين إيداً من ريموند الثالث وكان في طرية أشد يطلب منه السماح لتلك القوات بالمرور بحكم ما كان بينهما من تحالف وقد اضطر ريموند للإذعان بذلك وإن أصدر أوامره إلى المدن الفرنجية في الجليل بأن تعلق أبوابها حتى لا يستولى المسلمون عليها<sup>(٥٨٦)</sup>. وقد اعتبر الفرج ذلك حياناً من ريموند الثالث لهم

(٥٧٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٥

(٥٧٩) من المصدر ج ٩ ص ١٧٥ Brokelman, history of Islamic people, P 228

(٥٨٠) منتج أوله وشهد ثابة : كورة وبلدة من بواسي الأردن بالشام وهي قرب طرية

معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٤

(٥٨١) الكامل ج ٩ ص ١٧٥

(٥٨٢) من المصدر ج ٩ ص ١٧٦

(٥٨٣) معجم الكروب ج ٢ ص ١٨٧

(٥٨٤) (Grousset, histoire des Croisades, T 2 P 782)

وأمام هذا أراد لفرج تجميع جهودهم ضد صلاح الدين وكان لابد من رأب الصدع كعادتهم في سد خلافاتهم جانباً عند استشعار خطر إسلامي محقق، فأرسلوا إلى ريموند الثالث عدداً من رجال الدين وكذلك من الفرسان يبر له أهم غير راضين عن انتيائه إلى صلاح الدين ووتجوه على ذلك<sup>(٥٨٧)</sup> ود<sup>(٥٨٨)</sup> لاشك أسلمت وإلا لم تصر عن فعل المسلمين أمس بالمرنج، يقتلوا الداوية والاستتارية ويأمرهم ويختار بهم عبيك، وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتع عنه، وردوا على ذلك بأن هدده بالطرك أن يحرقه ويصيح عليه نكاح زوجته<sup>(٥٨٩)</sup>، فأجابهم ريموند إلى ما يطلبونه من واضع إليهم وسار معهم إلى حي لورجنان ملك بيت المقدس، وبذلك اجتمعت كلمتهم من جديد أمام الخطر الإسلامي المائل أمامهم<sup>(٥٩٠)</sup> ولكن ذلك لم يفي عنهم من الله شيئاً<sup>(٥٩١)</sup>.

وانجهدت جموع الفرنج نحو صفورية التي تعد ستة عشر ميلاً عن عكا أما صلاح الدين فرأى ألا يقابلهم عند صفورية، بل يحرقهم على المسير إليه حيث يريد هو، فبلقاهم بعد وافر القوة واجهد لذلك اللقاء، وفي سبيل الوصول إلى ذلك رأى أن يهاجم طرية ليصل إلى ما يريد وتمكن من استنصاطهم<sup>(٥٩٢)</sup>، وقد عبر ابن الأثير عن تمكيد صلاح الدين هذا حيث قال : « وإنا كان قصده محاصرة طرية أن يعارق الفرج مكانهم ليتمكن من قتلهم »<sup>(٥٩٣)</sup>.

وتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على طرية دون قتلها التي استرحت زوجة ريموند الثالث. التي كانت فيها - في الدفاع عنها، وأصرحت على

(٥٨٧) ملخص في كتاب البشر ج ٣ ص ٧١

(٥٨٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٦

(٥٨٩) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٢٥٦

(٥٩٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٦

(٥٩١) الروبر ج ٢ ص ٧٦

مقاومة الهجوم على القلعة بحاميتها القليلة العدد ، وأرسلت إلى روحها تحية بحجة الأمر (٥٩١).

وقد احتلت آراء الفرنج ، بعد هذا الموقف الذي حلقه لهم صلاح الدين ، حتى حين رأى بعضهم التقدم إلى المسلمين لقتالهم ، وسعهم عن طبرية ، رأى ريموند - وكان الأعد نظراً (٥٩٢) - خلاف ذلك ، وقال لهم : « إن طبرية لي ولروحتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقي القلعة ، وفيها زوجتي ، وقد رخصت أن يأخذ القلعة وروحتي ومالها بها ويعود ، فوافقه لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ، مارايت مثل هذا العسكر الذي مع عسكر صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أحد طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقه ، وعاد منها أخذناها ، وإن أقام بها فلا يقدر على المقام بها - الا بجميع عساكره ، ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهلهم فيضطر إلى تركها (٥٩٣) ، كما بين ريموند خطورة ترك صورية ، والمخاطرة بالمسير على لشل الأحرد في حرارة شهر يوليو الشديدة ، وأن الجيش الذي يهاجم في قيط الصيف ولعمري لن تكون الأحوال في صالحه (٥٩٤) » ولم يلتزم رأيه قبولاً بل واتهم بالخوف والحس ، وبأنه يريد ضياع المملكة ، واشتد عليه رينالد شاتيون وقال له : « قد أطلت في التحريف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم ، وقيل إليهم ، والا ما كنت تقول هذا ، وأما قولك : إنهم كثيرون فإن البار لا يصرها كثرة الخطب (٥٩٥) ، وكان من اشتد عليه كذلك جبرار مقدم الداوية (٥٩٦) ،

(٥٩١) ريسان ج ٢ ص ٧٣٥ ، كما للمصري في أخبار الفرنج ٢ ص ٩٧ ونظر

Kerr, The crusades, P. 48

(٥٩٢) Stevenson, The crusaders in the east, PP. 244- 245

(٥٩٣) الكامل ج ٩ ص ١٧٧

(٥٩٤) ريسان ج ٣ ص ٧٣٥ و

Zoe Oldenbourg: The crusades, P 241

(٥٩٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٧ .

(٥٩٦) ...

فاضطر ريموند إلى موافقتهم ، ووصدت تلك الأنباء إلى صلاح الدين عن طريق عبوسه المشين في صفوف الفرنج (٥٩٧) ، فأدرك صلاح الدين أن خطته قد نجحت ، وأن الفرنج وقعوا فيها فبهره لهم .

على أن الحدير بالذكر أن بوهيموند الثاني Bohemond II أمير أنطاكية لم يشترك مع الفرنج في ذلك لبعده ، ولوجود صلاح الدين في طريقه ، وإن كان من جهته دائم الإغارة على مراكز المسلمين المحاورة لإمارته (٥٩٨)

### « موقعة حطين (٥٩٩) »

غادر جيش الفرنج بقيادة جي لور جان وريموند الثالث وريالدشاتيون (٦٠٠) صورية في يوم شديد الحرارة ، راكدا الهواء ، وكان ريموند على مقدمة الجيش في حين تولى جي لورجان قيادة قلب الجيش ، أما ريبالدشاتيون وآخرون فقد أوكل إليهم مؤخرة الجيش ، وسار الجيش الفرنجي في طريق تعدم فيه المياه ، حتى أصابهم العطش ، وتبعث حيولهم ، وكان للرماة الذين خصصهم صلاح الدين على طول الطريق ، نصرت مقدمة ومؤخرة الجيش القادم أثرهم في تحطيم معويات الجيش الفرنجي بما أمطروه به من سهام (٦٠١)

وقد نجح صلاح الدين فعلاً في استدراجهم إلى مكان صحري ، بعد أن نجح في السيطرة على مشارب المياه ، وجعل الأردن وراءه وكان صلاح الدين فرحاً بنجاحه هذا ، حتى أنه لم يكن في استطاعته أن يكتف فرحه

(٥٩٧) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٣٧ وأطلق عليهم ريسان اسم « الخونة »

(٥٩٨) الناصر صلاح الدين ص ١٤٣

(٥٩٩) قرية بين حكا وطبرية بالشام بها قبر لشعب وات صغرى

المشارك وصفا ص ١٣٨

وانظر معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤

وكذلك Ency de L. Isl. (art Hattin au Hittin) T 2 P. 308

(٦٠٠) ولم يشترك بوهيموند الثالث كما أشير من قبل

(٦٠١) ريسان ج ٣ ص ٧٣٨ .

وصروه بنجاح تدبيره الذي أتاح له الفرصة التي يشدها (٦٠٢)

ولم يعمل صلاح الدين رفع روح جنوده المعنوية وفي نفس الوقت التأثير على روح أعدائه المعنوية ، وكان من ذلك أن المسلمين باتوا ليلتهم التي أمضوها المهجوم في الصباح . وهم في تهليل وتكبير يزيدهم قوة وإيماناً ويمتد صداه الرعب في قلوب أعدائهم

وحتى يزيد المسلمون في متاعب جيش أعدائهم أشعلوا البرار في الأعشاب والشجيرات الحادة التي تعطى نل حطين فعشى المعسكر المسيحي الدخان السامخ (٦٠٣) حتى كادوا يصابون بالحمى لما أصيبوا به من الحرارة والدخان والمطش جميعاً (٦٠٤) .

وحرك صلاح الدين قواته في جح الطلام ، ومعج في تطويق جيش الملك جى لوزجان حيث أحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها (٦٠٥) حتى لم يكن د بوع أحد قط أن يفلت من الشبكة المنصوبة (٦٠٦)

وكان بدء الهجوم لإسلامى صباح يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٤ يوليو ١١٨٧ م والمسلمون يصيحون : الله أكبر ، وصلاح الدين على رأسهم يحرصهم على القتال ، ورغم محاولة الفرنج التماسك فإن قواتهم بدأت في الانهيار بعد أن أصعبهم الظمأ الشديد ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على صليب الصليبيات منهم فكان هذا وقعه الأليم عليهم فقد أبقتوا بعده بالقتل والحلاك (٦٠٧) .

(٦٠٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٢٨

(٦٠٣) الكامل ج ٩ ص ٧٧ ورسيدان ج ٣ ص ٧٢٨

(٦٠٤) Kerr, The crusades, P. 49.

(٦٠٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ King, The Knights Hospitallers, PP, 125- 126.

(٦٠٦) رسيدان ج ٣ ص ٧٢٩

(٦٠٧) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ وانظر

Kerr, The crusades P. 49

وقد هرب ريموند في أوائل الأمر قبل اشتداده (٦٠٨) ، ووصل إلى طرابلس حيث لم يلبث قليلاً ومات ، عيطاً وحنقاً مما جرى على الفرنج خاصة ، وعلى دين النصرانية عامة (٦٠٩)

وقد تمكن المسلمون من إسقاط حيمة جى لوزجان ، وما إن سقطت خيمته حتى أسرع الفرنج جميعاً بالتسليم ووقع ملوكهم وأمرؤهم أسرى في يدى صلاح الدين وكان من أسر : الملك وأخوه والبرس أرناط صاحب الكرك (٦١٠) وكان عدد القتل كثيراً كما كان عدد الأسرى كثيراً ، فكان من يرى القتل لا يبطئ أنهم أسروا أحداً ، ومن يرى الأسرى لا يبطئ أنهم قتلوا أحداً ، ولم يصب الفرنج مذ حرجوا إلى الساحل أى سنة ٤٩١ هـ بمثل هذه الواقعة (٦١١) .

وقال ابن الأثير الذي مر بمكان المعركة بعد سنة ، ولقد اجترت بموقع الواقعة بعدها سحوسة ، فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبر على المعد منها : المحتمم بعصه على بعض ومنها المترق ، هذا سوى ما جمعتة السيول ، وأخذته السباع في تلك الأكام والوهاد (٦١٢)

واستقبل صلاح الدين - بعد تمام نصره - الأسرى وميهم جى لوزجان وريثا الدشاتيون أمير الكرك والشوبك (٦١٣) ، فسقى الملك ماء

(٦٠٨) الوارد السلطان من ١٢٢ وقصة المختصر ج ٢ ص ٩٦ والمجموع الزامرة ج ٦ ص ٣٢

(٦٠٩) الكامل ج ٩ ص ١٨٩ ، حيث لم يسل من عشرين ألف فارس ورجال إلا من هرب أو سقط في الأسر ، كما قتل مقدم الاستبابة وعدد كبير من أسباطهم

سورما وسان وعلطن ص ٢٢٧

King, The Right hospitallers, P, 120

(٦١٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ وانظر Kerr, The crusades, P 49

(٦١١) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ والمختصرة في أخبار البشر ج ٣ ص ٨٢

Brokeman, history of Islamic people, P. 228

Grousset, histoire des croisades, T 2 P 802

(٦١٢) الكامل ج ٩ ص ١٧٩



وكان لقد النصر الكبير في حطين ما بعده حيث كان له أثره الكبير في فتح  
الطريق إلى بقية الممتلكات الفريجية ، وكان مسيحا لفتح بلاد  
الساحل (١٢٩) وكان بدء صلاح الدين بالمدن الساحلية لأنه كان يرمى من  
وراء ذلك إلى هدمين :

أولها حصر الفرنج في بلاد الشام ، وحرمانهم من الاتصال بعرب  
أوربا وثانيها تحقيق الاتصال السريع بين شطري دولته في مصر  
والشام (١٣٠)

وقد نجح صلاح الدين في الاستيلاء على عكا وعرة وحيفا وصيدا  
وبيروت وحبل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية ، كما استولى على  
بعض الأماكن القريبة من القدس مثل الرملة والخليل وبيت لحم  
ونابلس (١٣١) ونأهب بعد ذلك على وأمن عساكر مصر لحصار  
القدس (١٣٢)

وفاء في وصف ما فعل بأسرى الفرنج وقتل وبياد

بأيام حطين والأبطال حابسة  
رأيت فيها عظم الكفر حصراً  
بظهر سيف يرى رأس الجيس قد  
وخاص يظفر ذك الرأس في وجه  
كأنه ضمد في الله قد خطبا  
الكلاني من ٣٠

(١٣٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ سوريا ولبنان وفلسطين

وانظر Saunders, A history of Medieval Islam, P 165

(١٣٤) تاريخ الحرية الإسلامية ص ٢٨٠ Stevenson, The crusaders in the East, P 249

(١٣٥) المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٧٢ ولقاء جلي من ٢٤٥ وانظر

Brokeman, history of Islamic People, P 228

(١٣٦) وهذا يدل على أن صلاح الدين أصبح يعتمد على العسكر المصري في المعركة الخامسة

### فتح بيت المقدس :-

تقدم صلاح الدين إلى بيت المقدس لتحليله من الفرنج (١٣٧) ، رأى  
على سورة من الرجال ما هانه ، وكان من به صمموا على الدفاع عنه ،  
وكلهم « يرى الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس ،  
ويأخذوه منهم ، ويرى أن بدل نفسه أسير عليهم من أن يملك المسلمون  
البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، ويرى أن بدل نفسه وولاده بعض  
ما يجب عليه من حفظه (١٣٨) ، وقد حصوا المدينة ماوسعهم التحصين ،  
وبصوا المجيقات لتحويل دون دخول المسلمين ، وتمكنت حامية المدينة  
فعلاً من قتل بعض جنود صلاح الدين الذين خرجوا ليكربوا يرك (١٣٩)

ولكن صلاح الدين الذي كان مصمماً على تحليل بيت المقدس ظل  
خمس أيام يمر على سور المدينة يبحث عن أضعف الأماكن فيه ، ليهاجمها  
منه ، ووجد ذلك في الجهة الشمالية نحو عمود أو كيسة صهيون (١٤٠) ،  
وتمكن في الليل من نصب مجيقاته حيث بدأ يصب حمماً على المدينة في  
الصباح ، ودارت معركة رهبة بين الطرفين ، وحارب الفرنج بكل قوتهم .

(١٤١) وكان فتح بيت المقدس أملاً إسلامياً ، حتى كان الشعراء يمجزون صلاح الدين على فتحه  
فقال النقاد

فصر - والفتح القدس واسمك به  
واحد إلى الاستبشار البشار و - وهذا السقف على الأسقف  
كبلاني من ٣٠٥

ومن أنظر التحريض مقال أحد الشعراء على لسان بيت المقدس

باليها الملك الذي لحام الصليان نكس  
جاءت إليك ظلامه تسمى من الجيب للقدس  
كل المساجد ظهرت وأما عن شرقي مجر  
من المصدر من ٣٠٥

(١٤٢) الكامل ج ٩ ص ١٨٢

(١٤٣) البرك وانجح أيرك ومعناها الطلائع التعرف بمصطلحات صبح الأعشى من

٣٦٤

(١٤٤) مختصر تاريخ ابن العربي ص ٢٢٠

وقاتل المسلمون أشد قتالاً ، ووصف ابن الأثير ذلك بقوله : فأصبح صلاح الدين من العدة قد مرغ من نصها ، ورمى بها ، ونصب الفرنج على سور البلد محيقات ، ورموا بها ، وقوتلوا أشد قتالاً رآه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديباً وحياً واحداً ، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى (١٣٤) ، وتمكن رجال صلاح الدين من بفت السور ، وزاد قتال المسلمين ، وتحكموا فى رمى محيقاتهم على الفرنج ، حتى أدرك هؤلاء الأعداء أمامهم من طلب الأمان من صلاح الدين ، وسعى فى ذلك كراؤهم ، حتى أحاسهم صلاح الدين بعد طول رجاء ، على أن يدفعوا عن الرجل عشرة دنانير ، يستوى فى ذلك العسى والعقير ، وعن الطفل دينارين وعن المرأة خمسة دنانير ، وأن يتم ذلك فى بحر أربعين يوماً ، فإذا انقضت المدة ، فكل من لم يدفع يصح مملوكاً للمسلمين (١٣٥).

ورب الصلح على هذا الأساس ، وسلمت المدينة إلى صلاح الدين يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م (١٣٦) ، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الاعلام الإسلامية على الأسوار (١٣٧).

وقد خطب القاضي محى الدين بن ركن الدين فى أول جمعة صليت بالقدس بعد لفتح ، وكان هو الذى قال للسلطان يوم فتح حلب

وفتحه حلباً بالسيف فى صفر - مشر مفتح القدس فى رجب (١٣٨)

وهكذا عاد بيت المقدس إلى أحضان المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبرى ودوى صوت المؤذن فى المسجد الأقصى وسكت ناقوس

(١٣٤) الكامل ج ٩ ص ١٨٢

(١٣٥) المنع القسى ص ٥٣ والوارد السلطانية ص ١٢٩ وانظر مختصر تاريخ ابن العبرى ص ٢٢١

(١٣٦) Ency. de L. sl, (art al-Kuds) T 2, 1165-6

(١٣٧) الكس ج ٩ ص ١٨٣ و Brokelman, history of Islamic people, P 229

وفرة جلبي ص ٢٤٥

(١٣٨) انظر الخطبة فى صلاح الدين

المسيحيين (١٣٩) ، وقد تم تحرير بيت المقدس عن أيدي العسكر المصرى وهذا من شأنه أن يكون أمراً تفخر به مصر وعسكرها على صائر الأمصار (١٤٠)

وقد وثب صلاح الدين على كل باب من أبواب مدينة القدس آمباً يجمع الجزية التى قدرها على الناس ، وكان يمكن لهذه الأموال لو جمعت أن تكون ثروة عظيمة ، حيث كان أهل بيت المقدس على الصسط ٦٠ ألف رجل مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان (١٤١) ، غير أن هؤلاء الأسماء المرتين استعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا فيه الأمانة ، واقتسم الأسماء الأموال ، وتفرقت أيدي سبا ، ولو أدبت فيه الأمانة لملا الخزان وعم الناس (١٤٢)

وقد اختلف سلوك المسلمين حيال الفرنج ، فقد اختلف تمام الاختلاف عن سلوك الفرنج عندما دخلوا تلك المدينة مد ثمانى وثمانين سنة مما استوجب شهادة المؤرخين الأجانب بذلك ، فقال رسيبان : « الواقع أن المسلمين الظاهريين اشتهروا بالاستقامة والاسابية ، فيها كان الفرنج مد ثمانى وثمانين سنة يحوطون دماء صحاباهم ، لم تنعرض الآن دار من الدور للهب ، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه ، إذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يصمون كل اعتداء يقع عن المسيحيين (١٤٣)

أما ابن الأثير - وكان ممن لا يميل إلى صلاح الدين - فقال : « وهذه المكرومة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر من الخطاطب رضى الله

(١٣٩) موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٥ ص ٦١٨

(١٤٠) المنع القسى ص ٢٩

(١٤١) الكامل ج ٩ ص ١٨٣ ودون الإسلام ج ٢ ص ٩٥ وفترهم العهد بآلة ألف المنع القسى ص ٤٣

(١٤٢) من المصدر ج ٦ ص ١٨٣ وكلمة المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٩٧

(١٤٣) انظر الخطبة فى صلاح الدين

منه ، غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخراً وشرافاً (٦٩١) ،

وكانت ربة الفرح التي صادت المسلمين بعودة بيت المقدس تفوق كل  
خيال ، أطلقت العنان للشعراء المسلمين ليحروا عن احساس الشعب  
لاسلامي بهذا الفتح المبين (٦٩٥)

قد قال صلاح الدين بعد استلام القدس : « ومتى يسر الله فتح بقية  
لساحل قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر إلى  
مراثهم ، وأنتعتم فيه حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله  
ولموت (٦٩٦) .

### استلام حصني الشويك والكرك -

كانت السيدة سيماني سيدة إقطاع ماوراء نهر الأردن إحدى أسيرات  
(٦٩٤) الكامل ج ٩ ص ١٨٦

(٦٩٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٥٤

(٦٩٦) وقد ذكر فتح صلاح الدين القدس الشعراء بمصر في الخطاب فمن ذلك قول ابن  
سليمان

ليست نسي الخطاب شاهد فتحها      فيشهد أن السيد من يوسف أضي  
الكلابي ص ٣٩٥

وقال في مصر التي يفتح صلاح الدين  
والفتح البيت المقدس بدمها  
« ضيعة فتح كان ثلثي ضيعة  
من المصير ص ٣٩٦

ولساية الجواني قصيدة طليحة يقول فيها  
الري منسأ ما يعمسى أبصر  
قد جاء نصر الله والفتح الذي  
دول الاسلام ج ٢ ص ٩٥

وقال العماد لصلاح الدين

فلا يستحق القدس قبرك في السورى  
وطهرته من وجهه بدمائهم  
وقد شاع في الأفاق عك بشيرة  
فأنت الذي من دونهم فتح القدس  
فأدبت بالرحمى الذي ذهب الرحما  
بان أذن القدس قد بطل الدنيا

صلاح الدين ، وتم هداؤها في بيت المقدس ، كما وافق صلاح الدين  
كذلك أن يفرج عن ابنها همري صاحب نسين على شريطة أن يستسلم  
حصنها الكبيران « الشويك والكرك » ، ولكن حامية الحصن رفض  
الانصياع لأوامرها ، مما دفع بها إلى أن تعيد اسمها إلى أسر صلاح الدين ،  
فقابل صلاح الدين تصرفها الحميد بأن أطلق مراح همري هـ

وفي تلك الأثناء وصل الملك العادل أخو صلاح الدين ، وحاصر حصن  
الكرك ما يريد عن سنة (٦٩٧) ، وعرض أهلها للهلاك جوعاً حتى أدعوا  
بالاستسلام بعد أن أكلوا آخر حصان تبقى لديهم (٦٩٨) ، وبعد أن لم يعد  
لديهم للصبر محال (٦٩٩) وكان استسلامهم في سنة ٥٨٤ هـ / آخر سنة  
١١٨٨ م ، وكذلك استسلمت حامية الشويك بعد تسليم الكرك بعدة  
شهور (٧٠٠) ، وكان هذا فتحاً حليلاً بالسطر إلى قيمة هذين الحصين  
وحطورتها ، وبذلك « فرغ القلب من تلك الساحة » ، وألقى الاسلام  
هناك جرحه ، وأمت قلوب في ذلك الصقع من البلاد كالمقدس وغيره منهم  
كانوا من بتلك الحصون وجليين ، ومن شرهم مشغعين (٧٠١)

صور :-

كانت صور مركز استقبال للفرنج الذين سلموا مواقعهم حيث طلبوا  
المحجرة إليها بأسلحتهم ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، أما كونراد دي  
مونتفرات Conrad de Montefrat الملقب بالمركيس (٧٠٢) الذي وصدها قادماً

(٦٩٧) ربيع ج ٢ ص ٧٥٧

(٦٩٨) مصر المصير ج ٢ ص ٧٥٧

(٦٩٩) مرجع الكرك ج ٢ ص ٢٧١ وفيها أصاب الكرك في هذه الحرب قال ابن سناء الملك  
هل الكرك الشكل بلولاهما انتهت      من السبل مما جرعه من الشكل  
المرى ص ٣٧٥

(٧٠٠) وهكذا استسلم الحصان بعد وفاة نور الدين بنحو ١٤ عاماً كملأ

مصر والشام والصليبيون ص ١٣٤

(٧٠١) الكامل ج ٩ ص ١٩٦ والرومين ج ٢ ص ٩٦

(٧٠٢) الكامل ج ٩ ص ١٨١ وهو شقيق أول زوج للملكة سيبلا - ربيع ج ٢ ص ٧٦٢



من القسطنطينية (٦٥٧) فوجدتها لقمة سائغة بعد فرار ريموند الثالث إلى طرابلس ، ولم يكن مونتفرات يعلم بها حل بالفرنج من المصائب في الشام ، وكان يؤسر في عكا على يد المسلمين ، ولقى كوبراددي مونتفرات الترحيب في صور على أنه متخذ المدينة (٦٥٨) التي كان صلاح الدين ترك حصارها حتى « يفرغ باله عما يجاورها من نواحيها ليسهل أحدها » وذلك نظراً لقوة حصانتها « فكان ذلك سبب حفظها » (٦٥٩) .

وأصبح مونتفرات ملكاً على صور ، وأخذ يعمل على تحصينها بحمر حتى عميق حولها وعمل أسواراً جديدة ، حتى صارت صور معقلاً مهيأً نج يصعب اقتحامه (٦٥٦) .

وقد أرسل جوسياس Gossios رئيس أساقفته صور إلى غرب أوروبا يطلب المساعدة من البابوية وملوك غرب أوروبا (٦٥٧) .

وقد أحقق صلاح الدين فعلاً في استرجاع صور مرة بعد خطين وأخرى بعد تحرير بيت المقدس نتيجة للجوء الفرنج المهزومين من قلاعهم إليها (٦٥٨) وزعماء كوبراددي مونتفرات : ويلقى ابن الأثير المشولية على صلاح الدين في ذلك حيث يقول : « ولم يكن لأحد ذنب في أهلها غير صلاح الدين : فإنه جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وحسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الأموال ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال

(٦٥) وكان مضياً فيها غير أنه تورط في جريمة قتل وقع بها ، فهرب سراً متوجهاً إلى فلسطين ، جازلاً على عكا التي كانت سقطت في يد صلاح الدين ، ولم يكن يعلم بذلك ، فاجاز بالسرعة إلى صور .

(٦٥٩) ديسان ج ٢ ص ٧٦٣

(٦٥٩) الكمال ج ٩ ص ١٨١ و Kerr, The crusades, P. 49

(٦٥٦) Grousset, histoire des croisades, T 2 PP. 822- 823

(٦٥٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٤٢

(٦٥٨) المدح اللبي ص ٥٧

غيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدهم بالنصرة ، وأمرهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم التي يحتضنون بها ويلجئون إليها فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها (٦٥٩) ثم يقول موجهاً اللوم إلى صلاح الدين : « ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حارماً حير له من أن يظفر مفرطاً مضيقاً للحزم ، وأعذر له عبد الناس (٦٦٠) » ، وبمهم من هذا أن ابن الأثير كان يرى أن التسامح والعفو - وهما خصلتان تميز بها صلاح الدين في حروبه مع الفرنج - كانا خطأ من صلاح الدين ، في تعامله معهم ، ولو أنه اتخذ معهم سياسة أكثر عماً ما وجدت مشكلة صور ويوافقه في ذلك لين بول أحد مؤرخي الغرب - ضمناً - بحديثه عن هزيمة صور بالنسبة لصلاح الدين حيث يقول : « كانت هزيمة صور نقطة تحول في تاريخ انتصارات صلاح الدين - لقد كانت هزيمة ساحقة وعلطة يصعب علاجها ، إذ أصبحت صور بعدها نقطة تجمع فيها الصليبيون وانتشروا منها في سواحل فلسطين - ولولم تكن هذه المدينة الواحدة قد نجحت في مقاومتها لكان من المحتمل ألا يسمع العالم أبدأ بالحرب الصليبية الثالثة (٦٦١) » .

ولعله يشفع لصلاح الدين أنه كان يرمى من وراء السباح للفرنج بالتجمع في مدينة صور أن يتمكن من مواجهة جنود الأعداء مجتمعين في مكان واحد بدلاً من توزيعهم ونشرهم في أماكن عديدة ولكنه كان يمكنه ألا يسمح هؤلاء أن يهاجروا إلى صور بأسلحتهم إذا كان تجريدهم من أسلحتهم أمراً يتفق مع العفو عنهم وهم مهرومون (٦٦٢)

كذلك يشجع له أنه استولى على العديد من مدن الساحل مما كان يصلح

(٦٥٩) الكمال ج ٩ ص ١٨٧

(٦٦٠) الكمال ج ٩ ص ١٨٧

(٦٦١) مصر والشام والصليبيون ص ١٥٤

## رد الفعل الأوربي أو : الحملة الصليبية الثالثة

وقد تمثل رد الفعل العربي الأوربي الذي أصيب بالدعر لفقد بيت المقدس<sup>(٦٦٨)</sup> ، وماتلاه من احتلال كبير من القلاع مثل : السلاقية ، وجبله ، والكرك والشوبك ، وصفد ، وكوك ، واطرسوس ، تمثل رد الفعل هذا في حملة صليبية جديدة هي الحملة الثالثة ، تلك الحملة التي كان كوبراد دي مونتيرات من المحرضين عليها بعد أن تمكن من صور وادع عنها بشجاعة أحطت جهود صلاح الدين للاستيلاء عليها ، وذلك حيث أرسل إلى العرب يلتبس الجدة<sup>(٦٦٩)</sup> ، وكان من أقوى الوسائل التي استخدمها في طلب الجدة لوحة كبيرة بعث بها إلى العرب ، وحرى الطواف بها في أوروبا وهي تمثل القبر المقدس وقد لوثته خيول المسلمين<sup>(٦٧٠)</sup> أو صورة لرجل عربي يضرب المسيح ، والدعاء تسيل على صورة المسيح وقالوا لهم . هذا المسيح يصره محمد بن المسلمين<sup>(٦٧١)</sup> ، وتولى أمر التبشير بالحملة الصليبية البابا جريجوري الثامن الذي أرسل خطباً دورياً يحث فيه العربيين على التطوع في حملة صليبية جديدة لانقاذ إخوانهم في الشام<sup>(٦٧٢)</sup> ، وتولى جريجوري الثامن دون أن

محاطاً بجود صليبيين يقدمون من البحر ، دون الوقوف عند صور التي قد يستلزم حصارها وقتاً طويلاً يكفى لوصول الحملة الصليبية الجديدة التي كان تحركها أمراً محتوماً ، ونزول قواتها في أماكن مستعدة للترحيب بها في عكا ويافا وحيفا وأرسوف وغيرها من المواقع الممتدة على الساحل الشبالي مما يتسبب في تمزيق جيوش المسلمين ، وإصابتها بضريرة قاصمة<sup>(٦٦٤)</sup>

وعلى أية حال فإنه لم يبق من مملكة بيت المقدس الصليبية سوى مدينة صور التي لم يتمكن صلاح الدين من استرجاعها لحصانها ، ولتمركز الفرنج المهاجرين من المواقع التي هزموا فيها إليها<sup>(٦٦٥)</sup> ، ولم يكن للفرنج في شمال المملكة سوى أنطاكية وطرابلس وحصن المرقب التاسع للاستتارية ، وبذلك اعتدل ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب<sup>(٦٦٥)</sup> وفي ذلك يقول باركر : « ارتدت عقارب الساعة الى الوراء ، وعادت الأمور من جديد إلى ماكانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى<sup>(٦٦٦)</sup> »

وقد رداد حال الفرنج سوءاً حيث بدؤوا يعتقدون أن السماء توليهم ظهرها عبر راضية لمسلكت المسيحيين تجاه المسلمين ، وذلك « بسبب الفصائل التي سمح الرب بتواليها على رؤوسهم ، وإلا فكيف لصلاح الدين أن يسترد منهم في ضربة واحدة تقريباً الأراضي التي اكتسبها المسيحيون بكثير من الدماء والتضحية<sup>(٦٦٧)</sup> »

Saunders, a history of Medieval Islam, P 156 (٦٦٨)

Michaud, histoire des croisades. (٦٦٩)

T 2, PP 314-315

Kerr, The Crusades, P. 51

(٦٧٠) الحروب الصليبية / باركر ص ١٠٩

(٦٧١) الكامل ج ٩ ص ٢٠١ والعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٧٣

(٦٧٢) روما وبريطانيا ص ٢٨٢ وانظر نص الخطاب في

Documents of Medieval history PP 64-67

وكان البابا غريغان الثاني قد علمت من هول الصدمة عندما علم بسقوط بيت المقدس

Kerr, The crusades P 51

(٦٦٣) مصر والشام والصليبيون ص ١٥١

Stevenson, The crusaders in The East, PP 224-225 (٦٦٤)

(٦٦٥) الوحدة وحركات البقعة / جويويف نسيم ص ٢٩

(٦٦٦) الحروب الصليبية . باركر ص ١٠٦

(٦٦٧) وكيف سمح ( غيباً بعد ) بفرق غرهريك في مياه نهر صحناء عندما ذهب ليمد يد للموت

يرى ثمار دعوته للملك غرب أوروبا (١٧٣)، ليتولى أمر تلك المهمة بعده الناب  
كليمنت الثالث Clement III الذي أمر أساقفته في كل مكان أن يشروا  
بحرب صليبية جديدة (١٧٤)، وأمر بإقامة صلوات خاصة في سائر الكنائس  
من أجل استعادة بيت المقدس (١٧٥).

وقد قوبلت الدعوة إلى الحملة الصليبية الثالثة بحماس  
زائد شبيه بالحماس الذي عمر عرب أوروبا أيام التنشيط بالحملة الصليبية  
الأولى (١٧٦)، وبناء على ذلك فقد اشترك العرب الأوروبي بكل ما يملك من  
إمكانات في تلك الحملة، حتى النساء اشتركن فيها وحدثن كما يجد  
الرجال (١٧٧)، فقد خرج إلى الشرق ملك ألمانيا فردريك بربروسا، كما  
قصد الشرق كذلك كل من ريتشارد قلب الأسد وويليب اغسطس ملك  
فرنسا. وقد فتكت الظروف بالحيش الألماني الذي كان أصحح جيش  
مستقل خرج إلى حرب صليبية، حيث بلغ تعداداه مائة ألف  
محارب (١٧٨)، فقد هلك الامبراطور عريقاً في مياه نهر السالف في بلاد  
أرمينيا (١٧٩)، ولم يبق من كل جيشه هذا سوى ألف رجل واصلوا سيرهم  
بقيادة فردريك السوابي ابن ملك ألمانيا (١٨٠).

وبذلك اقتضت الحملة على ملكي إنجلترا وفرنسا وبيهما ما بينهما من

Kerr, The crusades, P 51 (١٧٣)

Ibid, P 51 (١٧٤)

(١٧٥) أوروبا وبيروت ص ٢٨٧

(١٧٦) أوروبا وبيروت ص ٢٨٧

(١٧٧) الكامل ج ٢ ص ٢٠٩

Cam. Med. History Vol 5, P 411 (١٧٨)

Grpusset, histoire des croisades T3, P 10

Lone- Poole, Saladin, PP 197- 207

(١٧٩) أوروبا المصور الوسطى / نشر ص ١٩١

حسد قومي، وأرهما المدن الإيطالية جنوة وبيزا وبيها دجن ومو سيرة  
مصافاً إلى ذلك كوبراد دي مونفرات وجي لورجان، وتنافسها في سيل تاح  
بيت المقدس الذي لم يوجد إلا رمراً بعد ذهاب عمكة بيت المقدس وأرضها  
إلى صلاح الدين (١٨١).

ويصيق الحديث في هذا الكتاب عن الحديث الكامل عن تلك الحملة  
الصليبية الثالثة، ويكفي أن نبين نتائج هذه الحملة والتي يمكن أن  
نلخصها في ثلاثة أشياء :

١ - تمكن الصليبيون الخدد يعاونهم العرج المقيمون في استعادة بعض  
المواقع التي استولى عليها صلاح الدين من عكا إلى يافا .

٢ - تمكن صلاح الدين من إثبات قوة المسلمين في هذا الدور، وتكرر  
من حط بيت المقدس بعد القيام بتحصينه .

٣ - انتهت الحملة الثالثة بتوقيع صلح الرملة في يوم الثلاثاء ٢١ شعبان  
سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م (١٨٢)، وبمقتضى ذلك الصلح :-

أ - احتفظ كل فريق بما في يده، فأصبح للفرنج من صور إلى يافا  
عنها قيسارية، وحيفا، وأرسوف، وللمسلمين على الساحل الشمالي  
صيدا وبيروت وجبيل ومعظم داخلية البلاد وأن تكون الرملة واللد ماصفة  
بين المسلمين والصليبيين (١٨٣).

ب - تخريب أسوار مدينة عسقلان التي كان ريتشارد قد حصنها،  
وذلك لتكون منطقة منزوعة السلاح No man's Land

ج - يسمح للمسيحيين بأن يجمعوا إلى بيت المقدس في حرية وأمان  
دون تدخل من المسلمين .

(١٨١) أوروبا المصور الوسطى / نشر ص ١٩١

(١٨٢) العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٢ وقرعة جلي ص ٢٤٦ وانظر

Brokelman, history of Islamic People, P 229

د- يتولى الملك العادل أخو صلاح الدين - ومثله في مفاوضات الصلح - حكم مدينة بيت المقدس .  
هـ- تكون مدة هذه الهدنة ثلاثة أعوام وثلاثية أشهر ، هدنة عامة في البر والبحر ، والسهول والوعر (٦٨٨) .

وقد شهد رسل الفريخ الدين حصرهم ومفاوضات الصلح بكتابة صلاح الدين في العدو فقال أحدهم « ما عمل أحد في الإسلام ما عملت ، ولا هلك من الفريخ مثل ما هلك منهم هذه الهدنة ، فإننا أحصينا من خرج إليها من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف ما عاد منهم إلى بلاده من كل عشرة واحد ، بعضهم قتلهم أنت وبعضهم فارق » (٦٨٨) .

وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً ، عم فيه الطائفتين الفريخ والسرور لما ناهم من طول الحرب (٦٨٦) . وهذه أول مرة تنتهي حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق يجمعهما على التعايش وقبول الواقع Modus vivendi (٦٨٧) .

ولاشك أن الحاج كان من نصيب المسلمين وقد عبر عن ذلك ليس بول فقال « قل انتصار حطين لم يكن في يد المسلمين بواصة واحدة من أرض فلسطين عرسي الأردن ، وبعد صلح الرملة في سبتمبر سنة ١١٩٢ ، فقد أصبحت جميع الأراضي منكاً لهم ماعدا جزء صيق من الساحل بين صور وبيافا » (٦٨٨) .

(٦٨٤) الكامل ج ٩ ص ٢٢١ والملاحق بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٨٣ ، ١٨٤ وانظر

Kerr, The crusades, P. 58

ويجمل صاحب السلوك وابن الفرات المصري مدة هدنة ثلاث أعوام وثلاثة أشهر السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٧ وابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٨٤

(٦٨٥) الكامل ج ٩ ص ٢٢٢

(٦٨٦) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٨ والوارد السلطانية ص ٣٩٠

(٦٨٧) العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٨٤

أما الحملة الصليبية الثالثة فقد كانت حملة فاشلة ، وكان الصلح نصراً لصلاح الدين « حيث كان إيداناً بعودة ريتشارد إلى بلاده دون أن يحقق الأمل الذي كاه من أجله إلى الشرق حيث كان الهدف الأساسي للحملة هو استرداد بيت المقدس (٦٨٩) » ، كما كان من أهدافها شل قوة السلطنة المصرية المتصاعدة ، وانتهت الحملة بالفشل وقوة مصر موضع المهمة عظمى تكاد تطلع حد الخرافة (٦٩٠) .

ولخص فيشر مبلغ فشل الحملة مقاساً إلى ما حصلت عليه حيث قال أنها لم تأت بشيء يذكر . « ماعدا استيلاء الصليبيين على عكا ، وموافقة صلاح الدين على هدنة تضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة ببيت المقدس » ثم يقول : « ومن هذه النتيجة تنضح شاعة الخرافة التي حلت بها عقد على تلك الحملة من آمال » (٦٩١) .

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين وقع على هذا الصلح تحت ضغط الظروف حيث رأى فيه المصلحة لسامة العسكر وتظاهرهم بالمحاربة ، وقد قال ابن شدد مؤكداً ذلك « والله العظيم ، إن لصلح لم يكن من إشارته ، فإنه قال في بعض محاوراته في الصلح : أحاف أن أصالح ، وما أدرى أي شيء يكون فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته - يعني حصه ، وقال : لا أنزل بهلك المسلمون » ثم قال « هذا كلامه ، وكان كما قال ، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسامة العسكر وتظاهرهم بالمحاربة » (٦٩٢) .

على أن هذا الصلح كان فعلاً في مصلحة المسلمين ، حيث لم يلبث

(٦٨٩) أوروبا العصور الوسطى / ديجر ص ١٩٧

(٦٩٠) أوروبا العصور الوسطى / سعيد عاشور ص ١٩٣

(٦٩١) أوروبا العصور الوسطى / ديجر ص ١٩١ وانظر رسيك ج ٣ ص ١٤٥ و

Saunders, a history of Medieval Islam, P. 165

صلاح الدين أن توفي بعد توقيع الصلح في صفر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، وقد عبر ابن شداد عن ذلك حيث قال : « وكان ( أي الصلح ) مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه تمت وفاته بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء التوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان انصلح إلا توفيقاً وسعادة له (٦٩٣) »

وكانت وفاة صلاح الدين في الخامسة والخمسين من عمره حدثاً عظيماً وقع بالأمة الإسلامية وكان يوم وفاته « يوماً لم يصب الإسلام مثله مد فقدوا الخدباء الراشدين وعشى القلعة والبلد والديار من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى » ، ويضيف ابن شداد « وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا خرب من من التجور والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قتل الفداء لقدى بالنفس (٦٩٤) ، وقد عشى الناس من الحزن والسكاه عليه مالا يمكن حكايته (٦٩٥) ، وعمر الدهبي عما أصيب به أهل دمشق فقال « لقد عشى أهل دمشق يوم موته من السكاه والمويل والصحيح مالا يعبر عنه ، حتى كان الدنيا كلها تصبح صوتاً واحداً ، وعظم الأسف واشتد الفلق (٦٩٦) »

وقد أجمع المؤرخون في الشرق والغرب على عظمة صلاح الدين ، ولعلنا ندأ بما قاله عنه ابن الأثير - وكان لا يعمل إليه كما عرفنا - « وبالجملة فكان نادرأ في عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكمار ، وفتوحه ثقل على ذلك (٦٩٧) »

وقال العماد الكاتب « مات بموت السلطان الرجال ومات لوفاته

(٦٩٣) التوابع السلطانية ص ٣٩١

(٦٩٤) التوابع السلطانية ص ٤١٠

(٦٩٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٨٩ وثمة المختصر ج ٢ ص ١٠٧

(٦٩٦) دول الإسلام ج ٢ ص ١٠٤

(٦٩٧) الكامل ج ٩ ص ٢٢٦

الافصال ، وعصمت الأبادي ، وفاصت لأعادي ، وانقطعت الأرواح ، وادخمت الأفاق ، وجمع الرماح بواحدة وسقطه وررى الإسلام بمشيد أركانه (٦٩٨) »

وقال الدهبي « مات السلطان الكبير المحاهد في سبيل الله الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب (٦٩٩) »

وعرف المؤرخون المحدثون قيمة صلاح الدين يستوى في ذلك العربيون والشرقيون ، فحعل ماركز من أسباب فشل الحملة الصليبية الثالثة أنها حاربت جيوشاً « انصوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين (٧٠٠) »

وقال رسيان أن صلاح الدين « أثبت بالدليل القاطع مألدى الشرق من قوة وروح ، ففى وقعة قرون حطير ، وعلى أبواب بيت المقدس ، انتقم صلاح الدين لما حدث في الحرب الصليبية الأولى من المهامة والإدلال ، وأثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره (٧٠١) »

ووصفه سوندرز بأنه « مظل العالم الإسلامى الذى احترم من أعدائه المسيحيين كالمؤدج للفروسية الشرقية (٧٠٢) »

أما سيدني فغان « مات صلاح الدين وأعداؤه يعجبون من علو همته ، والمسلمون يأسفون على فقدته

أستقاله المؤرخون الإسلاميون المحدثون فكثير فقال أحدهم « لقد كان قائداً موهوباً تمثلت في شخصه كل المعاني التي كانت تدور في نفوس العرب والمسلمين فأبرزها باسم العرب والمسلمين (٧٠٣) »

(٦٩٨) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٨٧

(٦٩٩) دول الإسلام ج ٢ ص ١٠١

(٧٠٠) الحروب الصليبية لباركر ص ١٦٨ وانظر البحرية الإسلامية ج ١ ص ٢٩٢

(٧٠١) رسيان ج ٢ ص ٧٦٤ ، ٧٦٥

(٧٠٢) Saunders. A history of Medieval Islam, P. 185

(٧٠٣) موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٥ ص ٢٢٣

وهكذا مات صلاح الدين الأيوبي بعد أن أرسى دعائم دولته في مصر والشام ، محملاً وراءه مملكة واسعة الأطراف تمتد من حدود وبوس إلى حال أرمينيا (٧٠٨) ، وتدرجاً وراءه أرباءه السبعة عشر وإخوته وأبناء إخوته ، فهل ملأوا الفراغ الذي وجد يوماته ؟

وقال غيره . « وقد ترك صلاح الدين مراعاً مموته ، فعقد الاسلام به بطله وناصره ، إذا أنه لو مد عمره أكثر من ذلك لتمكن حتماً من القضاء على دولة الفرنجة في الشرق (٧٠٤) » وقال أنه « صوره الشرق اللامعة حينها يجد الرعيم الكعبه والقائد المخلص ، فيطلق إلى غايته من المجد والقوة ، والعزة والسلطان (٧٠٤) » ، وقال مؤرخ ثالث : « أما مكانة صلاح الدين في التاريخ فتستل عظمة أمد الدهر ، إذ يكفى ما قام به في سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيابهم ، ثم مواصلة الجهاد في صورة لاتعرف الملل لطرفة الغرارة الدخلاء (٧٠٦) »

وقد حظى صلاح الدين الأيوبي بعناية فائقة من الشعراء والأدباء لم يحظ بها أحد غيره من أبطال الحروب الصليبية على الإطلاق ، وقد رثاه الشعراء بالكثير من المراثي (٧٠٧) .

(٧٠٤) الملامات بين الشرق والغرب في المصور الوسطى ص ١٨٥

(٧٠٥) الناصر صلاح الدين ص ١٩٤

(٧٠٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١١

(٧٠٧) شهر الحادي عشر الحروب الصليبية ص ١٥٨

ويكفى هنا قول بعضهم

شمل المني والملك هم شنته  
بالله أي الناصر الملك الذي  
وبها

لا تحسبه شخصاً واحداً  
قد انظمت ملوكها صوره  
الدين بعد أبي المظفر يوسف  
لو كان في عصر النبي لأُتِرت  
بكت المصور والمصورين إذ خلت  
بارادها للدين حين تمكنت  
صل صلاح الدين يوسف دائماً  
قد هم كل العالمين بمات  
لا خلت من بنوه وفراجه  
أقوت قرأه وتغمرت ساحته  
في ذكره من ذكره آياته  
من مهلهل وركوبها عزائه  
مع اللاب وأسلمته رعايه  
رسوان رب المشرق بل صلواته



ورفع محله من الخلق ، فكلهم من مضارب إليه غير مصاه ، وجعل مملكته عربيا ، لا عتزارها بالأسد وشبله ، وبعثته ميراثاً ، أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله وأظهر في هذه القضية ، وأظهره في كل القضايا من فضله ( أمير المؤمنين ) وعدله . فأولياؤه كالأيات التى تسقى دررى أفضها المنبر ، وتسقى درر عقدها الطيم الصير . ما ينسج من أية أو نساها نأت بحير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير - السورة ٢ - البقرة - الآية ١٠٦ ك :

والحمد لله الذى أتم بأمر المؤمنين ، نعمة الإرشاد وجعله أولى من للحلق ساد ، وللحق رشاد ، وأثره بالمقام الذى لا ينفى إلا له في عصره . وأظهر له من معجزات نصره ، ما لا يستغل العدد محصره ، وجمع لم والاه ، بين رفع قدره ووضع إصره ، وجعل الإمامة محفوظة في عقبه ، والمقصات تحفظ بأمره ، وأودعه الحكم التى رآه لها أحوط من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه المحر الذى جهل من ظن غير نوره مطلعاه وإنه عالم يؤت أحداً وأمات به غيا ، وأحيأ به رشداً ، وأقامه لدين عاصداً ، فأصبح به معتضداً ( وحفظ به مقام جده ، وإن رعم المستكبرون ، وأعم به على أمته إماماً لولاه ماكانوا يظفرون ولا يصرون و ماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون - السورة ٨ - الأنفال - الآية ٣٣ ) .

يحمده ( أمير المؤمنين ) على ماأنه من توفيق يذلل له الصعب الجوامح . ويلبني عنه البعيد السارح . ويخلف على السدين صلاحه ، والخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد السعد ، ويريه آيات الإرشاد ، فإنه بار قدح القادح .

ويسأله أن يصل على ( جده ) محمد الذى أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وأظهر بهديه من رجى الكفر وحشه ، وأجار بأبلاغه من عتب الشيطان وعبته ، وأوضح جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثله .

## ملحق رقم ١

« منشور تولية الخليفة العاصد لصلاح الدين وزيراً للديار المصرية » (٧٠٩)

من عبد الله ووليه أبى محمد العاصد لدين الله ، أمير المؤمنين إلى السيد الأجل ، الملك الناصر مصطفى الأئمة ، محمد الأمة ، صلاح الدين ، كافل قصاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى المظفر يوسف بن أيوب العاصدى عهد الله به الدولة ، وأمتع بطوله بقاءه ، أمير المؤمنين وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين ، يحمد الله الذى لا إله إلا هو يسأله أن يصل على جده محمد حاتم النبیین ، ومسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعن آله الأئمة الطاهرين المهديين وسلم تسليماً

أما بعد ، فالحمد لله مصرف الأقدار ، ومشرف الأقدار ، ومحصى الأعمال والأعيان ، وعالم سر الليل ، وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين ، ملكاً تتعاقب فيه أحوال الأقيار بين انقضاء وسرار ، واستقبال أمدار ، وروصاً إذا أوت فيه اللوحات أيسعت الفروع ، سائقة السور ، باسقة الثمار ، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفصل أصولها ، والخواهر المستخرجة من أمصى بصولها ، والقائم بصرة دولته ، فلاتزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، قائمة على أصولها

والحمد لله الذى اختار لأمر المؤمنين ودله على مكان الاحتيار ، وأعبه باقتصاب الألقام ، عن رواية الاختيار ، وعصده به الدين الذى ارتضاه ، وعصده بمن ارتضاه ، وأبجز له من وعد السعد ماقتضاه ، بل اقتضاه ،

وعلى (أيضا) أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، الذي جادلت يده  
بلسان دى الفجار ، وقسم ولائه وعداواته بين الأتقياء والأشقياء ، الجنة  
والنار ، وعلى الأئمة من ذريتهما ، الذين أدل الله بعزيمتهم أهل الإلحاد ،  
وأصفى بها سفكوه من دعائهم ، موارد الرشاد ، وحررت أيديهم وألستهم  
بأنفوس القلوب ، وأرزاق العباد . وسلمهم ومعد ووالى وحدد

وان الله سبحانه ، ما أحلى قط دولة فلان ( أمير المؤمنين ) التى هي  
مهبط الهدى ، وعطى الهدى ومورد الحياة للول ، والردى ، للعدا ، من  
لطف يتلاقى الحادثة ويشبعها ويرأها ، ونعمة تبلغ بها النفوس مالا تبلغ  
أربها ، وموهبة تشد موضع الكم ، وتسد موضع الثلم ، وتجل غنائم  
العم ، وتعلم مفانم العم ، وتستوفى شرائط الحاج وتستدنى عوارط  
المصالح ، ولم يكن ينسى الحادثة فى السيد الأجل ، الملك المصور ، أسد  
الدين ، أبى الحارث شيركوه - رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقلبه  
ومثواه - التى كدت لها أو احى الملك ترعزع ، ومناهى التدبير تصمصع ،  
إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين ، العاصد مور الله من اصطفاها ، أيها السيد  
الأجل ، الملك الناصر - أدام الله قدرتك - لأد تقوم بخدمته بعده ، وتسد  
فى تقدمه جيوشه منه ، وتقوى ولأنه أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره ، قوارت  
العادحة فيه النعمة منك . حتى تستوى حظه منه ( أمير المؤمنين ) بأجر  
لا يصعب الله عمله ، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له  
وحمله - واستحق أن يبصر الله وجهه ، بما أحلفه الله من جسمه ، فى  
مواقف الجهاد ، وبدله ومضى فى ذمام رضا أمير المؤمنين وهو الزمام الذى  
لا يقطع الله منه مأمرة أن بصله ، واتبع بدعائه بتحف أول ما تلقاه بالروح  
والريحان ، وذخرت له من شفاعته ما عليه محول أهل الإياد ، فى الأمان .  
فرعى الله له قطعة اليبداء إليه ( أمير المؤمنين ) وتجمسه الأسفار ، ووطأه  
الموطى ، التى تعيط الكمار ، وطلوعه على الأبواب ، طلوع أنوار النهار ،  
وهجرته التى تعيط الكمار ، وطلوعه على الأبواب ، طلوع أنوار النهار ،  
وهجرته التى جمعت له أجريين - أحر المهاجرين وأحر الأنصار ، وشكره

ذلك المسمى الذى بلغ من الشرك الثأر ، وبلغ الاسلام الايثار ، ومالقى  
ربه حتى تعرض للشهادة ، بين مختلف الصعاح ، ومشتحر الرياح ،  
ومفترق الأجسام من الأرواح . وكانت مشاهدته لأمير المؤمنين أحرأ فوق  
الشهادة ، ومنه الله تعالى عليه ما ، ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ،  
وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر - أدام الله قدرتك - وقد أقررت  
بأظره ، وأرغمت مناصره ، وشددت سلطانه ، وسددت مكانه ، ورمى  
بك فأصاب ، وصفى بك فصاف ، وجمعت ما فيه من أهة المشيب ، إلى  
ما فيه من مضاء الشباب ، ولقت ما أمادته التجارب حدة ، وأعانتك  
المحاسن التى هى حيث جلة ، وقلب عليك إساد الفتكات فتقلت ،  
وأوضح لك منهاج البركات فتقلت ، وسددت سهبا وجردت شهبا ،  
واتصاك فارصاك عربا ، وأترك على أثر ولده إمامه فى التدبير وحرما ،  
وكنت فى السلم لسانه لأخذ بمجامع القلوب ، وفى الحرب سانه لافد  
فى مصائق الخطوب ، وساقته إذا طلب ، وظليته إذا طلب ، وقلب جيشه  
إذا ثبت ، وجهه إذا وثب ، ولا عذر لشل شأى ححر أسد . ولا هلال  
استملى النور من شمس واستمد .

هذا ولو لم يكن لك هذا الاساد فى هذا الحديث ، وهذا اسد الجامع  
من قلبهم الفجر وحديث لأعتك عريرة ، وسحبة سحبة ، وشيمة  
وسيمة ، وحلائق فيها ما تحب حلائق ، وبحائر لا يجر مثلها حائر ،  
ومحاسن ماؤها غير آس ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر عقل عبا الأول  
ليتأثر بها الآخر ، ومراغة لسان ينسجم فطارها ، وشجاعه حان نصطرم  
نارها ، وحلال جلال عليك شواهد أنوارها ، تتوصح ، ومسامى مساعد  
لديك ، كيثام مورها تتمتع ، فكيف وقد جمعت لك فى المنجد ، بين مصر  
وأب وهم ، ووجب أن سالك من اصطفاها أمير المؤمنين ، ماذا حصل ،  
ثم على الخلق عم ، فيومك واسطة فى المنجد ، بين هدك وأمسك ، وكل  
أدام : أدام الله الفخار الذى . أدام الله الفخار الذى . أدام الله الفخار الذى .



أَنْ أُنْعِمَ ( أمير المؤمنين ) موصولة بمكم بوالد وولد ، وإن شمس ملكه  
بكم كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأمد

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سبائه ، ولأه من اختيارك قلبه ،  
وقامت حجته عند الله باستفتائك وريراً له « وورر » لليلة ، فاحت  
مرشد الإلهام ، وأصامت له مقاصد ، ولا تغفلها كل الأهمام ، وعزم له  
على أن قللك تدبير مدينته ، الذي أعزقت في إرثه ، وأعزقت في كسبه ،  
وهذه لك أبعد غابة في المعمر ، بما يسر لك من قربه .

ولقد سبق ( أمير المؤمنين ) إلى اختيارك قل قول لسانه بصمير قلبه ،  
وذكر فيك قول ربه « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، السورة ٧ -  
الأعراف - الآية ٥٨ ك » ، ولقدك لأنك سبب من سيوف الله تعالى يحق  
به التقليد ، وله التقليد ، وأصطفاك على علم بأنك واحد منظم في معنى  
العميد ، وأحيا سلطان جيوشه من جده ، « الإمام المستنصر بالله » في  
أمير جيوشه الأول ، وأقامك بعده ، كما أقام بعده ولده ، وإنه ليرجو أن  
تكون أفضل من الأفضل ، وخرج أمره إليك ، بأن يروح إلى ديوان  
الانشاء ، ويكتب هذا السجل لك ، بتقليدك ورازته ، التي أحلك  
ربوتها ، وأحل لك صهوتها ، فتقلد ما قللك ( وزارة أمير المؤمنين ) من  
رقيتها ، التي تنامت في الأمانة إلا أن لارثة فوقها ، إلا ما جعله الله  
للمخلقة ، وثبوا منها صدراً لاتطلع إليه عيون الصدور ، وأرو منها في  
درجة على مثلها تلور البدور :

« وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . السورة ٣١ - لقمان -  
الآية ٣٤ ك » .

وقل « الحمد لله الذي أذهب عما الحزن إن ربنا لعفور شكور . السورة  
٣٥ - فاطر - الآية ٣٤ ك » .

ويشتر مستبشراً ، واستوطن متديراً ، واسط يدك ، فقد هوصل إليك

وخصماً ، وأنت على درجات السعادة ، فقد حمل لحكمك ثباتاً  
ودحضاً ، واعقد حبي العزمات لمصالح ، فقط أطلق بأمرك عقداً  
ورفضاً ، وأنفذ فيما أهلك له ، فقد أدى بك ماعلة من السياسة وقرصا  
وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف

ونفخ أود الأيام ، فعليك أمانة التهديد ، والثقيف ، وسحب ديول  
لبحار ، حيث لا تنصل التبحان ، وأملأ لخط من نور الله تعالى ، حيث  
تنقى الأوصال لجين الأجساد ، وإن هذا هو المصل الملبس ، فارتطبه  
بالقوى . التي هي عروة السجدة ، وخيرة الحياة ، والمهات ، وصفوة ما  
تلقى آدم من ربه من الكلمات ، وخير ما قدمته العوس لعددها في أمسها ،  
وجادلت به يوم تجادل كل نفس عن نفسها ، قال الله سبحانه وتعالى ، ومن  
أصدق من الله قبلاً « والأحره خير لم اتقى ولا تصدمون قتلاً - السورة  
٤ النساء - الآية ٧٧ م » .

وأما الفصاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهديك ، والتصرف على  
أمرك ونهيك ، فاستعمل منهم ، من أحسن عملاً ، فأما بالعابيات فلا

والجهاد فإليك راصع دره وباشقة ححره ، وظهر الحبل موطك ،  
وظلال الحبل مساكك ، وفي ظلمات مشاكله ، تجي بحاسك وفي أعقاب  
نوارله تلي ميامك ، فشم له عن ساق من الفسا ، وخص فيه بحرأ من  
الطفا ، وأحل فيه عقدة كلمات الله ، سبحانه ، وثيقات الحبي ، واسل  
الوهاد بدماء العداء ، وارفع برموسهم الرنا ، حتى يأتي الله بالفتح الذي  
يرجو أمير المؤمنين ، أن يكون مدحوراً لأيامك ، ومشهود به يوم مضحك ،  
بين يديه من لسان إمامك

والأموال : فهي زينة حلب اللطف ، لا العنف ، وحة يمتريها  
الرفق ، لا العنف ، وما برحت أحد ذخائر الدول للصفوف ، وأحد  
أسلحتها التي تخصي ، وقد تسو السيوف ، فقدم للبلاد الاستعمار ، تقدم

ملحق رقم ٢  
من كتاب فاضل إلى الملك المعادل  
بمصر بفتح دمشق على يد صلاح الدين

وكان رحيلنا من مصر يوم الأربعاء الرابع العشرين من ربيع الأول وقد نوحه صاحبها بن أيدينا قائلاً بشروط الخدمة ولوارثها ، ثم لقبنا بالأمير ناصر الدين ابن المولى أسد الدين شيركوه رحمة الله عليه وأدام نعمته ، والأمير سعد الدين ابن أنثى في يوم السبت السابع والعشرين . وبركنا يوم الأحد بجسر الخشب والأحجار الدمشقية إليها موافقة ، والوحيه على أبوابنا مترامية ، ولم يتأخر إلا من أبقي وجهه ورقب صاحبه ، ومن اعتقد بالعودة أنه نظر لنفسه في العافية . ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ركننا على خيرة الله تعالى ، وعرضي دون الدحول عدد من الرجال هدهتهم (٧١٠) مساكينا المصورة وصدقتهم ، وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم . ودخلنا البلد واستقرت سا دار والدما رحمة الله عليه فريرة عيوننا ، مستقراً سكون الرعية وسكوننا ، وأدعنا في أرجاء البلد الداء بإطانة النفوس وإزالة المكوس . وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأمرت ، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحت ، فشرعنا في امتثال أمر الشرع بزمعها ، وإعلاء الأمة منها بوضعها .

والرعايا فهم ودائع الله ( لأمير المؤمنين ودائعه لديك ) فاقبص عنهم الأيدي ، واسط بالعدل فيهم يدك ، وكس بهم رهوقاً ، وعليهم عطفاً ، واجعل الضعيف منهم في الحق قوياً ، والقوى في الباطل ضعيفاً ، ووكّل برعايتهم ناظر اجتهادك ، واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك ، وقنوبهم بالمحبة من أحقادك ، ولوحار أن يستقي عن النصيحة قائم بأمر ، أو حالس في صدر لاستمعيت عبه بمطنتك الركية ، ومطرتك الدكية ، ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك ، وأنت من المؤمنين ، وعراة بركة فتك رايتها باليمين

والله سبحانه وتعالى يؤيدك ، أي السيد الأجل ، بالصر العرير ، ويقصى للدولة على يدك بالفتح الوجير ، ولأهلها في بطرك بالأمر الحرير ، يمنع دست الملك محل مجدك ، الأبرير ، ويقر عيون الأعيان ، بما يظهر لك في ميدان السعادة ، من السق والتبرير ، ويمليك من محلته ، بما ملكك أباه ملك التحوير ، ويلحق بك في المجد أو لك ، ويحمد بك العواقب ولك

فاعلم هذا من أمره ( أمير المؤمنين ) ورسمه ، واعمل بموجه وحكمه إن شاء الله والسلام عليك ورحمة الله وبكاته

وكتب المعاضد لدين الله في طرته بحظه :

وحذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولن مضى مجدنا رسول الله - صل الله عليه وسلم - أحسن أسوة ( ولن بقى بقرنا سلوة ) تلك الدار الأخرى جعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا مهاداً ، والعاقبة للمتقين  
السورة ٢٨ - القصص - الآية ٨٣ ك .

إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أحرها ، ولا يصح أن يكون لعبير  
ذكرها ،

وكانت أعمار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبيها  
دولتها عليه من غلبة صغير كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها  
قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد . والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى  
أن يقطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وأن كلمة السنة بها وإن  
كانت مجموعة فإنها مضمومة ، وأحكام الشريعة وإن كانت مسيلة فإنها  
متحامة . وتلك البدع بها على ما يعلم ، وتلك الضلالات فيها على ما يفتنى  
فيه بمراق الإسلام ويحكم ، وذلك المذهب قد حالط من أهله اللحم  
والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آهة تعد من دون الله وتعظم وتعظم ،  
فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن عرة تقلب الذين كفروا في البلاد  
فسحت همنا دون همهم أهل الأرض إلى أن يستفتح مقلها ، ويسترجع  
للإسلام شاددها ، ويعيد على الدين صالته منها ، فسرنا إليها في عساكر  
صخمة ، وجموع جمة ، وبأموال انتهكت الموحود ، وبلغت ما المحمود ،  
أبعضاها من حاصل دما وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في  
قبضتنا ؛ ففرحت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستجداد  
الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب . وكان في تقدير الله  
أنا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر  
الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطتها وخطها ، وعلم أن استئصال  
كلمة الاسلام عطلها ، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما  
كاتبنا المسلمون في الشام في هذا الأوان ، بأنا لم ندرك الأمر وإلا حرح عن  
اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى العد فسرنا بالعساكر  
المجموعة ، والأمراء الأهل المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد لنا بها أنران ،  
وتقرر لنا في القلوب ودار . الأول ما علموه من إيثارتنا للمذهب الأقوم ،  
وإحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجوه من فك أسارهم ، وإزالة

## رسالة من صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله

و صمها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائعاً رائعاً ، يشتمل على تعداد  
ما للسلطان من الأيادي من جهاد الأفرنج في حياة نور الدين ، ثم فتح  
مصر واليمن ، وبلاد حجة من اطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسية بها  
يقول في أوله للمرسول (٧١١) :

فإذا قصي التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ،  
فليعد وليعد حوادث ماكانت حديثاً يفترى ، وجواري لمور إن قال فيها  
كثيراً فأكثر منه ماقد جرى ، وليشرح صدرها منها لعله يشرح ما صدرها ،  
وليوضح الأحوال المستورة فإن الله لا يبعد سراً :

ومن العرائب أن تسير عرائب في الأرض لم يعلم بها لمأسول  
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى والماء فوق ظهورها محمول

فإننا كنا نقس السار بأكمها وغربا يستير ، ونسشط الماء بأيدينا وسواها  
بتمير ، ونلقى السهام بسحورها وغربا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح  
بصلورها وغربا يدهى التصدير ، ولا بد أن نترد بصاعتنا بموقف العدل  
الذي نرد به العضوب ، ونظهر طاعتنا فتأخذ بحظ الألس كما أحدا بحظ  
القلوب ، وماكان العائق إلا أنا كما نتظر ابتداء من الجانب الشريف  
بالعمة ، يضاهي ابتداءنا بالخدمة ، وإيجاباً للحق ، يشاكل اجابنا  
للسبق ، كان أول أمرنا أنا كما في الشام مفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ،  
ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، فأى مدينة  
فتحنا ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف للإسلام معه  
ضرب ولم تكن فيه ، مما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجهل عدونا أن يصطن  
الجمرة ونملك الكرة ، ويتقدم الجماعة ، ويرتب المقاتلة ، ويدبر التبعة ،

وصافته به سسه ، وأصرح عن السديار بعد أن كانت صباعها  
ورساتيقها (٧١٢) بلادها وأقاليمها ، قد عدت منها أومره ، وجمعت  
عليها صلانه ، مست بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ما كان بأيديهم  
حاصلاً ، وأن يدع ما كان في ملكهم داخل ، ووصلنا البلاد وبها أحد  
عدهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم  
على حرب الإسلام ، أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السر فيهم  
أنفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف ،  
كلهم أعجم أعجم ، إن هم إلا كالأعجم ، لا يعرفون ربا إلا ساكن  
قصره ، ولا قلة إلا ما يتوجهون إليه من ركه ، وامثال أمره ، وبها عسكر  
من الأرض باقون على المصرية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت  
شوكة وشكة ، وحجة وحجة ، ولهم خواش لقصورهم من بين داع (٣)  
تنطف في الصلال مداحله ، وتصيب القلوب مخائله ، ومن بين كتاب  
تفعل أقلامهم أعمال الأسل ، وحدام يجمعون إلى سواد الوجه سواد  
البحر ، ودولة قد كبر سلطانها الصغير ، ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة جمع  
حطرات الصمير ، فكيف محضرات التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم  
طاهرة ، وتعطيل للمرائس على عادة جارية جائرة ، وتخريف للشرعية  
بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتشويل ، وكهر سقى بغير اسمه ،  
وشرع يشتر به ويحكم بغير حكمه ، فهازل نستحيهم سحت المبادر  
للدشمار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحتملها  
المساطر ، وعرايب تغدير لا تحتملها الأساطير ، ولطيف توصل ما كان من  
حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إهانة المقادير وفي أثناء ذلك استحلوا علينا  
بالفرنج ، دفعة إلى بليس ودفعة إلى دمياط ، وفي كل دفعة منها وصلوا  
بالعدد المحجر ، والحشد الأوفر ، وخصوصاً في بونه دمياط ، فإنهم برلوها

(٧١٢) جمع رستاق : لفظ فارسي معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد النجاري ، وتعريبه  
الردائق وجمعها الردائق والردائق

سحراً في ألف مركب ، مقاتل وحامل ، وبراق مائتي ألف فارس وراجل ،  
وحصروها شهرين يساكرونها ويراحونها ، ويراسونها ويصاحبونها ،  
والقتال الذي بصلبه الصليب ، والقراع الذي ينادي به الموت من كل مكان  
قريب ، ونحن نقاتل العدوين الباطل والظالم ، ونصابر الضررين المنافق  
والكافر ، حتى أتى الله بأسره ، وأيدنا بنصره ، وحابت المطامع من  
المصريين والفرنجة ، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان  
والأجناد ، فأخرجناهم من القاهرة ، تارة بالأوامر المرحقة وتارة بالأمور  
الفاضحة منهم ، وطورا بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقي  
القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ،  
وتخفت دهوته ، وخفيت ضلالتة ، فهناك تم لنا إقامة الكلمة ، والظهر  
بالخطبة ، والرفع للواء الأسود المعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه  
وفاته ، وبرأنا من عهدته بمن كان إثم حثتها أيسر من إثم إبقائه ، لانه  
هو جل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ، ولما حلا درعنا ،  
ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكمار ، فلم تخرج سنة إلا عن  
سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، إلى أن أوسعاهم قتلاً وأسرأ ،  
وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقل ما حطرت أهل الإسلام فيها  
من أعنف من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم من ملكها  
أعدائهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد  
الاكتساب ، ومنها قلعة يشر أيلة كان العدو قد بهاها في بحر الهد ، وهو  
المسلوك فيه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فساءت خلقاً ،  
وحرق الكمر في هذا الجانب خرقاً ، فكادت القبيلة أن يستولى على  
أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام التحليل عليه السلام ،  
أن يقوم به من ناره غير يرد وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم  
أن ينطرقه من لا يدين بها جاء به من الإسلام ، فأخذت هذه القلعة  
وصارت معقلاً للجهاد ، وموئلاً لسفار البلاد ، وغيرهم من عاد  
العباد .

ثم قال : وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الصال الملحد ، المدع  
المتنرد ، وله آثار في الإسلام ، وثار طائفة السبي عليه الصلاة والسلام ،  
لأنه سبى الشرائف الصالحات ، وباعهن بالنفس البهيم ، واستباح من  
كل مالا يقر لمسلم عليه نص ؛ ودان ببذعة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه  
كعبة ، وأخذ أموال الرعايا بالمعصومة وأباحها ، وأحل الفروج المحرمة  
وأباحها ، فأبها إلى أحادى عسكرا بعد أن تكلفا بمقات واسعته ،  
وأسلحة رائعة ؛ وسار فأخذناه والله الحمد ، وأصبح الله فيه القصد ،  
والكلمة هنا لك مشيئة الله إلى الهدى سامية ، وإلى ما يقتضيه الإسلام  
عذرة متبادلة .

« ولما في الغرب أثر أعرب ، وفي أعماله دون مطلبها مهالك كما يكون  
المهلك دون المطلب ؛ وذلك أن سبي عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد  
أمر ، وملكتهم قد حُمر ، وجيوشهم لا تنطاق ، وأمرهم لا ينشأ ، وسحر  
بمحمد الله قد تملكنا عما يجاورنا منه بلاداً تريد مسافتها عن شهر ، وسيرنا  
إليها عسكراً بعد عسكراً ، فرجع بنصر بعد نصر . ومن البلاد المشهيرة ،  
الله الأفاليم الحسايير : بركة (٧١٤) ، قصبة (٧١٥) ، قسطنطينة (٧١٦) ،  
توزر (٧١٧) ، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستنصر بأمر الله ،  
أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، ولا عهد للإسلام برفاعتها ، وبعد فيها  
الأحكام يعلمها المنصور وعلامتها . »

« وفي هذه السنة كان عبدنا وقد قد شاهدته وفود الأمصار ، ورموه  
بأسباع وأبصار ، مقداره سجون راجياً ، كلهم يطلب لسلطان ملده  
تقليداً ، ويرجو ما وعداً وبحاف وعبداً ، وقد صددت عما محمد الله

(٧١٤) يعرفها بقوت بأنها إقليم ومدينة ، بين الاسكتلندية واهريفة

(٧١٥) في طرق افرقية من ناحية المغرب

(٧١٦) أكثر بلاد افرقية إنتاج للسكر

تفاليدها ، وألفت إليها مقاليدها ، وسرب الخلع والمناشير والألوية ، به  
فيها من الأوامر والأقصية . فأما الأعداء المحدثون هذه البلاد ، والكفار  
الذين يقتاتلون بالممالك العظام والعرائم الشداد ، فمعهم صاحب  
قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والحالوت الأكبر ، وصاحب الممكة  
التي أكلت على الدهر وشررت ، وقائم الصارانية الذي حكمت دولته على  
ممالكها وعلبت ، وحررت له معه عروات بحرية ، ومساقلات طامره  
ومرية ، ولم يخرج من مصر إلى أن وصلت رسله في جمعة واحدة بونتين ،  
بكتاسين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفص الحناح ، وإلقاء السلاح ،  
والانتقال من معاداة إلى مهادنة ، ومن مفاصحة إلى ماصحة ، حتى إنه  
أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردد ذكرها ، وعساكره التي لم يحف  
أمرها .

« ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب  
الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتماعا في بونة دمياط فعدت وقسرا ، وهرب  
وكسرا ، أرد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولا استوعب فيه مائة  
وزمائه ، وله الآن خمس سفين تكثر عدته ، وتتحجب عدته ، إلى أن وصل  
مها في السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وحطت هائل ، ما أنقل  
ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملاء صدره مثل حيله ورجله ، وما هو إلا إقليد ،  
بل أقاليم ، نفقه ، وحيش ما احتفل ملك قط بظيره لولا أن الله حذله . »

ومن هؤلاء الخيوش الباذقة ، والبياشة ، والحموية (٧١٨) كل هؤلاء نارة  
يكسبون غرة لا تنطاق صراوة صرهم ، ولا تظلم شراة شرهم ، وناره  
يكونون سمارا يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم  
يد الأحكام المرهونة ، وما فيهم إلا من هو الآن يجلب إلى ملدا آلة قتاله  
وجهاده ، ويتقرب إليها بإهداء طرائف أعماله وتلاذه ، وكلهم قد قررت

(٧١٨) الباذقة : أهل مدينة البندبة أو صيدا ، والبياشة مدينة بيرا ، والحموية أهل حمود ، وكلهم  
من قديم الإغاليه الذين اشتهروا بشجاعتهم التجارية البحرية ، ومن ثم نبشأوا في عهد راجع

معهم الموصلة ، وانتظمت معهم المسألة ، على ما تريد ويكرهون ، وعلى ما يؤثر وهم لا يؤثرون .

« ولما قصى الله سبحانه بالوفاء النورية ، وكنا في تلك السنة على بية الغزاة ، والعساكر قد تجهزت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج على بانياس ، وأشرعوا على اجتيازها ، ورأوها فرصة مئوا يد انتهازها ، استصرح بصاحبها ، صرنا مراحل انصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهذنة المشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها »

« ثم عدنا إلى البلاد وتوالت إليها الأحبار بيا المملكة النورية عليه من تشعب الأراء وتورعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيفون بها الأطراف الإسلامية ، ويصايقون بها البلاد الشامية ، وأمرنا الدولة النورية قد مجس كبارهم ، وعوقبوا وصودروا ، والمهالك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور ، وجعلوا للقيام لا للعود في المجلس المحصور ، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر بالمكر والنهي عن المعروف وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سداً . وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يجرد الحرم في قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه . وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادريين بالفعود آتمة . وإننا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة ، وإذا جلورنا كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والحيل مستريحة ، والعساكر كثيرة المجموع ، والأوقات مساعدة وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة ، وأمور مخطة ، وآراء فاسدة ، وأمرنا متحاسدة ، وأطباع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فإننا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في

والمراد الآن هو كل ما يفوق الدولة ، ويؤكد لدعوه ، ويجمع الأمة . وعمط الألفة ، ويصمم الرأفة ، يفتح بنية البلاد ، وأن بطو بالاسم العباسي كل مالا نطقه العهد ، وهو تقليد جامع مصر ، واليمن والمغرب ، والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية . وكل ما يفتح الله تعالى للخدمة العباسية بسيفنا وسيف عساكرنا ، ولم نقيم من أم أولاد من بعدنا ، تقليداً يصمم للخدمة تخليداً وللدعوة تحديداً ، مع ما يصمم به من السيات التي هي المثلث . وبالجملة فالشام لا يصمم أمور بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه . والفرنج فهم يعرفون ما حصوا لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يجلوا . وإذا شد رأينا حس الرأي صربا سيف يقطع في عمده ، ويلعب المني بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤمن تحت برده ، واستعدنا أسرا من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبد »

وطبيرة قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، وصارت البيع مساحد يعمرها من  
يؤس بالله واليوم الآخر وصارت المدايح مواقف لخطب المنابر  
« وعد العباد الأصفهاني الحصون التي فتحت » .

وقال في آخر الكتاب : « وما ينأخر الهوى إلى البيت المقدس ، وهذا  
أوان فتحه ، وقد دام عليه ظلام الصلال ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن  
صحة السلام » .

### ملحق رقم ٣

« رسالة عمادية » عن صلاح الدين

إلى الخليفة العباسي بعد نصرة حطين والفتوحات التي  
تلفتها (٧١٩)

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي  
الصالحون (٧٢١) » والحمد لله على إيجاز هذا الوعد وعلى نصرة هذا الدين  
الحبيب من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد العسر يسرا ، وأحدث من بعد  
أمر أمرا ، وهو أن هذا الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا  
وغوطب السبي بقوله ولقد مس عليك مرة أخرى ، فالأولى في عصر السبي  
صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى في هذه الدولة التي حقق فيها  
من رف الكفاية والريمان كهية قد استدار ، والحق بيهجته قد استار ،  
والكرم رد ما عنده من الشعار ، والخدام بشرح في هذه المنح العظيم والصر  
الكريم فيشرح صدور المؤمنين ويسوء وجوه الكافرين ويورد من الشرى ما  
أعظم الله به من يوم الخميس الثالث العشرين من ربيع الآخر سلحه وتلت  
سعة أيام وثمانية أيام حسوما هدموا فيها نفوسا وجسوما ، فأصبحوا وقد  
هوا في الهاوية كأنهم أعجاز نخل حارية ، وأصبحت البلاد إلى الإسلام  
صاحكة كما كانت بالكفر باكبة ، ففي يوم الخميس الأول فتحت طبيرة ،  
والجمعة والسبت كانت الكسرة التي أبقت مهم بقية لا يقرم لهم بعدها  
قائمة ، أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . فتحت مكة بالأمان ارم  
دات العباد . وعلب الصلوات عندي مأسور ، وقلب الكفر الأسير  
بحسه المكسور مسكور ، وأيضاً الصليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد  
القصة وعلق ربه فلا يقبل فيه القاطر المقطرة من الذهب والفضة ،

(٧١٩) مراد الريمان ج ٨ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ من رسالة ملجبر العلاقات بين أرباط صلاح الدين  
لمحمد روفي

(٧٢٠) آية قرآنية

بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيعاً على السأى طارِقاً ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وثلاثت على الصخرة قلوبهم ، وشغبت بها وإن كانت صحرة كما تشفى بالماء عذلبهم ، ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنا كفوها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر يحربه

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسى تلك المؤسى إلا رجاء هذه المعنى ، ولا يساجر من يستمطله في حره ، ولا يعاتب بأطراف القما من يتعادي في عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا ، وليغور بجوهر الأجرة لا بالعرص الأدي من الدنيا ، وكانت الألس ريباً سلفته فأصبح قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ريباً غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتقال والاصطبار ، ومن طلب حظيراً حاطر ، ومن رام صعقة رابحة جاسر ، ومن سبأ لأن يحل عمرة عامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت نبوت الأعداء المعاجم فيعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فيعضها ، هذا إلى كون القعود لا يقصى به فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حقه في العباد ، ولا يوق به واجب التقليد الذي يطوفه الخادم من أئمة قصوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وحلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يسألون ، لا جرم أنهم أورشوا سرهم وسريرهم خلطهم الأظهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المبقة ، وعنوان صحيفة فصلهم لا صدم سواد القلم وبياض الصحيفة ، فما عاشوا لما حصر ، ولا عضوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ، ومنه مقبولاً ، وخلص إليهم إلى المصاحج مع فاطمات به جنوبها ، وإلى الصحائف ما عبت به جيوبها ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهار به بصيراً ، والشرق بهتدى بأنواره ، بل إن بدا نور من دانه هتف به العرب بأن واره ، فإنه نور لا تكه أعاق السدف ، وذكر لا توازيه أوراق الصحف .

## ملحق رقم ٤

الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل  
إلى الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن الإمام  
المستضى بأمر الله بفتح المقدس (٧٢١)

« أدام الله تعالى أديم الديوان العزيزى النبوى ، ولأزال مطهر الجدد بكل جاحد ، عيياً بالتوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى عن اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والصل في جمعه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض عبر وارد ، متعدد مساعى الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد ، ماضى حكم العدل بحرم لا يمضى إلا ببيل غوي وريش راشد ، لارالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرافح وأنواراً إلى المساجد ، ويعوث رعه إلى الأعداء حيلاً إلى المرافح وحيلاً إلى المرافد .

كتب الخادم هذه الخدمة ، تلوما صدر عنه مما كان يجري بحرى التناشير لصح هذه العرمة ، والعنوان لكتاب وصف النعمة ، فإنها بحر للأقلام فيه سجع طويل ، ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل وبشرى للخواطر في شرحها مأرب ، ويسرى للأمرار في إظهارها مسارب ، والله تعالى في إعادة شكر رضا ، وللفنعة الراهنة به دوام لا يقال معه : هذا ماضى . ولقد هبأت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، وقد استثبت عقائد أهل على آيين بصائرهم ، وتقلص ظل رجاء الكافد المبسوط ، وصدق الله أهل دبه فلما وقع الشرط وقع المشروط ، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطه ، والغوز معروضاً فقد بذلت الألفس في ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستصعماً ، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأوف أهل الشرك راغمة ، وأدلت السيوف إلى الأجل وهي نائمة ، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أمانت أن الصباح عند جان الحين ، واسترد المسجون تراثاً كان عنهم آبقاً ، وظفروا يقطة



وطارت جرفه فرقا ، وفل سيفه فصارعها ، وصعدت حصانه وكانت الأكثر  
 عدداً وحصى ، وكلت حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان ،  
 وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يذان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض  
 لها حليلة ، وعصت فيه وكانت عيون السيوف دوماً كثيفة ، ونام حص  
 سيفه وكانت يقطعة تريق نطف الكرى من الحفون ، وجذعت أنوف رماحه  
 وطالما كانت شائعة بالمنى أوراخه بالمون ، وأصحت الأرض المقدسة  
 الطاهرة وكانت الطامث ، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ،  
 وبيوت الكفر مهدومة ، وبيوت الشرك مهتومة ، وطوائف المحامية ، مجمعة  
 على تسليم الفلاح الحامية ، وشجعانه المتواوية ، ملدعة لبدل الفطائع  
 الواوية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عصه ، ولا في نار الألفه لهم نصرة ،  
 قد صربت عليهم الدلة والمسكة ، ويدل الله مكان السيئة الحسة ، ونقل  
 بيت هادته من أيدي أصحاب المشامة إلى أيدي أصحاب الميمنة .

وقد كن الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمده الله بمداكرته ، وأنجده  
 بملائكته ، فكسرهم كسرة مانعها حبر ، وصرعهم صرعة لا يمتش  
 بعدها بمشيئة الله كفر ، وأسرت منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم  
 من قتلت به الماصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح  
 والكفر ، وعن أصناف يجبل بأنه قتلهم بالسيوف الأملاق والرماح  
 الأكسر ، فليلوا بشر من السلاح وبألوه أيضاً بنار ، فكم أهلة سيوف  
 تقارضن الصراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أجسم قبا تبادلت  
 بالطمعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم  
 إلى أجل فاختلسه ، وفجرت تلك القوس ماها فإذا فورها قد نهش القرن على  
 بعد المسافة واقتربه ، فكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة مشهوداً ، وكان  
 الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً ، وكانت صلوع الكفار لنا جهنم  
 وقوداً . وأسرت الملك ويده أوثق وثائقه ، وأكد وصله بالدين وعلاقته ، وهو  
 صليب الصليبيوت ، وقائد أهل الخبوت ، ما دهموا قط بأمر إلا وقدم بين  
 دهمائهم بسط لهم باعه ، وكان من الدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم

أهم ينهات على ناره فراشهم ، ويجمع في ظل صلالة حشاشهم ،  
 ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق ، يرويه ميثاقاً يسون  
 عليه أشد عهد وأوثقه ، ويعملونه سوراً تحفر حواضر الخيل حده ، وفي هذا  
 السوم أسرت سراتهم ، ودهيت دهانتهم ، ولم يعلت منهم معروف إلا  
 القومصى ، وكان لعه الله ملياً يوم الطمر بالقتال ، وملياً يوم الخذلان  
 بالاجتيال ، فنحا ولكن كيف ، وطار خروفاً من أن يلحقه مسر الرميح أو  
 جناح السيف ، ثم أحله الله تعالى بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان  
 لعنهم فذلكت ، وانتقل من ملك الموت إلى مالك

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية  
 العباسية السوداء صبغا ، البيضاء صبغا ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ،  
 الغالبة هي وعراثم أوليائها ، المستصاء بأنوارها إذا فتح عينها الشر  
 وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر ، فافتح بلاد كذا وكذا ، وهذه  
 أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد ببلاداً وهي مزارع وفدن ، كل هذه دوات  
 معاقل ومعاقر ، وبحار وجرائر ، وجوامع ومدير ، وجموع وعساكر ،  
 يتجاوزها الخادم بعد أن يجرزها ، ويتركها وراءه بعد أن يتهرها ، ويخص  
 منها كفراً ويرزع إيماناً ، ويؤى أهل القرآن بعد أهل الصليان للقتال هي  
 دين الله مقاعد ، ويفر فيه ويهون أهل الإسلام أن يملق النصر منه ومن  
 هسكره بجارٍ ومجرور ، وأن يظفر بكل سور ، ما كان يحاف زلزاله ولازياله  
 إلى يوم النسخ في الصور .

ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد ، واعتصم  
 بصمتها كل قريب منهم وبعيد ، وظلوا أبا من الله مانعته ، وأن كيستها  
 إلى الله شافعتهم ، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ،  
 وعراثم قد تألبت وتآلفت على الموت فزلت بفرسته ، وهان عليها مورد  
 السيف وأن تموت بمعصته ، فراول البلد من كل جانب ، فإذا أودية  
 عميقة ، ولحج وعر عريقة ، وسور قد انعطفت عطف السوار ، وأبرجة قد

عليها معرج ، وغبل فيها متولج مرل عليها وأحاط بها وقرب منها ،  
 وضرب خيشه بحيث يساله السلاح بأطرافه ، ويراحه السور بأكتافه ،  
 وقابلها ثم قاتلها ، وبرها ثم نازها وبرز إليها ثم باررها ، وحاجرها ثم  
 ناجزها ، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم  
 لا يصبرون على عبودية الحد من عتق الصمغ ، فراسلوه بديل قطيعة إلى  
 مدة ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لجدة ، فعرفهم الخادم في الحن  
 القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المسجقات التي تتولى عقوبات  
 الحصون عصيها وجباها ، وأوتر لهم قسيها التي ترمى ولا تعرقها سهامها  
 ولكن تضارق سهامها نصالها ، فصاعدت السور فإذا سهامها في ثبابا  
 شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرأ من المجيق بجلد إحلاله إلى الأرض  
 ويعملو علوه إلى السماء ، فشح مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيبها  
 صم أعلاجها ، ورفع منار عجاجها فأحل السور من السبارة ، والحرب  
 من النظارة ، وأمكن النقب ، أن يسمر للحرب النقب ، وأن يعيد الحجر  
 إلى سيرته الأولى من التراب ، فتقدم إلى الصخر قمضغ سرده ثأنياب  
 معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أمته ، وأسمع  
 الصخرة الشريعة أنبيه واستعائته إلى أن كادت ترقى لفتنه ، ونرا بعض  
 الحجارة من بعض ، وأخذ الحراب عليها موثقاً على ترح الأرص ، وفتح  
 من السور باب سد من نجاتهم أبواباً ، وأخذ يتقب في حجره فقال عنده  
 الكافر : يا يئس كنت تراباً ، فحينئذ يش الكفار من أصحاب الدور ،  
 كما يش الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وعمرهم بالله المرور ،  
 وفي الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ، ابن درران (٧٢٢) سائلاً أن  
 يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسلطة ، وألقى بيده إلى  
 التهلكة . وعلاه ذل الملكة بعد عز الملكة ، وطرح جبه على التراب ،  
 وكان جنباً لا يتعاطاه طارج ، وبذل ملعاً من القطيعة لا يطمح إليها أهل  
 طامح ، وقال : ها هنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاهد

المرمح على أنهم إن جمحت عليهم الدار ، رحلت الحرب عن طورهم  
 الأورار ، سدى بهم فمحلوها ، وثى بساء لفرج وأطعمهم فقتلو ، ثم  
 استقتلوا بعد ذلك ، فلا يقتل حصم إلا بعد أن يتصف ، ولا يعل سيف  
 من يد إلا بعد أن تقطع أو يقصف ، فأشار الأمراء بأحد الميسور من البلد  
 المأسور ، عيه لو أحد حرباً فلا بد أن يتقمم الرجال الأسحاد ، ويقال كفوا  
 عنها في آخر أمر قد بيل من أوه المرء ، وكانت الخراج في المعسكر قد تقدم  
 منها ما أعتقل الفتكات ، وأثقل الحركات ، فقل منه المدول عن يد وهم  
 صاعرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم طاهرون ، ومذك  
 الإسلام خطة كان عهده بها دمة سكان ، فحدمها الكفر إلى أن صارت  
 روضة جنان ، لآحرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهصهم ، وأرصى أهل  
 الحق وأسخطهم ، فإهم ، حذلهم الله ، حرها بالأسل والصمغ ، وسوها  
 بالعمد والصمغ ، وأودعوا الكنائس ما وبيوت الديونة والاستارية فيها  
 بكل عريسة من الرحام الذي يطرده ماؤه ، ولا يطرده لألاؤه ، قد لطف  
 الحديد في تجربته ، ونفس في توشيعه ، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس  
 شديد ، كالأذهب الذي فيه نعيم عبيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها  
 من بياض الترحيم وفراق ، وهدماً كالأشجار لها من التثبيت أوراق

وأوعر الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأثمة من  
 يوفيه ورده المورد ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت  
 السماوات يتعطرن للسجود لا للوحوم ، والكواكب منها تنثر للطرب لا  
 للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة ، وظهرت  
 قنور الأنبياء وكانت بالحجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث  
 يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المبر ، فرحب به  
 ترحيب من ير بمن بر ، وحقق عليها في خفافيه ، فلو طار سروراً لطار  
 بجاحيه

وكتاب الخادم وهو مجد في استمتاع بقية الثمر ، واستشرار ما صاق

وأيام الشقاء قد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاسست  
العساكر خلالها ، وهبت ذخائرها وأكلت عيالاتها ، فهي بلاد ترعد ولا  
تسترفد ، ولحم ولا تستفد ، ينفق عليها ولا ينفق منها ، وتجهز الأساطيل  
لبصرها ، وتقام المراكب بساحلها ، ويدأب في حمارة أسوارها وممرات  
معاقلها ، وكل مشقة بالإصافة إلى نعمة الفتح محتملة ، وأطباع الفرج  
بعد ذلك غير مرجحة ولا معتزلة ، فإن يدعو دعوة يرجو الخادم من الله أنها  
لا تسمع ، ولن يكتفوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع ، وهذه البشائر  
لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا بها سوى المشاهدة  
تتخلص ، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ، ومبشراً صارحاً ، يطالع  
بالخبر على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته ، وهو  
فلان ، والله الموفق .

## المصادر والمراجع العربية :-

أولاً : المصادر :-

- (١) ابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م ) علي بن أحمد الكرم  
أ - التاريخ الباهر تحقيق عبد القادر طليبات  
القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م
- ب - الكامل في التاريخ ط . بيروت
- (٢) الاضطحري ( ت في القرن الرابع الهجري ) أبو اسحق إبراهيم بن  
محمد العارضي  
المسالك والممالك تحقيق د / محمد جابر الحيني  
القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م
- (٣) الأصفهاني ( عماد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الرجاء ) ت  
٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م
- كتاب الفتح القسي في الفتح القدس مصر ١٣٢١ هـ
- (٤) ابن جبير ( ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ) أبو الحسن محمد بن أحمد  
رحلة ابن جبير  
تحقيق د / حسين نصار القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م  
ونسخة ط . بيروت
- (٥) ابن الحوزي ( ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م ) شمس الدين أبو المظفر  
يوسف ابن قرا وأوغلى سبط ابن الحوزي :  
مرآة الزمان ط . حيدر آباد
- (٦) ابن حلكان ( ت ٦٨١ هـ / ١٢٧٠ م ) شمس الدين أبو العباس  
أحمد بن إبراهيم ابن أبي بكر الشافعي  
وفيات الأعيان ط . بيروت ١٩٧٢

(٧) الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) الحافظ شمس الدين  
دول الاسلام

تحقيق محمد شبيب ومحمد مصطفى إبراهيم

ط . القاهرة ١٩٧٤م

(٨) أبو شامة (ت ٦٦٠ هـ) بهاء الدين أبو محمد بن محمد بن عبد  
الرحمن ابن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي الروصيني في  
أخبار الدولتين

تحقيق د / محمد حلمي محمد أحمد ط مصر

(٩) ابن الشحنة (حوالي القرن التاسع الهجري) أبو الفضل محمد  
ابن المتحجب في تاريخ مملكة حلب

بيروت ١٩٠٩ م

(١٠) ابن شداد (٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) القاصي بهاء الدين أبو

الحساس يوسف بن رافع ابن عجم

لنواذر السلطانية والحساس اليوسفية

تحقيق محمد محمود صبح سلسلة كتب ثقافية ١٩٦٢ م

(١١) الشهرستاني (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) أبو الفتح بن عبد الكريم

الملل والمحل تحقيق محمد بن فتح الله بدران

ط . أولى مطبعة الأهر

(١٢) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع .

مصر . ط . أولى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م

(١٣) ابن العربي (ت ٦٨٥ هـ) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الطيب

الملطي المعروف بابن العربي

مختصر تاريخ الدول تحقيق صالحاني بيروت ١٨٩٠ م

(١٤) ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) أبو الفلاح عبد الحى .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب

ط . بيروت الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م

(١٥) عمارة اليمنى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) أبو محمد عمارة بن أبي

الحسن حل

الكتب المصرية في أخبار الوزارة المصرية

ط في مدينة شلون ١٨٩٧ م

(١٦) أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢١ م) اسماعيل بن عماد الدين

صاحب حماء

أ - تقويم البلدان ط . باريس ١٨٤٠ م

ب - المختصر في أخبار البشر ط . بيروت

(١٧) ابن الفرات المصري (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المعروف

بابن الفرات المصري)

تاريخ الدول والملوك تصوير شمس رقم ٣١٩٧ تاريخ دار الكتب

ومجلد ٤ ج ١ ، ج ٢ تحقيق حسن محمد الشجاع ١٣٨٦ هـ ،

١٣٨٩ هـ

(١٨) ابن الفلاني (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة

دبل تاريخ دمشق . ط . بيروت ١٩٠٧ م

(١٩) ابن قاضي شهبة :

الكواكب النورية في السيرة النورية

مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ

(٢٠) ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل

بن القرشي الدمشقي البداية والنهاية

(٢١) أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٣٥٤ م) جمال الدين بن تعري  
تغرى بردى الهجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

ط - دار الكتب المصرية

(٢٢) المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٠ م) تقي الدين أحمد بن علي  
(آ) اتعاذ الخنفا في أحبار الأئمة الفاطميين الخلاص ح ٢ ، ج ٣

تحقيق د / محمد حلمي محمد أحمد

ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ط . بيروت

ج - السلوك لمعرفة دول الملوك التأليف والترجمة والشر

د - إعانة الأمة بكشف الغمة نشر د / الشيال وزينة القاهرة

١٩٥٧ م

(٢٣) ابن عماني (الأسعد) ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م

قوانين الدواوين مطبعة مصر ١٩٤٣

جمع وتحقيق عزيز سوريال عطية

(٢٤) ابن ميسر (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن علي بن يوسف

بن جلب :

تاريخ مصر (ط . هنري ماسيه) القاهرة ١٩١٩ م

(٢٥) ناصري خسرو :

السفرنامه ترجمة د / يحيى الخشاب ط مصر

(٢٦) النويري (٧٢٣ هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

نهاية الأرب في فنون الأدب

مصر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

(٢٧) ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) جمال الدين

محمد بن سالم

(٢٨) ابن الوردى (الشيخ زين الدين عمر بن الوردى)

تنمة المختصر في أخبار البشر مصر ١٢٨٥ هـ

(٢٩) ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله

الحموى الرومى

أ - معجم البلدان ط . بيروت

ب - المتفق لفظا والمختلف صقعا ط ١٨٤٦ م

- ٩ - رسيهون : سيف  
تاريخ الحروب الصليبية  
ترجمة د / السيد البار العربى  
ط بيروت ١٩٨١
- ١٠ - سرهك ( اسماعيل )  
حقائق الأحبار من دول البحار  
مصر . طعة أولى ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م
- ١١ - سعيد عبد الفتاح عاشور : الدكتور  
أ - الحركة الصليبية مصر . طعة أولى ١٩٦٣ م  
ب - أوروبا المصور الوسطى . مصر ١٩٦١  
ج - أصواء جديدة عن الحروب الصليبية ، المكتبة الثقافية العدد ١١٨
- ١٢ - السيد عبد العزيز سالم : الدكتور  
أ - طرابلس اشام في التاريخ الاسلامى الاسكندرية ١٩٦٦ م  
ب - تاريخ البحرية الاسلامية ( احرة الاول ) الاسكندرية ١٩٨١ م
- ١٣ - سيد عبد الحريزى  
الاخبار السنوية في الحروب الصليبية مصر . ط . الثانية ١٣٢٩ هـ
- ١٤ - سيدو  
خلاصة تاريخ العرب ط . دار الآثار بيروت ١٤٠٠ هـ
- ١٥ - السيوطى ( الامام الخافط جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر )  
ت ٩١١ هـ  
تاريخ الخلفاء الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م
- ١٦ - شحاتة عيسى إبراهيم ( الدكتور )  
الفهرة الألقاب كتاب العدد رقم ١٨٤

- ب - المراجع  
١ - أحمد أحمد شلى ( الدكتور )  
موسوعة التاريخ الاسلامى الطبعة الخامسة ١٩٨٢ م
- ٢ - اسحق تاو صروس عيد ( الدكتور )  
روما وبيزنطة ( من قطيعة فوشيبوس حتى العرو اللاتيس لمدينة قسطنطين  
ط - القاهرة ١٩٧٠ سلسلة المكتبة التاريخية
- ٣ - باركر ( أرست )  
الحروب الصليبية ترجمة د / السيد البار العربى  
القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٠ م
- ٤ - حوزيف نسيم هذه ( الدكتور )  
أ - الوحدة وحركة اليقظة العربية القاهرة . ط . الأولى ١٩٦٦  
ب - لويس التاسع في الشرق الأوسط ط . مصر ١٩٥٦
- ٥ - حسن إبراهيم حسن ( الدكتور )  
أ - الفاطميون في مصر المطبعة الأميرة ١٩٣٣ م  
ب - النظم الاسلامية بالاشتراك مع د / على إبراهيم  
مصر ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م
- ٦ - حسن الباشا ( الدكتور )  
الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار  
ط . القاهرة القاهرة ١٩٥٧ م
- ٧ - حسين مؤنس ( الدكتور )  
بور الدين محمود  
ط . القاهرة ١٩٥٩ م

١٧ - عبد القادر طليحات :

مظفر الدين كوكبوري العدد ٣٢ أعلام العرب

١٨ - عبد الرحمن زكي ( الدكتور )

بناء القاهرة في ألف عام القاهرة ١٩٨٦ المكتبة الثقافية

١٩ - عبد المنعم ماجد ( الدكتور )

أ - الناصر صلاح الدين يوسف بيروت ط . الثانية ١٩٦٧

ب - ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر . الاسكندرية ط .

الثانية ١٩٧٦

ج - العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى بيروت ١٩٦٦

د - الحصار الاسلامي في العصور الوسطى القاهرة ط . الثانية

١٩٧٣

٢٠ - علي حسن الحروبطل ( الدكتور )

مصر العربية الاسلامية القاهرة ١٩٦٣

٢١ - علي مبارك :

الخطط التوفيقية الجديدة القاهرة ١٩٨٠

٢٢ - عمر أبو النصر

قلعة الموت ط . بيروت ١٩٧٠ م

٢٣ - فيشر ه . ا . ل

تاريخ أوروبا العصور الوسطى

ترجمة د / زيادة ود / العربي ط . القاهرة ١٩٦٦ م

٢٤ - فيليب حتى ( الدكتور )

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين

ترجمة د . كمال البازحى ط . بيروت ١٩٥٩ م

٢٥ - كمال الدين سامح ( الدكتور )

المهارة الاسلامية في مصر المكتبة الثقافية

٢٦ - لينبول ( ستانلى )

سيرة القاهرة

ترجمة الدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم القاهرة ١٩٥٠ م

٢٧ - مجموعة أبحاث الندوة الدولية ( القاهرة في ألف عام )

الهيئة العامة للكتاب

٢٨ - محمد جمال الدين سرور ( الدكتور )

أ - مصر الفاطمية مصر ١٩٦٠ الألف كتاب رقم ( ٢٧٤ ) .

ب - سياسة الفاطميين الخارجية القاهرة ط . الرابعة

١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

ج - الدولة الفاطمية في مصر وسياساتها الداخلية القاهرة ١٩٧٩ م

د - الظاهر بيبرس وحصار مصر في عهده القاهرة

١٣٥٠ هـ / ١٩٥٠ م

٢٩ - محمد حلمى محمد أحمد ( الدكتور )

مصر والشام والصليبيون القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

٣٠ - محمد عبد الله عنان

تراجم إسلامية وشرقية وأندلسية . ط . الأولى ١٩٤٧ م

٣١ - محمد فتيل البقل

التعريف بمصطلحات سجع الأعشى . مصر ١٩٨٤ م

٣٢ - نخبة من المؤرخين

تاريخ الحضارة المصرية التأليف والترجمة والنشر

( العصر اليونانى والرومانى فى العصر الاسلامى )

٣٣ - محمد حمدى المناوى ( الدكتور )

الوزارة والوزارة العصر الفاطمى المكتبة التاريخية

## المراجع الأجنبية

- 1 - Besand (W) Palmer (E. H)  
Jerusalem, The City of Herod and  
Saladin (Landon 1899)
- 2 - BRokelman (Karl)  
History of Islamic People (London 1959)
- 3 - Cambridge Med. history (Cambridge 1957)
- 4 - Encyclopedia Britanica (London 1972)
- 5 - Encyclopédie de L'Islam (Leiden, 1 ère ed, 2 ed)
- 6 - Grousset (R)  
History des croisades et du Rpyaume  
Franc de Jerusalem (Paris 1943- 6)
- 7 - Kerr (A. J)  
The crusades. (London 1966)
- 8 - King (E. J),  
The Knights hospitallers in the holy Land  
(London 1931)
- 9 - Kirk (G)  
a Short history of the Middle East.  
(London 1966)
- 10 - Lamb (H)  
The crusades (The flame of Islam)  
(Newyork 1931)
- 11 - Lane- poole (S)  
1 - A history of Egypt in the middle ages  
(London 1901)
- 2 - Saladin  
(London 1898)
- 12 - Lewis (Bernard)  
The arabs in history (london)
- 13 - Louis & Jonathan,

- ٣٤ - نظير سعداوى (الدكتور)  
أ - التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين القاهرة ١٩٥٧  
ب - جيش صلاح الدين القاهرة . ط . الثانية ١٩٥٩
- ٣٥ - الحرقى ( محمد على ) الدكتور  
شعراء الجهاد فى عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام القاهرة . ط  
أولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م
- ٣٦ - وفاء محمد على ( الدكتور)  
أ - الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية القاهرة  
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م  
ب - من صور الجهاد الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية القاهرة  
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م
- ٣٧ - ول . ديورانت  
قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الرابع ترجمة محمد بدران  
القاهرة ط . الثانية ١٩٦٤ م



## « كشاف الموضوعات »

### المقدمة

٥	الفصل الأول
٩	الحالة في مصر قبيل قدوم صلاح الدين
٣٩-٩	ضعف الخلفاء
٩	الصراع على الوزارة :
١٢	الصراع بين ابن مصلح وابن السلار
١٣	المصالح طلائع بن رزبك وعباس وابنه نصر
	رزبك وشاور
١٦	شاوور وضرغام
٢٠	حملة شيركوه الأولى على مصر سنة ٥٥٩ هـ
٢٢	حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ
٢٩	حملة شيركوه الثالثة على مصر سنة ٥٦٤ هـ
٣٢	وزارة شيركوه
٣٨	

### الفصل الثاني

٨١-٤١	الدور الأيوبي حتى وفاة نور الدين محمود
٤٢	( ٥٦٤ - ٥٦٧ هـ ) ( ١١٦٩ - ١١٧٢ م )
	صلاح الدين والأخطار التي جابهته في مصر
٤٤	أولاً : حتى سقوط الدولة الفاطمية
٤٨	الأخطار الداخلية
٥١	الفرنج وصلاح الدين
٥٥	محاولة القضاء على المذهب الشيعي في مصر

14 - Saunders (J. I)

A history of Medieval Islam (London)

15 - Schlumberger (G)

1 - Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem, Egypte

(Paris 1968)

2 - Renaud de Chatillon

(Paris 1898)

16 - Serlstevens (A. T)

Le Livre Markopolo (Paris, 1955)

17 - Setton (K. M)

A history of the Crusade (penesylvania 1958)

18 - Stevenson (W. B)

The Crusaders in the East.  
(Cambridge 1907)

19 - Wiet (G)

L'Egypte arabe  
(Paris 1937)

20 - Zoe Oldenboury.

The crusades  
(Newyork 1968)

٢١ - قرة جليبي

تاريخ روضة الأبرار بولاق ١٢٤٨ هـ

١٧٢	ملحق رقم ( ٣ ) رسالة « عمادة » عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي
١٧٤	ملحق رقم ( ٤ ) الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام الناصر لدين الله بفتح القدس
١٨١	المصادر والمراجع العربية
١٩١	المراجع الأجنبية
١٩٣	كشاف الموضوعات

٦١	صلى سقوط الخلافة الفاطمية في مصر
٦٦	حركة عمارة اليمن
٧٦	العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين
١١٠-٨٣	الفصل الثالث الدور الأيوبي حتى وفاة الصالح اسماعيل ( ٥٦٧ - ٥٧٧ هـ ) ( ١١٧٢ - ١١٨٢ م )
٨٣	صلاح الدين والزنكيون
٨٤	توجه صلاح الدين إلى دمشق
٩٠	صلاح الدين والباطنية
٩٩	صلاح الدين والفرنج
١٠٦	الفصل الرابع :
١١١-١٥٥	تدعيم الدولة الأيوبية في مصر والشام
١١١	المواجهة مع بني زنكي
١١٧	الجهاد ضد الفرنج والصليبيين وحرب التحرير
١٢٣	— موقعة حطين
١٣٣	— فتح بيت المقدس
١٣٩	استسلام حصن الشوك والكرك
١٤٢	صور
١٤٣	رد الفعل الأيوبي أو الحملة الصليبية الثالثة
١٤٧	وفاة صلاح الدين الأيوبي
١٥٢	الملاحق :
	ملحق رقم ( ١ )
١٥٦	منشور تولية الخليفة العاضد لصلاح الدين وزيراً للفاطميين
١٦٣	ملحق رقم ( ٢ )
	من كتاب فاضل إلى الملك العادل بمصر بفتح دمشق على يد صلاح الدين